

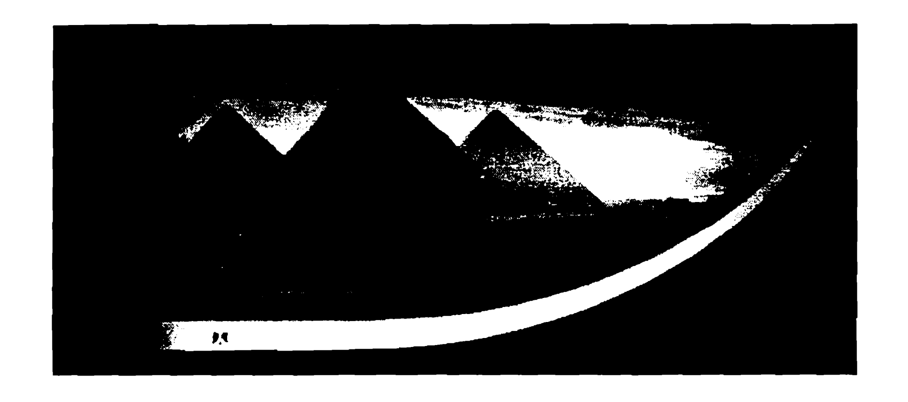
فضائل مصر ومزايا أهلها

تأليف

د. محمد بن موسى الشريف



فضائل مصر ومزايا أهلها



تأليف

محمد بن موسى الشريف



الطبعة الأولى

١٤٣٣/٢٠١٢م

رقم الإيداع: ٢١٤٣٢/٢٠١١

الترقيم الدولي: I.S.B.N

977- 265- 889- 5

مركز السلام للتجهيز الفني
عبد الحميد عمر
٠١٠٠٦٩٦٢٦٤٧

دار التـــوزيع والنـــشر
ش.ذ.م.م.

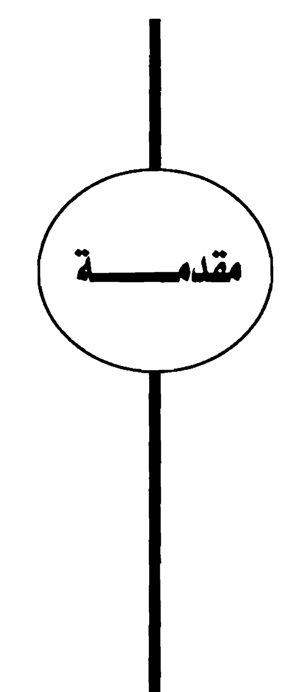
مصــــــر-القاهــــــرة -السيدة زينب ص.ب ١٦٣٦

٢٥١ ش بورسعيد ت: ٢٣٩١٣٧٤٠ - فاكس: ٢٣٩١٧٩٥٦

مكتبة السيدة: ٨ ميدان السيدة زينب ت: ٢٣٩١٧٩٥٠

www.eldaawa bookshop.com

Email:d.eltwzea@gmail.com



الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، وبعد:

فهذه مقالات في فضائل مصر ومزايا أهلها، جمعتها من الآيات الشريفة، والأحاديث الكريمة، والآثار المنيفة، ومن كلام علماء وأدباء السلف والخلف، وأردت بجمعها أمورًا منها:

أولاً: أن تكون هذه الفضائل والمزايا مذكرة للمصريين بأمجادهم وريادتهم لينطلقوا منها إلى تحقيق ما هم له أهل من أمور الدنيا والآخرة، وحريٌّ بالشباب المصريين القارئين لهذه الفضائل أن يمتلئوا فخارًا وعزة تمكنانهم من تَسَنُّم ذرى المجد، إن شاء الله تعالى.

ثانيًا: إن المصريين عقب ثورتهم المباركة لفي أمس الحاجة إلى خارطة

طريق ثقافية إسلامية ليهتدوا بهديها، وليس هناك أحسن من تراثهم الإسلامي الغني وثقافتهم الإسلامية الرائعة ليهتدوا بهديهما وليسترشدوا بضيائهما، وليقطعوا الطريق على العلمانيين واللادينيين؛ فإن مصر لم تكن يومًا علمانية ولن تكون -إن شاء الله تعالى- وكل هذه المحاولات العقيمة ستذهب أدراج الرياح، وإن هي إلا أضغاث أحلام يتعلق بها أولئك الضالون، فأوردت لهم شيئًا من ذلك، بل قطرة من بحر، وقُلٌّ من كُثْر يكون لهم مُعينًا ومَعِينًا ينهلون منه، إن شاء الله تعالى.

ثالثًا: قد قيل: لا يعرف الفضل لأهل الفضل إلا ذوو الفضل، ولذلك ينبغي على العرب والمسلمين أن يعرفوا الفضل للمصريين، وأن ينزلوهم منزلتهم اللائقة بهم، وأن يقروا لهم بتقدمهم وأستاذيتهم، وإنما قلت ذلك لأن هنالك بعض الغَمْط لحق المصريين في العصور الأخيرة انتقاصًا لهم واستهانة بحقهم، وهذه المقالات تساعد على معرفة قدرهم، والإقرار بمنزلتهم، والتسليم بتقدمهم وأثرهم الرائع قديمًا وحديثًا في الأمة الإسلامية.

رابعًا: إن الحقوق ينبغي أن يصاحبها الواجبات، ولذلك حرصت بعد أن أوردت فضائل ومزايا أهل مصر مما يثبت عظيم حقهم على المسلمين أن أُتبع ذلك بذكر الواجبات التي تجب على أهل مصر والتي ينتظر أهل الإسلام قيام المصريين بها، وهذه الواجبات لا يستطيع المصريون أن ينفكوا عنها ولا يتركوها ولا ينيبوا غيرهم فيها، بل هي متعينة

عليهم مرتبطة بهم ما بقوا في هذه الحياة، فهذا قدرهم، وتلك وظيفتهم، وذلك واجبهم -والله المستعان- وشعوب الدول العربية والإسلامية تنظر إلى مصر نظرة إجلال وإكبار، وتعلق عليها -بعد الله تعالى- كثيرًا من الآمال.

* وهذا وقد حرصت في كل ما أوردته على الإيجاز حتى لا يصبح هذا الكتاب مجلدات ضخمة يعزف عن قراءتها أكثر الناس، وإنما أردت أن يكون هذا الموضوع في كتاب متوسط يستطيع قراءته كل الناس.

وقسمته إلى أحد عشر قسمًا، في كل قسم مزية وفضيلة، ثم ختمت الكتاب بالقسم الحادي عشر وهو يتضمن الواجبات التي ينتظر المسلمون أن يؤديها المصريون زكاةً لفضائلهم وثمنًا لتميزهم.

هذا ولابد لي من أن أقول قبل الشروع في الكتاب:

إنه ليصعب على المرء أن يكتب في فضائل مصر ومزايا أهلها، ذاك أن هذا الموضوع بحر خضم لا يُدرك قعره، وأمر مهول لا يمكن ولا يستطاع، فكم لمصرَ وأهلها من فضائلَ ومزايا تَنِدُّ عن الحصر، وتخرج عن قدرة العادين، وكم لها من تاريخ في الإسلام عظيم، منذ أن وطئتها أقدام الأنبياء الطاهرين، والمرسلين المكرمين، لكن يصح لمثلي أن يغترف من البحر، ليأتي بشيء نَزْر، دلالةً للمستدلين، وعونًا للباحثين، وقيامًا بحق أهل مصر فهم أنساب لي وأصهار، فوالدتي -حفظها الله تعالى- مصرية، ووالدي قد أصهر إليهم مرارًا، وأم جدي عقيل مصرية، وأم زوجي مصرية، فالعلائق بمصرَ تحيط بي من كل جانب، وصِلاتي بأهلها قديمة، لذا فإني أكتب عنها بعواطفي ومشاعري، وأبثها حبي وأشواقي.

والله -تعالى- هو المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلِّ اللهم وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

كتبه
العبد الضعيف
محمد بن موسى الشريف
mmmalshareef@hotmail.com
www.altareekh.com
Facebook:د . محمد بن موسى الشريف
Twitter: DRMOHAMMEDMH

١ فضائل أرض مصر

قد ذُكر لأرض مصر فضائل كثيرة جدًّا، وهأنذا أورد ما صح منها، وما يقبل الصحة، أما غير ذلك من المبالغات الممجوجات فأنزه هذا الكتاب عنها، ومصر ليست بحاجة إليها.

مصر في القرآن:

قد ذكر الله- تعالى- مصر في أربعة مواضع في كتابه الكريم، وفي ذلك تشريف لها وتكريم، فقال جَلّ من قائل:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ﴾ [يوسف: ٢١].

وقال سبحانه: ﴿ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٩].

وقال أصدق القائلين: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ [يونس: ٨٧].

وقال عز وجلّ قاصًا قول فرعون:

﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾ [الزخرف: ٥١].

- وذكرها سبحانه إشارة في مواضع عديدة تبلغ قرابة الثلاثين، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ [يوسف: ٣٠].

وقوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ [القصص: ١٥].

وكقوله تعالى قاصًّا قول آل فرعون:

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ [الأعراف: ١٢٧].

وكقوله تعالى قاصًّا قول ناصح موسى، عليه الصلاة والسلام: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ﴾ [القصص: ٢٠].

إلى آخر تلك المواضع الكثيرة.

وقد وصف سبحانه وتعالى أرض مصر أحسن وصف فقال جل من قائل: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٥- ٢٨].

- وقد وُصفت مصر في القرآن بأنها خزائن الأرض فقال سبحانه قاصًّا قولَ يوسف، عليه الصلاة والسلام: ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ﴾ [يوسف: ٥٥]وما ذلك إلا لكثرة خيراتها، وعظم غلاتها، وجودة أرضها، وقد ذكر ثقات المؤرخين المصريين غلاتِ أرض مصر فجاءوا بأمر مهول، سآتي على شيء يسير منه قريبًا، إن شاء الله تعالى.

- ولم يذكر نهر من الأنهار في القرآن سوى النيل، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾ [القصص: ٧] والمفسرون متفقون على أن المقصود باليم هنا هو نيل مصر.

وقال الكِنديّ[1]: «فهل يُعلم أن بلدًا من البلدان في جميع أقطار الأرض أثنى عليه في الكتاب بمثل هذا الثناء، أو وصفه بمثل هذا الوصف، أو شهد له بالكرم غير مصر»[2].

ومن اللطائف التي ذكرها الكِندي-أن الله تعالى قَصّ قول يوسف -عليه الصلاة والسلام- فقال سبحانه: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ [يوسف: ١٠٠]، فجعل الشام بدوًا، وسمى مصر مصرًا ومدينة[3].

مصر في سنة رسول الله ﷺ:

قد أوصى رسولنا الأعظم ﷺ بأهل مصر خيرًا فقال بأبي هو وأمي:

«إذا افتتحتم مصر فاستوصوا بالقبط خيرًا فإن لهم ذمة ورحمًا»[4]، والرحم لأن أم إسماعيل هاجر من القبط.

وفي لفظ: **«فإن لهم ذمة وصهرًا»**، والصهر لأن مارية أم إبراهيم -رضي الله عنها- منهم، والذمة: هي الحُرمة والأمان.

ولذلك قال عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: قبط مصر أخوال قريش مرتين.

---

(١) هو محمد بن يوسف بن يعقوب، أبو عمر التُجِيبي الكِنْدي، وتُجيب بطن من بطون كِندة. له عدة كتب في تاريخ مصر. توفي بمصر سنة ٣٥٠. انظر ترجمته في «الأعلام» للزركلي: ٧/ ١٤٨.

(٢) «فضائل مصر المحروسة»: ٤.

(٣) «حسن المحاضرة»: ١/ ١٠.

(٤) أخرجه الطبرانيّ في «المعجم الكبير»، والبيهقي وأبو نعيم كلاهما في «دلائل النبوة» وهذا حديث صحيح. انظر «حسن المحاضرة»: ١/ ١١.

وقال ﷺ: «أحسنوا إلى أهلها فإن لهم ذمة ورحمًا»[١].

وقال ﷺ: «اللهَ اللهَ في قبط مصر فإنكم ستظهرون عليهم ويكونون لكم عدة وأعوانًا في سبيل الله»[٢].

وكل هذه أحاديث صحيحة، إن شاء الله تعالى.

فضائل أرض مصر:

حدود مصر من النوبة جنوبًا إلى رَفَح العريش، ومن برقة -ليبيا- شرقًا إلى أيلة غربًا، أي أيلات التي هي اليوم على خليج العقبة بيد إخوان القردة.

وإن لأرض مصر فضائل كثيرة، فمنها:

- فيها الوادي المقدس طوى، والجبل الذي كلم الله تعالى عليه موسى، عليه الصلاة والسلام.
- وفيها الجبل الذي تجلى الله -تعالى- له فانهد وصار دكًّا.
- وهي المبوأ الصدق الذي أخبر الله تعالى عنه بقوله: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ [يونس: ٩٣]، قال القرطبي[٣] في تفسير المبوأ الصدق: أي منزل صدق محمود مختار، يعني مصر.

---

(١) صحيح الإمام مسلم: كتاب الفضائل: باب وصية النبي ﷺ بأهل مصر.

(٢) أخرج الحديثَ الطبراني في الكبير، وأبو نعيم في «دلائل النبوة» بسند صحيح عن أم سلمة رضي الله تعالى عنها وانظر «حسن المحاضرة»: ١/ ١٢.

(٣) هو الشيخ الإمام محمد بن أحمد بن أبي بكر الأنصاري الخزرجي القرطبي. إمام متفنن متبحر في العلم. له تصانيف مفيدة تدل على كثرة اطلاعه ووفور فضله. توفي سنة ٦٧١هـ في صعيد مصر. انظر: «الوافي بالوفيات»: ٢/ ١٢٢، ١٢٣.

✍ وفي أرضها يجري نهر النيل المبارك الذي ينبع أصله من الجنة كما أخبر النبي ﷺ في الحديث الصحيح الذي أخرجه الإمام مسلم وأحمد: «**النيل وسيحان وجيحان والفرات من أنهار الجنة**».

ونيل مصر الجاري هو نعمة الباري، وهو متعة الناظرين، ونـزهة النازلـين عليها والمستوطنين، وقد سلكت الطريق الزراعي على النيل من القاهرة إلى الإسكندرية مرارًا فلم أجد إلا نعمة ظاهرة وخضرة دائمة، وبقرًا وغنمًا راتعة، وحبوبًا وثمارًا يانعة، فهل بعد هذه النعمة نعمة، هذا ونيل مصر يجري في أرضها أكثر من ألف وستمائة كيلو متر، والله حسبهم وهو نعم الوكيل.

✍ وفي مصر الربوة التي أوى إليها عيسى ابن مريم وأمه على أحد أربعة أقوال للسلف، فقد قال ابن وهب[١] وغيره أن مكان الربوة المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٠] أنها في مصر[٢].

وعلى أرضها ضرب موسى البحر بعصاه فظهرت المعجزة العظيمة والحادثة الفريدة في تاريخ البشرية.

وأيضًا فالمعجزة الباقية على أرض مصر إلى اليوم هي نجاة بدن فرعون وحفظه إلى الآن، فقد قال تعالى: ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ﴾ [يونس: ٩٢]، وجثته موجودة في المُتحف المصري آية للناس إلى يوم القيامة،

---

(١) عبدالله بن وهب الراسبي المالكي. توفي سنة ١٩٧، رحمه الله تعالى. انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٩/ ٢٢٣ وما بعدها.

(٢) استبعد هذا جدًا ابن كثير في تفسيره وذكر أن موضع الربوة هو في بيت المقدس.



يرون فيها تحقيقًا لوعد الله تعالى، هذا وقد وقفت عليها لما زرت المتحف قديمًا سنة ١٤٠٢/ ١٩٨٢، في تابوت من زجاج وقد كتب عليه: هذا فلان بن فلان، غرق في ظروف غامضة!! فاسترجعت وعجبت أن يُكتب عليه مثل هذا والله -تعالى- قد فصّل لنا في كتابه الكريم حادث غرقه وبينه أحسن تبيين، فما هذا التجاهل لتلك الحادثة الجليلة والمعجزة العظيمة ؟!

- وقال تعالى قاصًا كلامَ آل فرعون: ﴿وَٱبۡعَثۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾[الشعراء: ٣٦] وهذا يدل على كثرة المدن في مصر آنذاك.

- وقال عمرو بن العاص ﷺ: «ولاية مصر جامعة تعدل الخلافة»[1]، فجعل كل بلاد الإسلام في كِفة ومصر في كِفة أخرى.

وقال سعيد بن أبي هلال[2]: إن مصر مصورة في كتب الأوائل وقد مدت إليها سائر المدن يدها تستطعمها، وذلك لأن خيراتها كانت تفيض على تلك البلاد، وقد ذكر سعيد أن مصر أم البلاد وغوث العباد.[3]

وقال الجاحظ[4]:

إن أهلها يستغنون عن كل بلد حتى لو ضُرب بينها وبين بلاد الدنيا سور

---

(١) «فضائل مصر المحروسة»: ١١.

(٢) سعيد بن أبي هلال، أبو العلاء الليثي المصري، توفي سنة ١٣٥، رحمه الله تعالى. انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٦/ ٣٠٣ وما بعدها.

(٣) «حسن المحاضرة»: ١/ ٢١.

(٤) عمرو بن بحر، أديب العربية المشهور، وكان معتزليًا. توفي سنة ٢٥٥ رحمه الله تعالى. انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ١١/ ٥٢٦ وما بعدها.

لغنيَ أهلها بما فيها عن سائر بلاد الدنيا[١].

ولقد كانت أرض مصر على خلاف ما هي عليه اليوم، فهذا المأمون لما جاء مصر وجلس تحت قبة الهواء وأقبل عليه عظماء المصريين فقال: قبح الله فرعون إذ قال: ﴿أَلَيْسَ لِي﴾ [الزخرف: ٥١] فلو رأى العراق.

فقال له سعيد بن عُفير[٢] القاضي المصري الكبير: لا تقل هذا يا أمير المؤمنين إن ما ترى هو بقية ما دُمر، فقد قال تعالى:

﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧] فلم يجد المأمون كلامًا يقوله بعد هذه الإجابة الذكية.

وفي رواية أنه قال له: فما ظنك بشيء دمره الله هذه بقيته؟ فقال: ما قصرت يا سعيد.

قال سعيد: ثم قلت: يا أمير المؤمنين، لقد بلغنا أنه لم تكن أرض أعظم من مصر، وجميع الأرض يحتاجون إليها، وكانت الأنهار بقناطر وجسور بتقدير، حتى إن الماء يجري تحت منازلهم وأفنيتهم يحبسونه متى شاءوا، ويرسلونه متى شاءوا، وكانت البساتين بحافتي النيل من أوله إلى آخره ما بين أسوان إلى رشيد لا تنقطع، ولقد كانت المرأة تخرج حاسرة ولا تحتاج إلى خمار لكثرة الشجر، ولقد كانت المرأة تضع المِكتل على رأسها فيمتلئ مما يسقط به من الشجر، إلى أن قال: وكانت جباية مصر تسعين ألف ألف دينار -أي تسعين مليون دينار-

---

(١) انظر «حسن المحاضرة»: ١/ ٣٣٠.

(٢) هو سعيد بن كثير بن عفير بن مسلم، أبو عثمان المصري. انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ١٠/ ٥٨٣ وما بعدها.



وهو مبلغ هائل جدًّا بمقاييس تلك الأيام[١].

ويدلنا على أن أرض مصر لم تكن كما هي اليوم أن المؤرخين أكثروا من ذكر مصر وفضائلها وجودة أرضها، ولولا أن أولئك المؤرخين ذكروا أمورًا لا تعرف -اليوم- أكثرها، وبعضها غير صحيح، أو كان صحيحًا بمعارف زمانهم ثم ثبت غيره، لولا ذلك لأوردت كلامهم فإنه عجيب[٢].

وقد مُسحت أرض مصر أيام ولاية هشام بن عبدالملك الخليفة الأموي فوجدوا أن ما يصله الماء منها مائة مليون فدان.

ومسح أحمد بن المدبر أرض مصر زمن ولايته فوجد أن ما يصلح منها للزرع ٢٤ مليون فدان سوى ما تلف أو غلبت عليه الصحراء.

وما أحسن ما أورده ابن ظهيرة[٣] -رحمه الله تعالى- في أرض مصر فقد قال:

«غيطان مصر -أي بساتينها- وهي عظيمة كثيرة، ومناظرها عالية، ومياهها جارية غزيرة، فيها كثير من الأشجار النضرة، والأزهار العطرة والرياحين، والفواكه الكثيرة من غالب الثمار، وهي كثيرة جدًّا، لا قيمة لها

---

(١) «حسن المحاضرة»: ١/ ٢٣، ٢٤.

(٢) ويرجع من أراد معرفة ذلك إلى كتاب «حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة» للحافظ جلال الدين السيوطي فيما نقله عن الكندي، وابن فضل الله، والتيفاشي وابن زولاق وجماعة كثيرين غير هؤلاء.

(٣) جمال الله بن محمد بن نور الدين محمد بن أبي بكر بن علي، ابن ظهيرة. مؤرخ. ولد بالقدس سنة ٨٢٠، وانتقل إلى القاهرة، وبها توفي سنة ٨٨٨ رحمه الله تعالى. انظر ترجمته في «الأعلام»: ٧/ ٥١.

بمصر، ولقد أخبرني المولى سيدي عبدالعزيز بن يعقوب بن المتوكل على الله أمير المؤمنين العباسي أنه أكل بقرى البحيرة فاكهة أطيب من فاكهة الشام، منها عنب زنة كل عنقود خمسة أرطال، أحلى من العسل المذاب، وأنعم من السَّلَى[١] لا يحتمل مس الأيدي، وأكل بطيخًا، يشبه الصيفي في شكله غير أن داخله مرمل، أحلى من الشهد، وأكل بمريوط تينًا أسود صغيرًا أحلى من العسل، وأشياء غير ذلك».[٢]

وقد قال ابن ظهيرة يمدح القاهرة وعظم مساحتها، وذلك في القرن التاسع الهجري فقال:

«عظم مدينة القاهرة الآن وكثرة خلقها وأبنيتها من أسواق وشوارع وربوع وغيرها، وبيوت وجوامع ومدارس، فمن المعلوم المقطوع به بالحس، فلا حاجة إلى المفاضلة فيه، لأنه من خواص هذا البلد السعيد، ولقد تواترت الأخبار وأجمع المسافرون والسائحون في بلاد الله -تعالى- الشاسعة، وأرضه الواسعة أنه ليس في الدنيا تحت السماء من مشرقها إلى مغربها مدينة أعمر بكثرة الخلق منها، لا يكاد ينقطع الزحام بشوارعها العظيمة، وهي ضيقة لكثرة الناس والدواب حتى إلى الليل، وبعد العشاء بكثير، ولا تشق فيهم إلا بالكتف، ومن لم يكن متيقظًا يداس بسرعة، وهي وإن كان ثَمّ مدن بالمشرق والمغرب أكبر منها مساحة ولكنها قليلة الناس، عديمة الإيناس، وأنا أقول: إن هذه ليست بمدينة واحدة، بل مدن مجتمعة؛ إذ في كل شارع وخط ومحلة منها

---

(١) غشاء رقيق يحيط بالجنين.

(٢) «الفضائل الباهرة»: ٢٠١-٢٠٢.

بيوت ودروب وأسواق وجوامع ومدارس تصلح أن تفرد بمدينة واحدة، بل في كل ربع من ربوعها ما يعمر بهم قرية»[١].

✍ وفي مصر رباط الإسكندرية الذي لا يدري إلا الله تعالى كم سكنه ورابط فيه من العلماء والعباد والزهاد والأبطال والشجعان والأولياء والصالحين العاملين، وهذا الإمام الكبير أبو الزناد الأعرج عبد الرحمن بن هرمز القرشي صاحب أبي هريرة والملازم له، المتوفى سنة ١١٧ يقول: «خير سواحلكم رباطًا الإسكندرية»[٢].

وقال سفيان بن عيينة الهلالي المحدث المشهور (ت ١٩٨) لإمام المصريين أحمد بن صالح[٣]: يا مصري: أين تسكن ؟!

قال: الفسطاط.

قال: أتأتي الإسكندرية؟

قال: نعم.

قال: تلك كنانة الله يجعل فيها خير سهامه[٤].

✍ وفي مصر جامع عمرو بن العاص ﷺ، وهو أول جامع بني في قارة إفريقيا، وقد ضبط قبلته جماعة كثيرة من الصحابة رضي الله عنهم قُدروا بثمانين رجلا[٥].

---

(١) «الفضائل الباهرة»: ١٨٨.

(٢) ذكره ابن سعد والواقدي عن ابن هرمز مقطوعًا عليه.

(٣) توفي سنة ٢٤٨ رحمه الله تعالى، انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ١٢/ ١٦٠.

(٤) «حسن المحاضرة»: ١/ ١٦٤.

(٥) المصدر السابق: ١/ ١٣٢.

وفي مصر جامع الأزهر الذي له الفضل المشهور، ولشيوخه مواقف كثيرة جدًّا في نصرة الإسلام وأهله، أليس هو الذي دوخ نابليون وخليفته المقتول كليبر؟ أليس هو الذي وقف شامخًا أمام الخديوية وتساهلها وقلة دينها؟ وهو اليوم بعد الثورة يُرجى له أن يعود منارة شامخة كما كان، إن شاء الله تعالى.

وقد قال ابن ظهيرة -رحمه الله تعالى- في الجامع الأزهر:

«فليس في الدنيا الآن -فيما أعلم- له نظير، ولا ينقطع ذكر الله تعالى عنه طرفة عين في ليل ولا نهار، وفيه أروقة لأصناف من الخلق منقطعين لعبادة الله -تعالى- والاشتغال بالعلوم وتلاوة القرآن، لا يفترون ساعة»[1].

وقال الشيخ علي الطنطاوي -رحمه الله تعالى- في الأزهر:

«الأزهر الذي جعل لمصر في دنيا الإسلام من المنزلة في القلوب، والحرمة في النفوس ما ليس لبلد بعد المساجد الثلاثة، فلا تُذكَر مصر إلاَّ ذكر الأزهر، ولا يتمنَّى مسلم الحج إلا تمنى معه زيارة الأزهر، والذي صيَّر مصر معلِّمة العالم الإسلامي، عن علمائها يؤخذ العلم، ومنهم يُتعلم التقى، وغاية أماني الشامي والعراقي، والأفغاني والهندي، والبخاري والتركي، والجاوي والملاوي، وكل شاب مسلم في الشرق والغرب، من الصين وأندونيسيا إلى مراكش والصومال، وألبانيا والمجر أن يرحل إليهم، ويكون له شرف القعود بين أيديهم.

الأزهر الذي بقي ألف سنة، وهو أمل المسلمين في أرجاء الأرض كلها،

---

(١)«الفضائل الباهرة»: ١٩٠.



كلما ادلهمَّ ظلام الجهل، وتراكبت دجى الشهوات، وتتالت عواصف النكبات والأرزاء[١]، وكاد يملأ القلوب اليأس، نظروا إليه فرأوا مصباحه لا يزال يضيء، يلمع من بعيد كالمنار الهادي، يبدو للسفن الضالة في سواد الليل يدلها على الشاطئ الآمن، فسعوا إليه يقبسون من نوره ما يبدد ظلام الأحداث.

الأزهر الذي كان يتسابق الملوك إلى رفع دعائمه، وتوسيع جنباته وعمارته: عمارة الإشادة والبنيان، وعمارة العبادة والإيمان، فلا يرى الملك أنه كُتب في التاريخ حتى يترك في الأزهر أثرًا، الأزهر الذي كان يجيؤه الحاكم الجبَّار، فإذا دخل حِماه، وجاز عتبته أحسَّ أن سلطانه وجبروته قد بقيا خارج الباب فطأطأ الرأس خضوعًا، ثم جاء حتى قبَّل يد الشيخ، وقعد في حلقته مع أصغر تلاميذه، الأزهر الذي طالما ورده الغلام الجاهل، الريفي أو الأعجمي، ثم صدر عنه وهو إمام العربية وحجَّة الله على الناس، فأحيا به الله قرية، أو بلدة، أو قطرًا كاملاً.

الأزهر الذي وقف في وجه الزمان، وتكسّرت على جدرانه أمواج الأحداث ولم تلو به ولم تزعزعه نكبات الشرق ولا نكبات الغرب، لا جحافل المغول نالت منه ولا جيوش الصليبيين، أفتكون نهايته أن يقضي عليه الحكّام المسلمون، في البلد المسلم؟

أبعد ما لبث أكثر من ألف سنة؛ هل في الأرض جامعة نيَّف عمرها على الألف[٢] سنة؟ ألف سنة! كم أقيم فيه خلالها من صلاة؟ كم أُلقي فيه من

---

(١) جمع رَزِيّة وهي المصيبة.

(٢) إلا الأزهر وجامع القرويين بفاس.

دروس؟ كم ظهر فيه من علماء؟ كم انبثق عنه من مصنّفات؟ كم أحيا بالعلم عقولاً كانت ميتة؟ كم أنار بالموعظة قلوبًا كانت مظلمة؟ كم صُفَّت على ثراه أقدام تقوم فيه وراء سجف[١] الظلام لا يدري بها إلا الله؟ كم وضعت عليه من جباه كريمة ما كانت تذل في طلب الدنيا لأحد؟ كم ارتفع من جوف الأزهر، في جوف الليل، من دعاء صادق، من قلب مخلص، فمضى يشق الفضاء حتى يصل إلى الله؟ كم تلي فيه من قرآن، من لسان ذاكر وفؤاد شاكر؟

سلوا هذه الحجارة، تخبركم لو كانت تنطق، أنه ما من موطئ قدم فيه، إلا وقد شهد من حِلَق العلم، ومجالس الذكر، ما لا يحصيه إلا الله.

تحدِّثكم حديث المشايخ الذين كانوا أعزّ من الأمراء، وأنبل من الملوك، يسعى السلاطين إلى أبوابهم ولا يسعون إلى باب أحد، ويبتغي الحاكمون ما عندهم ولا يبتغون ما عند أحد، عزّوا بالله عن الخلق، فأحوج الله إليهم الخلق، وقنعوا بالقليل من الدنيا، فألقت بنفسها على أقدامهم الدنيا»[٢].

وفي مصر قرابة مائة ألف جامع ومسجد ومصلى، شاهدة على أن ذلك البلد هو عرين الإسلام، مهما ادعى المدعون وأراد الهادمون.

✍ وأما عجائب أرض مصر فكثيرة جدًّا فمنها الأهرام، ومنها صنم الأهرام وتسميه العامة أبا الهول، وفيها عجائب الأقصر ومَنْف، وعين شمس، والنيل، والإسكندرية ومنارتها وعمودها، وفي كل ذلك تفصيل طويل، وقالٌ وقيل، وآثار مروية، وأخبار متناقلة،

---

(١) السُّجُف: الستائر.

(٢) «فصول إسلامية»: ٢٥٢-٢٥٤.

وأسرار غامضة، وبعض تلك العجائب باق وأكثرها قد فني.

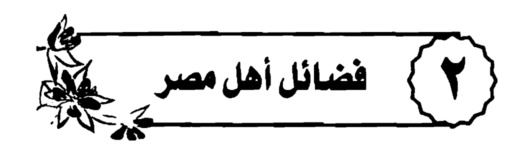
وقد فتح المأمون هرمًا من الأهرام زمن قدومه مصر قبل موته بسنة أو نحوها فوجدوا فيه من عجائب الأموال والمومياوات والأصنام أمرًا مهولاً، وفتحت مقدمة هرم منها زمن أحمد بن طولون أيضًا، ووجدوا فيها عجائب ويئسوا من فتح كل الهرم(١)، ولا يُعرف على التحقيق من بنى تلك الأهرام وكيف بناها.

وقد عُرِف اليوم من أسرار الأهرام شيء كثير.

وقد استقلت مصر بالخلافة الإسلامية ٢٦٥ سنة تقريبًا، منذ انقطاع الخلافة من بغداد عقب الغزو التتاري الهمجي سنة ٦٥٦ إلى سقوط مصر بيد السلطان سليم العثماني سنة ٩٢٤هـ، وفي هذا فضيلة لها؛ لأن إقامة الخلافة في الأرض فرض كفاية على المسلمين، فقام بها أهل مصر.

* * *

(١) انظر «عجائب الأهرام» في «حسن المحاضرة»: ١/ ٧٠-٧٩.



٢ فضائل أهل مصر

أما أهل مصر فيكفيهم شرفًا وفخرًا سكنى الأنبياء بين ظهرانيهم ومرورهم ببلادهم، فهذا شيخ الموحدين وأفضل المرسلين بعد نبينا العظيم -عليهما أفضل الصلوات وأتم التسليم- قد مر بمصر في رحلته مع زوجه سارة، وجرى لهما مع جبار مصر ما جرى مما ورد في صحيح الإمام البخاري لمن أراد الرجوع إلى القصة[١].

ودخلها يعقوب -عليه الصلاة والسلام-.

ودخلها الأسباط مرارًا وتوفوا ودُفنوا بها.

وسكن مصرَ يوسف -عليه الصلاة والسلام- ونال بها من المكانة والجاه ما لم ينله أحد من الأنبياء والمرسلين في مصر، وشرفت أرض مصر بدفن جسده الطاهر فيها، ثم نُقل بعد ذلك إلى فلسطين زمن موسى -عليه الصلاة والسلام- في قصة جليلة[٢].

وموسى وهارون -عليهما الصلاة والسلام- ولدا في مصر وعاشا فيها طويلاً، وجرى عليهما في أرض مصر ما جرى من الأحداث العظام مما قصه علينا الله -تعالى- في كتابه الجليل.

---

(١) كتاب أحاديث الأنبياء: باب قول الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾.

(٢) أخرجها الإمام أحمد والدارمي وأبو يعلى عن ابن عباس رضي الله عنهما.

ويوشع بن نون فتى موسى وكان نبيًّا -عليه الصلاة والسلام- ولد بمصر، وعاش فيها، وخرج منها مع موسى، عليهما الصلاة والسلام.

وقيل إن أيوب وشعيبًا وأرميا دخلوا مصر أيضًا -والله أعلم-.

ويكفي المصريين شرفًا وفخرًا أن خير الأنبياء والمرسلين مطلقًا محمدًا وإبراهيم -عليهما أفضل الصلوات والتسليم- كان تحتهما مارية وهاجر المصريتان، فأنجبت الأولى إبراهيم ﵁ وأنجبت الأخرى إسماعيل -عليه الصلاة والسلام- وهو جد نبينا ﷺ فما أحسن هذا وما أعظمه!

وقيل إن يوسف -عليه الصلاة والسلام- صاهر إليهم أيضًا.

- وإن يفتخر المصريون بشيء بعد هذا فحُقَّ لهم أن يفخروا بماء زمزم الذي فُجر إكرامًا لهاجر وابنها، فللمصريين فضل في ظهور هذا الماء، والشرف موصول لهم ما بقي هذا الماء على وجه الأرض.

وحَقٌّ على المصريين أن يفخروا بأن هاجر قد خَلّد الله سعيها بين الصفا والمروة جزاء طاعتها إبراهيم - عليه الصلاة والسلام- وأوجب على كل مَن حج البيت الحرام أن يسعى سعيها ويجهد جهدها، فما أعظم هذا وما أحسنه!

ولو لم يكن للمصريين فخر وشرف إلا أن هاجر هي جدة النبي الأعظم المفخّم المكرّم محمد ﷺ لكان هذا كافيَهم، ولذلك قال فيها أبو هريرة ﵁: «تلك أمكم يا بني ماء السماء»[(١)] أي العرب.

ومن المصريات العظيمات أم موسى -عليه الصلاة والسلام- وقيل بنبوتها.

---

(١) اللفظة جزء من الحديث أخرجه البخاري ومسلم.

وآسية امرأة فرعون التي ضربها الله -سبحانه وتعالى- مثلاً في كتابه للمؤمنين وأثنى عليها، وأخبر النبي ﷺ أنها إحدى كوامل النسوة -رضي الله عنها- وقيل بنبوتها.

ومرت سارة زوج الخليل ﷺ بمصر، ولها قصة فيها وردت في صحيح الإمام البخاري[1].

ومن المصريات الجليلات ماشطة فرعون وابنها الذي تكلم في المهد، ولها وله قصة جليلة رائعة[2].

ومن المصريين مؤمن آل فرعون، وقد شُرف بتخليد صنيعه ودفاعه عن موسى عليه السلام والدعوة الإسلامية في كتاب الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٨].

ومن المصريين كذلك الرجل المؤمن الذي حذر موسى -عليه الصلاة والسلام- وورد في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ﴾[القصص: ٢٠][3].

---

(١) كتاب أحاديث الأنبياء: باب قول الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾.
(٢) أخرجها الإمام أحمد والبزار والطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما.
(٣) وقيل إن الرجل هو مؤمن آل فرعون نفسه، وقيل غيره، وانظر «الدر المنثور»: ٦/ ٤٠١، ٤٠٢.



ومنهم السحرة الذين آمنوا بموسى -عليه الصلاة والسلام- وكانوا جملة وافرة وعددًا ضخمًا.

- وأهل مصر من ألين الناس تعاملاً ومن أحسنهم أخلاقًا وأدبًا، ولذلك قال تاج الدين الفزاري[١]، رحمه الله تعالى:

«إن من أقام في مصر سنة وجد في أخلاقه رقة وحسنًا»[٢].

وقال عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما:

«أهل مصر أكرم الأعاجم كلها، وأسمحهم يدًا، وأفضلهم عنصرًا، وأقربهم رحمًا بالعرب عامة وبقريش خاصة».

وقال ابن ظهيرة، رحمه الله تعالى، يمدح أهل مصر، ويعدد مزاياهم:

«حسن فهمهم في العلوم الشرعية وغيرها من سائر العلوم، وسرعة تصورهم، واقتدارهم على الفصاحة بطباعهم وعذوبة ألفاظهم ولطافة شمائلهم وحسن وسائلهم أمر محسوس، غير منكور، تشهد لهم بذلك الناس حتى إن كل من عرفهم وخالطهم اكتسب من فصاحتهم، واختلس من لطافتهم، وإن كان أعجميًا قحفًا[٣] أو فلاحًا جلفًا».

ثم مدح أصواتهم فقال:

«حسن أصواتهم، وندائهم، وطيب نغماتهم وشجاها، وطول أنفاسهم

---

(١) عبدالرحمن بن إبراهيم، أبو محمد الفزاري، الإمام العلامة العَلَم، شيخ الشافعية في زمانه. توفي سنة ٦٩٠ ودفن بدمشق رحمه الله تعالى. انظر «البداية والنهاية»: ١٥/ ٥٥٤ وما بعدها.

(٢) «حسن المحاضرة»: ١/ ٣٣٦.

(٣) لعلها الجافي الغليظ.

وعلاها، فمؤذنوهم إليهم الغاية في الطيب، ووعاظهم ومغنوهم إليهم المنتهى في الإجادة والتطريب».

ثم مدح نساءهم فقال:

«نساؤها اللاتي خلقهن الله -تعالى- للتمتع بهن، وطلب النسل منهن، أرق نساء الدنيا طبعًا وأحلاهن صورة ومنطقًا، وأحسنهن شمائل، وأجملهن ذاتًا، وخصوصًا المولدات منهن، وهي من يكون أبوها تركيًا وأمها مصرية، أو بالعكس، وما زلت أسمع قديمًا عن الإمام الشافعي ﷺ، ولم أره منقولاً، أنه قال: من لم يتزوج بمصرية لم يكمل إحصانه».

ثم مدح حسن معاملتهم للغرباء فقال:

«حلاوة لسانهم، وكثرة ملقهم ومودتهم للناس ومحبتهم للغرباء، ولين كلامهم لهم، والإحسان إليهم ومساعدتهم لهم على قضاء حوائجهم، ورد ظلاماتهم، ونصرهم على من ظلمهم بحسب استطاعتهم، وقوة عصبيتهم لمن أرادوا وإن كانوا في باطل.

عدم اعتراضهم على الناس: فلا ينكرون عليهم، يحسدونهم، ولا يدافعونهم، بل يسلمون لكل أحد حاله: العالم مشغول بعلمه، والعابد بعبادته».[1]

وأرى -والله تعالى أعلم- أن فِطَر المصريين ربما كانت أقربَ الفِطَر إلى الإسلام، فهم قوم فيهم طيبة ورفق -في جملتهم- وسلاسة طباع، ونزوع إلى

(١) «الفضائل الباهرة»: ٢٠٤.



خير ولين، هذا هو المعروف عنهم الذي شهد لهم به الموافق والمخالف.

- ومن اللطائف أن الشيخ أحمد بن الصديق الغُماري المغربي (ت ١٣٨٠) الذي كان معتقلاً في مصر زمن الطاغية العبد الخاسر كان يقول:

«ليت المغرب وصله جدول صغير من النيل حتى تكون أخلاق أهله كأخلاق المصريين ذكاء ووداعة وسماحة وليونة وغير ذلك من جميل الأخلاق التي مصدرها طبيعة ذلك الماء الذي بحق يقال إنه من الجنة».(١)

سكنى الصحابة في مصر ومخالطة أهلها:

قد سكن مصر بعد فتحها جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ ورضي عنهم، فشرفت أرض مصر بهم وازدانت، وخالط ترابها أجسادهم الطاهرة، وبعضهم سكنها ومات بغيرها، وبعضهم مَرّ بها رسولاً أو مجاهدًا، وكان منهم جملة جليلة وعدد كبير عظيم منهم عمرو بن العاص، وعقبة بن عامر الجهني وعبدالله بن أبي السرح، ومسلمة بن مخلد، وعبدالله بن عمرو، ومعاوية بن حُديج، وكلهم ولي إمرة مصر ﷺ.

ومن الصحابة فى مصر صلة بن الحارث الغفاري وعبدالله بن حذافة السهمي.

وعبدالله بن الحارث بن جزء الزبيدي، وشهد فتحَ مصر، واختط بها سكنًا، وعاش بها دهرًا وهو آخر صحابي مات بمصر.

وأبو بصرة الغفاري شهد فتح مصر.

---

(١) «درّ السحاب الرقيق»: ٩٥، ٩٦.

وخارجة بن حذافة العدوي، وهو أحد الفرسان الأبطال يُعَدّ بألف فارس، وأمد به عمر بن الخطاب ﷺ عمرو بن العاص ﷺ، وهو الذي قتلته الخوارج ظنًّا منهم أنه عمرو بن العاص ﷺ .

ورويفع بن ثابت الأنصاري.

ودخلها جابر بن عبدالله بن حرام ﷺ طلبًا لسماع حديث عظيم جليل.

ودِحية بن خليفة الكلبي، وهو الذي كان ينـزل جبريل بصورته، وكان له جمال مفرط.

والزبير بن العوام ﷺ وقد شهد فتح مصر، وهو معدود من الأبطال الكبار.

وسعد بن أبي وقاص ﷺ وشهد فتح مصر ودخلها غير مرة.

وسلمة بن الأكوع وهو فارس شجاع رامٍ مشهور.

وسهل بن سعد الساعدي وقدم مصر بعد الفتح.

وعبادة بن الصامت وهو أحد النقباء وممن شهد بدرًا، وكان من سادات الصحابة وشهد فتح مصر.

وعبد الله بن أُنيس الجهني، وعبد الله بن حوالة الأزدي، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن أبي السرح وقد شهدوا فتح مصر.

وعبد الله بن عباس وقد دخل مصر لفتوح إفريقية.

وعبد الله بن عمر، وعبدالله بن عمرو بن العاص وشهدا فتح مصر.

وعمار بن ياسر دخل مصر رسولاً.

وفضالة بن عبيد الأنصاري وشهد فتح مصر.

وقيس بن سعد بن عبادة وشهد فتح مصر وسكن بها.

ومحمد بن مسلمة الأنصاري.

والمسيب بن حَزْن والد سعيد، وقد دخل مصر لغزو إفريقية.

ومعاوية بن حُديج السَّكوني وشهد فتح مصر.

وأبو أمامة الباهلي وسكن مصر مدة وتوفي بالشام.

وأبو أيوب الأنصاري وأبو الدرداء وقد شهدا فتح مصر.

وأبو ذر الغفاري وشهد فتح مصر وسكنها مدة، وأبو هريرة.

وقد تخيرت أشهر الصحابة وإلا فقد بلغوا زهاء ثلاثمائة وخمسين ﷺ[1].

وولد بها خامس الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين عمر بن عبدالعزيز، وكان أبوه عبدالعزيز بن مروان واليًا عليها، وكان عمر يحب مصر ويثني عليها، وقد قال له سليمان بن عبدالملك الخليفة الأموي قبله في حادثة جرت لفرس مصرية أثنى عليها عمر: لا تترك تعصبك لمصر يا أبا حفص[2].

- أما التابعون فقد سكنها جملة عظيمة منهم -رحمهم الله تعالى- فكان منهم عبدالرحمن بن هرمز الأعرج (ت١١٧) صاحب أبي هريرة ﷺ والملازم له.

---

(١) انظر تعدادهم في «حسن المحاضرة»: ١/ ٢٥٤.

(٢) «فضائل مصر المحروسة»: ٢١.

وحبيب بن الشهيد التُّجِيبي المصري فقيه طرابلس الغرب (ت١٠٩).

وبكير بن عبدالله الأشج المدني الفقيه نزيل مصر، وهو من ثقات المصريين وقرائهم (ت١٢٢).

ويزيد بن أبي حبيب الأزدي، أبو رجاء المصري، فقيه مصر وشيخها ومفتيها (ت ١٢٨)، وكان ثقة كثير الحديث روى عنه أصحاب الكتب الستة، وكان مفتي أهل مصر، وهو أول من أظهر العلم بمصر والمسائل في الحلال والحرام، وكان أهل مصر قبله إنما يتحدثون في الملاحم والفتن والترغيب، وقال الليث: هو سيدنا وعالمنا.

أما تابعو التابعين فمن بعدهم إلى يوم الناس هذا فجملة هائلة وعدد أكبر من أن يحصيه بشر، لكنني سأتخير منهم جماعة أوردهم حسب طبقاتهم وعلومهم وفنونهم في الحلقات القادمات، إن شاء الله تعالى.

ويكفي أهل مصر -اليوم- عزًّا أن لهم الكثرة في العدد، وهي مدخل إلى العزة والنصر والتمكين، فهم أكثر البلاد العربية عددًا، وترتيبهم الخامس في الدول الإسلامية بعد أندونيسيا وباكستان وبنجلاديش ونيجيريا.

* * *

٣ علماء مصر إلى القرن العاشر

أما العلماء المصريون أو الذين سكنوا مصر مدة طويلة أو قصيرة، فعدد لا يمكن حصره، وهذا -على التحقيق- هو الذي بَوّأ مصر مكانة عالية في التاريخ الإسلاميّ، وهو الذي رفع قدر البلاد، وحمى الله -تعالى- به العباد، فالعلماء صِمام أمان المجتمع، وهم الذين تزدان بهم البلاد، وتصان بجهودهم حقوق العباد، ومن هؤلاء العلماء في القرن الأول جملة من الصحابة ﷺ، وعدد من التابعين، وقد ذكرت بعضهم من قبل في الحلقة الماضية.

ولا بد أن أقول: إني عندما أنسب شخصًا ما لمصر فهو إما أن يكون مصريًّا بالولادة أو بالأصل، أو أنه وافد طارئ على مصر أقام فيها أربع سنين فأكثر، وذلك لأن الإمام الكبير عبد الله بن المبارك قال:

«من أقام ببلد أربع سنين نُسب إليها»، وهذا أعده أقدم قانون للجنسية مطلقًا، وقد أخذت بعض دول أوربا بهذه المدة التي عينها ابن المبارك -رحمه الله تعالى- وأعطت الجنسية لمن أقام بها أربع سنوات فأكثر، وهذا يدل على النظرة المبكرة الثاقبة لذلك الإمام الفذ.

ومن علماء القرن الثاني:

الليث بن سعد بن عبدالرحمن، أبو الحارث الفَهْمي (ت ١٧٥) وهو إمام المصريين الذي قال فيه الإمام الشافعي: الليث أفقه من مالك إلا أنه ضيعه

أصحابه، وهو أحد كُمّل الرجال وأصحاب المروءة الكبار، وأحد أثرياء مصر، رحمه الله تعالى[1].

وعبد الله بن وهب الراسبي المالكي الذي لما قرئ عليه كتابه «أهوال القيامة» ظل يخور كأنه ثور منحور، وغشي عليه ثم مات بعد أيام متأثرًا، رحمه الله تعالى، وذلك سنة ١٩٧[2].

ومنهم صاحب الإمام مالك عبد الرحمن بن القاسم العُتَقي (ت ١٩١) الذي قَلّ مثيله في الدنيا، وكان من أصحاب الهمم العالية، فكان ينام على باب مالك في المدينة النبوية المنورة ينتظره إذا خرج إلى المسجد النبوي الشريف لصلاة الفجر[3].

ومنهم ورش المصري عثمان بن سعيد (ت ١٩٧) الذي يقرأ أكثر أهل المغرب العربي الكبير وإفريقيا بروايته إلى يومنا هذا[4].

ومنهم عبد الله بن لهيعة المحدث الإمام (ت ١٦٤)[5].

وعثمان بن الحكم الجذاميّ (ت ١٦٣)، وهو أول من أدخل علم مالك إلى مصر، ولم يأتِ مصر أنبلُ منه[6].

---

(١) انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٨/ ١٣٦ وما بعدها.

(٢) انظر ترجمته في المصدر السابق: ٩/ ٢٢٣ وما بعدها.

(٣) انظر ترجمته في المصدر السابق: ٩/ ١٢٠ وما بعدها.

(٤) انظر ترجمته في المصدر السابق: ٩/ ٢٩٥ وما بعدها.

(٥) انظر ترجمته في المصدر السابق: ٨/ ١١ وما بعدها.

(٦) انظر ترجمته في المصدر السابق: «حسن المحاضرة»: ١/ ٣٠٢.

ومن علماء القرن الثالث:

الإمام الشافعي وهو ممن عظمت مصر وسعدت بسكناه فيها وموته في أرضها سنة ٢٠٤، وفي مصر ختم الشافعي القرآن ستين مرة في رمضان وذلك أثناء رباطه في الإسكندرية، وكان ذلك بشهادة المُزني، والشافعي إمام الدنيا وعالم العلماء، وإليه المنتهى في العلوم الشرعية والتسليم فيها، وقد قال -رحمه الله تعالى- قبل مجيئه إلى مصر:

أصبحت نفسي تتوق إلى مصر ... ودونها أرض المهامه والقَفْر

ولا أدري أللسعادة والغنى أساق لها ... أم أني أساق إلى قبري؟

فقال أحد العلماء: والله لقد سيق إلى ذلك كله[١].

ومنهم أصحاب الشافعي الذين لم يرزق إمام في الدنيا بمثلهم، وعلى رأسهم إسماعيل بن يحيى المُزني (ت٢٦٤) زينة أصحابه، وكان إذا فاتته صلاة الجماعة صلى الفرض خمسًا وعشرين مرة رجاء التعويض!! وكان إمامًا ورعًا زاهدًا مجاب الدعوة[٢].

ومنهم البويطي يوسف بن يحيى (ت٢٣١) صاحب حلقة الشافعي من بعده، وهو الذي صبر في محنة خلق القرآن يوم حُمل في الحديد إلى السجن ببغداد ومات بها، وكان من كرامات الشافعي أنه كان يقول له: تموت في الحديد، وهو أحد أئمة الإسلام وأركانه وزهاده[٣].

(١) انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ١٠/ ٥ وما بعدها.
(٢) انظر ترجمته في المصدر السابق: ١٢/ ٤٩٢ وما بعدها.
(٣) انظر ترجمته في المصدر السابق: ١٢/ ٥٨ وما بعدها.

ومنهم يونس بن عبد الأعلى الصدفي إمام المصريين (ت٢٦٤) وتوفي بعد الشافعي بستين سنة، وكان ورعًا زاهدًا صالحًا عابدًا، كبير الشأن، ذا فضائل كثيرة، ولما حضرته الوفاة بكى فسأله أصحابه عن ذلك فقال: قدماي لم تغبرا في سبيل الله، يريد أنه فاته شرف الجهاد، رحمه الله تعالى.[1]

ومنهم عبد الله بن عبد الحكم بن أَعْين، كان من أعظم أصحاب مالك (ت٢١٥) ودفن بجوار الشافعي، وابنه محمد وكان مفتي مصر في زمانه (ت٢٦٨).[2]

والربيع بن سليمان الجيزي المرادي، وكان عالمًا ومؤذنًا بجامع مصر، وقد جاء مرة ليؤذن فأخطأ فقال: حدثنا الشافعي، ثم ضحك وضحك الناس، وأخذ في الأذان، رحمه الله تعالى[3].

ومن العلماء أشهب[4]، وأصبغ المالكيان، وقد دعا أشهب على الشافعي في سجوده بالموت فقال: اللهم أمت الشافعي حتى لا يضيع مذهب مالك، فمات الشافعي لكن أشهب لم يمهله الله تعالى فمات بعد الشافعي بقرابة سبعين يومًا، وقد قال الشافعي لما بلغه دعاء أشهب عليه بالموت:

تمنى رجال أن أموت وإن أمت ... فتلك سبيل لست فيها بأوحد

ومنهم سعيد بن كثير بن عُفير (ت ٢٢٦) قاضي مصر، وقد قال فيه إمام

---

(١) انظر ترجمته في المصدر السابق: ١٢/ ٣٤٨ وما بعدها.

(٢) انظر ترجمته في المصدر السابق: ١٠/ ٢٢٠ وما بعدها.

(٣) انظر ترجمته في المصدر السابق: ١٢/ ٥٩١ وما بعدها.

(٤) انظر ترجمته في المصدر السابق: ٩/ ٥٠٠ وما بعدها.

الجرح والتعديل يحيى بن معين لما زار مصر واجتمع به: رأيت بمصر ثلاث عجائب: الأهرام والنيل وسعيد بن عفير[١].

ومنهم عبد الملك بن هشام (ت ٢١٨) صاحب «السيرة النبوية» المشهورة، وقد اجتمع بالشافعي لما ورد مصر وتذاكرا وتناشدا من أشعار العرب شيئًا كثيرًا، وكان إمامًا في النحو واللغة والأدب[٢].

وأما علماء القرن الرابع فعلى رأسهم:

الإمام الطحاوي أحمد بن محمد بن سلامة الأزدي الحنفي ابن أخت الإمام المزني (ت ٣٢١) وهو صاحب العقيدة المشهورة التي أصبحت مرجعًا[٣].

ومنهم ابن النحاس المصري النحوي أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل الذي غرق في النيل في حادثة عجيبة، فقد كان يجلس عند مقياس النيل في الروضة في القاهرة، وكان يُقَطِّع الأبيات الشعرية ليعرف أوزانها مما هو معلوم من علم العَروض، فمرّ به أحد عوام المصريين فظنه يسحر النيل فرفسه من خلفه فوقع في النيل فمات غريقًا رحمه الله تعالى سنة ٣٣٨[٤].

وأما علماء القرن الخامس:

فمنهم القاضي عبد الوهاب بن علي بن نصر المالكي البغدادي المشهور الذي كان يعيش في بغداد في شظف وشدة، فلما جاء مصر أثرى، فلم يلبث بعد

---

(١) انظر ترجمته في المصدر السابق: ١٠/ ٥٨٣ وما بعدها.

(٢) انظر ترجمته في المصدر السابق: ١٠/ ٤٢٨ وما بعدها.

(٣) انظر ترجمته في المصدر السابق: ١٥/ ٢٧ وما بعدها.

(٤) انظر ترجمته في المصدر السابق: ١٥/ ٤٠١ وما بعدها.

ذلك قليلاً حتى مات، وفي الاحتضار قال كلمة لطيفة: لا إله إلا الله: عندما عشنا متنا، وتوفي سنة ٤٢٢ عن ستين سنة، رحمه الله تعالى[١].

ومنهم الحافظ عبدالغني بن سعيد الأزدي (ت٤٠٩)[٢].

وأما علماء القرن السادس فهم ثلة عظيمة، وعلى رأسهم:

الإمام الكبير أبوبكر الطُّرطوشي المالكي محمد بن الوليد بن خلف نزيل الإسكندرية (ت ٥٢٥) الذي كان له مواقف مشهودة مع العُبيدية الباطنية ودولتهم تُعرف زورًا وبهتانًا بالفاطمية، وما لهم من فاطمة -رضي الله عنها- نصيب، وكان يقول: «إذا سألني الله عن المقام في الديار المصرية أيام العُبيدية فأقول: يا رب وجدت قومًا ضلالاً فعلمتهم»، وذلك يبين فضل الدعوة إلى الله وعظمها.

وكان يقول: إذا عرض لك أمران: أمر دنيا وأمر آخرة فابدأ بأمر الآخرة يحصل لك الأمران[٣].

ومنهم الحافظ العظيم أحمد بن محمد السِّلَفي الأصبهاني (ت ٥٧٦) الذي سكن الاسكندرية ٦٥ سنة ولم يخرج من بيته للفرجة إلا مرة واحدة!! ولم يرَ بحرها إلا من طاقة بيته!! وقد قرأ عليه الحديث صلاح الدين الأيوبي لما كان واليًا لنور الدين زنكي على مصر، رحمهم الله جميعًا.

وهو الوحيد في الدنيا -فيما أعلم- الذي حَدّث أكثر من ثمانين سنة، وتوفي

---

(١) انظر ترجمته في «حسن المحاضرة»: ١/ ٣١٤.

(٢) انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ١٧/ ٢٦٨ وما بعدها.

(٣) انظر ترجمته في المصدر السابق: ١٩/ ٤٩٠ وما بعدها.

عن قرابة مائة سنة، رحمه الله تعالى[١].

ومن علماء ذلك القرن الإمام الشاطبي المقرئ صاحب الشاطبية (ت٥٩٠) وهي أعظم منظومات القراءات انتشارًا وقبولاً، وقد طاف ببيت الله الحرام حاملاً الشاطبية سائلاً الله -تعالى- أن يقبلها ألف أسبوع!! والأسبوع سبعة أشواط، فحقق الله -تعالى- رجاءه.

وقد عُظم في مصر تعظيمًا عجيبًا حتى قال أبو شامة المقدسي فيه:

رأيت جماعة فضلاء فازوا برؤية شيخِ مصرَ الشاطبيِّ

وكلهم يُعظمه ويثني كتعظيم الصحابة للنبي

والشاطبي إمام جليل جدًّا، وقد ترك بلده لأنه كان خطيبًا وأُلزم أن يذكر الأمراء بصفات في الخطبة لم يرها سائغة ففر بدينه إلى مصر، وعاش في فقر وشدة حتى أغاثه الله -تعالى- على يد القاضي الفاضل الذي أكرمه[٢].

وممن مر بمصر وسكنها مدة ومات بها الحافظ عبدالغني المقدسي[٣] الذي كان مشهورًا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولم يَفُقْهُ أحد في هذا الباب إلا سلطان العلماء العز بن عبدالسلام، رحمهما الله تعالى، ولهما في الإنكار عجائب وغرائب، وهما حجة الله تعالى على المتأخرين في هذا الباب العظيم.

أما القرن السابع فأعظم علماء مصر فيه هو:

العز بن عبدالسلام (ت ٦٦٠) الذي كان أعظم العلماء مطلقًا في الأمر

---

(١) انظر ترجمته في المصدر السابق: ٢١/ ٥ وما بعدها.

(٢) انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٢١/ ٢٦١ وما بعدها.

(٣) انظر ترجمته في المصدر السابق: ٢١/ ٤٤٣ وما بعدها.

بالمعروف والنهي عن المنكر حتى اشتهر بسلطان العلماء وبائع الأمراء، وله في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حكايات تدل على عناية الله -تعالى- به وتوفيقه إياه، وقد كان مجلس فقهه يوصف بأنه أبهى مجلس فقه فى الدنيا، وقد كان له أثر عظيم في انتصار المصريين على التتار في عين جالوت سأبينه إن شاء الله تعالى في حلقة قادمة[١].

ومنهم المؤرخ المشهور القاضي ابن خَلِّكان صاحب «وفيات الأعيان» وتوفي سنة ٦٨١، رحمه الله تعالى[٢].

ومنهم الحافظ المحدث عبد العظيم بن عبدالقوي المنذري (ت ٦٥٦) صاحب الكتاب المشهور «الترغيب والترهيب» وقد كان يوصف مجلس حديثه بأنه أبهى مجلس حديث على وجه الأرض، ومن سمو أدبه أنه كان المفتي بمصر قبل مجيء العز بن عبد السلام، فلما دخل العز إلى مصر تنازل له عن الفُتيا، وبادله شيخ الإسلام العز بن عبد السلام أدبًا بأدب، فقد كان يحضر مجلسه في الحديث كأحد الطلاب!![٣]

ومنهم الإمام الكبير أحمد بن إدريس القرافي المالكي أحد العقول الضخمة في الإسلام، وهو صاحب كتاب «الفروق»، وهو أحد من وفق للجمع بين العلوم الطبيعية والعلوم الشرعية، فقد كان له في صناعة الآلات الدقيقة عجائب (ت ٦٨٤)[٤].

---

(١) انظر ترجمته في «النجوم الزاهرة»: ٧/ ٢٠٨.
(٢) انظر ترجمته في المصدر السابق: ٧/ ٣٥٣.
(٣) انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٢٣/ ٣١٩ وما بعدها.
(٤) انظر ترجمته في «حسن المحاضرة»: ١/ ٣١٦.

وأما علماء القرن الثامن فيأتي على رأسهم:

مجدد القرن ابن دقيق العيـد محمد بن علي بن وهب القُشيريّ (ت ٧٠٢) الذي قَلّ أن ترى العيون مثله، وقد قبل السلطان المملوكي لاجين يده فقال له ابن دقيق العيد: أرجوها لك بين يدي الله.

وقد اتفق الناس على أنه العالم المبعوث على رأس المائة السابعة يجدد للأمة أمر دينها[١]، وقال القاضي تقي الدين بن شكر: أجمع المالكية والشافعية على أن أفضل عصرنا بالديار المصرية ثلاثة: القرافي، وناصر الدين ابن المنيِّر، وابن دقيق العيد[٢].

والحافظ السبكي الكبير تقي الدين (ت ٧٥٦)، وكان أقضى القضاة في مصر والشام، ووُصف بأنه امتلك من آلات الاجتهاد ما لم يمتلكه الشافعيّ.[٣]

وابنـه أقضى قضـاة الشـام تـاج الـدين عبـد الوهـاب السـبكي (ت ٧٧١) صاحب «طبقات الشافعية الكبرى»[٤].

ومن العلماء خليل بن إسحاق الجندي المالكي صاحب المختصر المشهور الذي أطبق عليه المالكية، وقد توفي سنة ٧٦٧، رحمه الله تعالى[٥].

ومنهم شرف الدين الدمياطي عبدالمؤمن بن خلف (ت ٧٠٥) صاحب

---

(١) «حسن المحاضرة»: ١/ ٣١٨.
(٢) المصدر السابق: ١/ ٣١٦.
(٣) انظر ترجمته في المصدر السابق: ١/ ٣٢١ وما بعدها.
(٤) المصدر السابق: ١/ ٣٢٨ وما بعدها.
(٥) انظر ترجمته في المصدر السابق: ١/ ٤٦٠.

«المتجر الرابح في ثواب العمل الصالح» وهو كتاب مطبوع متداول معروف[١].

ومنهم ابن هشام النحوي المشهور عبدالله بن يوسف (ت ٧٦١) وقد قال فيه ابن خلدون: كنا ونحن بالمغرب نسمع أنه قد ظهر بمصرَ عالم يقال له ابن هشام هو أنحى من سيبويه!! وقد كان له مصنفات في النحو ليس لها نظير، وضعها على نحو مبدع، رحمه الله تعالى[٢].

ومن العلماء ابن عقيل شارح الألفية في النحو، وهو عبدالله بن عبدالرحمن ابن عقيل العقيلي، من ولد عقيل بن أبي طالب وكان قاضي الديار المصرية (ت ٧٦٩)[٣].

أما القرن التاسع ففيه الحفاظ العظام:

العراقي زين الدين عبدالرحيم بن الحسين (ت ٨٠٦) كان صالحًا متواضعًا[٤].

وابنه أبو زرعة وتوفي سنة٨٢٦[٥].

والهيثمي صاحب «مجمع الزوائد» وتوفي سنة ٨٠٧[٦].

وابن حجر العسقلاني الإمام المشهورصاحب «فتح الباري» وهو أحسن

---

(١) انظر ترجمته في «حسن المحاضرة»: ١/ ٣٥٧.
(٢) انظر ترجمته في المصدر السابق: ١/ ٥٣٦.
(٣) انظر ترجمته في المصدر السابق: ١/ ٥٣٧.
(٤) انظر ترجمته في المصدر السابق: ١/ ٣٦٠ وما بعدها.
(٥) انظر ترجمته في المصدر السابق: ١/ ٣٦٣.
(٦) انظر ترجمته في المصدر السابق: ١/ ٣٦٢.

شرح لصحيح الإمام البخاري (ت ٨٥٢)، وقد كان قاضيًا بالديار المصرية، وعظم قدره فيها، رحمه الله تعالى[(١)].

ومحمود العيني (ت ٨٥٥) صاحب «عمدة القاري شرح صحيح البخاري» وإليه ينسب القصر العيني في مصر اليوم، وكان السلطان برسباي المملوكي يقول: «لولا القاضي العيني ما حسن إسلامنا، ولا عرفنا كيف نسير في المملكة»، وذلك لأنه كان يدخل على سلاطين المماليك وينصحهم وينادمهم، رحمه الله تعالى[(٢)].

ومن علماء ذلك القرن شيخ الإسلام عمر بن رسلان البُلقيني، مجتهد عصره (ت ٨٠٥) ووُصف بأنه مجدد القرن الثامن، رحمه الله تعالى[(٣)].

ومن العلماء المقريزي أحمد بن علي (ت ٨٤٠) المؤرخ المشهور صاحب «خِطط مصر»، وهو ممن ولي حِسبة القاهرة[(٤)].

ومنهم الشيخ جلال الدين المَحَلِّي محمد بن أحمد بن إبراهيم (ت ٨٦٤) صاحب تفسير «الجلالين» الذي أتمه السيوطي، وكان علاّمة، آية في الذكاء والفهم، وكان بعض أهل عصره يقول عن ذهنه إنه يثقب الماس، وكان غُرة عصره في سلوك طريق السلف من الصلاح والورع، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يواجه بذلك أكابر الظلمة والحكام، ويأتون إليه فلا يلتفت إليهم، ولا يأذن لهم بالدخول عليه، وكان مهابًا، صاحب كرامات كثيرة، متقشفًا في

---

(١) انظر ترجمته في «حسن المحاضرة»: ١/ ٣٦٣ وما بعدها.

(٢) انظر ترجمته في المصدر السابق: ١/ ٤٧٣ وما بعدها.

(٣) انظر ترجمته في المصدر السابق: ١/ ٣٢٩ وما بعدها.

(٤) انظر ترجمته في المصدر السابق: ١/ ٥٥٧.

ملبوسه ومركوبه، رحمه الله تعالى[1].

وأما القرن العاشر ففيه جملة من العلماء على رأسهم:

الحافظ محمد بن عبد الرحمن السخاوي وقد توفي سنة ٩٠٢ مجاورًا في مدينة رسول الله ﷺ المشرفة المطهرة، وهو صاحب الكتاب التاريخي المعروف: «الضوء اللامع لأهل القرن التاسع»، وله كتب أخرى عديدة[2].

ومنهم الحافظ السيوطي المشهور (ت ٩١١)، ولا أعلم عالمًا في تاريخ الإسلام ألّف أكثر منه، ولا قاربه إلا القليل جدًّا، رحمه الله تعالى[3].

ومنهم شيخ الإسلام زكريا بن محمد الأنصاري المعمر (ت ٩٢٦) الذي كان يصلي النوافل وهو قائم يتمايل ويهتز من الكبر فقد جاز المائة، وكان إذا سئل: لم لا تصلي قاعدًا؟ قال: أخاف أن أعود نفسي الكسل!! يالله!! أين نحن من أولئك العظماء، فلنبك على أنفسنا وتقصيرنا، وإنا لله وإنا إليه راجعون[4].

* * *

---

(١) انظر ترجمته في «حسن المحاضرة»: ١/ ٤٤٣ وما بعدها.

(٢) انظر ترجمته في «الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة»: ١/ ٥٣ وما بعدها.

(٣) انظر ترجمته في المصدر السابق: ١/ ٢٢٦ وما بعدها.

(٤) انظر ترجمته في المصدر السابق: ١/ ٢٩٦ وما بعدها.



٤ علماء مصر بعد القرن العاشر

قد كان في مصر جملة من العلماء العاملين بعد القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، على أن تلك القرون كانت تعد قرون انحطاط وبُعد عن الإسلام.

وكانت العامة تعاني كثيرًا من الظلم وصعوبات الحياة وتسلط الباشوات والمماليك على الناس والاستيلاء على أموالهم بحجج لا تكاد تنتهي، وهذا ظهر بقوة منذ بدايات القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي، ولم يكن للعامة بعد الله تعالى إلا أن يلجئوا إلى العلماء الذين لم يخيب أكثرهم ظن أولئك المساكين، ووقفوا بقوة أمام جبروت الحكام وظلمهم، وأستطيع أن أقول: إن العلماء العاملين هم الذين كانوا يقودون الجماهير -آنذاك- ويحققون مطالبهم، وإليكم بعض الأمثلة الموضحة لهذا:

الشيخ علي بن أحمد الصعيدي العدوي المالكي، ولد سنة ١١١٢ ببني عدي في الصعيد وينتسب إلى الفاروق عمر ﷺ وانتقل إلى القاهرة، واجتهد في طلب العلم إلى أن صار عالم الديار المصرية.

وكان شديدًا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا يحابي في إنكاره أحدًا.

وكان ينهى عن التدخين بحضرته وبحضرة العلماء تعظيمًا للعلم والعلماء،

وإذا دخل إلى منزل أمير من الأمراء ورأى من يدخن شنّع عليه وكسر آلته ولو كان كبير الأمراء، فكان الأمراء إذا رأوه سارعوا بإخفاء آلات التدخين، وكان علي بك الكبير أمير مصر عاتيًا متجبرًا ومع ذلك إذا رأى الشيخ مقبلاً عليه سارع بإخفاء آلات التدخين خوفًا من الشيخ.

وكان علي بك يقبل يد الشيخ إذا دخل عليه!! وكان الشيخ يكتب شكاوى الناس في ورقة ويتكلم مع الأمير في كل شكوى منها، فكان الأمير يتضايق منها فيصيح الشيخ في وجهه قائلاً: لا تأسف فالدنيا فانية، وسيسألنا الله عن تأخرنا في نصحك إن لم نفعل، ثم يمسك بيده ويقول: أنا خائف على هذه الكف من نار جهنم يوم الحساب.

ودخل عليه مرةً فشعر تلكؤًا من الأمير فخرج من عنده غاضبًا، فارتبك الأمير وحاول اللحاق به معتذرًا، فأبى الشيخ وأخذ يتلو قوله تعالى:

﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ [هود: ١١٣].

وهكذا كان الشيخ أيضًا -رحمه الله تعالى- مع الأمير محمد بك أبو الذهب الذي جاء بعد علي بك الكبير.

واختلف الأمير يومًا مع الشيخ عبدالباقي العفيفي بسبب قضية فقهية انتصر الأمير فيها للرأي المخالف لرأي الشيخ، وأرسل إلى الشيخ من يجره من رقبته ويضع الحديد فيها وفي رجليه، ثم حبسه مع أرباب الجرائم!! فغضب الشيخ علي الصعيدي وجاء إلى مجلس الأمير وقال له: نحن أعلم بالأحكام

الشرعية، فخاطب الأميرُ أحد المشايخ الذين حاولوا إفهامه الحكم الشرعي قائلاً: والله أكسر رأسك، فغضب الشيخ علي وقال له: لعنك الله!! ولعن اليسرجي -أي تاجر العبيد- الذي جاء بك، ومن باعك ومن اشتراك ومن جعلك أميرًا !! فتوسط الحاضرون من الأمراء يسكنون غضبه وغضب الأمير، وأحضروا الشيخ عبدالباقي من الحبس فأخذوه وخرجوا وهم يسبون الأمير!! وهكذا كان الشيخ رحمه الله مع من يتعدى حدود الشرع.

واستمر على طريقته الجميلة في قضاء حاجات الناس وصدع الأمراء بها إلى أن توفي بالقاهرة سنة ١١٨٩/ ١٧٧٤، رحمه الله تعالى ونفعنا بعلمه[١].

ومنهم الشيخ أحمد بن أبي حامد العدوي المشهور بأحمد الدردير، ولد سنة ١١٢٧/ ١٧١٥ بصعيد مصر، وهو من نسل الفاروق عمر ﷺ، وكان قد درس العلوم على عدة مشايخ منهم الشيخ علي الصعيدي آنف الذكر، وكان آمرًا بالمعروف وناهيًا عن المنكر، لا يهاب أحدًا، ولما توفي الشيخ علي الصعيدي عُين أحمد الدردير شيخًا للمالكية وناظرًا على وقف الصعايدة.

ولما زار الوالي العثماني الأزهر ليستميل المشايخ حتى يمتنعوا عن مساندة العوام والثورة معهم رأى الشيخ الدردير جالسًا مادًّا قدميه وهو يقرأ ورده من القرآن، ولم يقم لاستقباله والترحيب به فغضب، فهدّأ أحد أفراد الحاشية من غضبه بأن قال له: هذا شيخ مسكين ضعيف العقل، ولا يفهم إلا كتبه، فأرسل الوالي إليه صرة نقود مع أحد العبيد فرفضها الشيخ وقال للعبد: قل لسيدك: «من مد رجليه فلا يمكن له أن يمد يديه».

---

(١) انظر ترجمته في «عجائب الآثار»: ٤/ ٤١٤ وما بعدها.

وله مواقف عديدة مع الأمراء منها ما جرى مع الأمير يوسف الكبير حين منع طلبة العلم المغاربة من الاستفادة من أوقافهم الخيرية فرفعوا الأمر إلى القاضي فحكم لهم، لكن الأمير رفض الانصياع للحكم، فكتب له الشيخ الدردير يطالبه بالانصياع والقبول فرفض وطغى وبغى واحتقر الطلب ومَن حمله إليه، فما كان من الشيخ الدردير إلا أن اجتمع بالجامع مع الناس، وأبطل الدروس والأذان والصلوات فيه وأغلقه، وطلع الصغار على المنارات يصيحون على الأمراء ويدعون عليهم!! وهكذا ظل الأمر إلى أن أذعن الأمراء للحكم الشرعي.

وفي حالة أخرى رفض الأمير فيها أن يئوب إلى الحق فثار الشيخ والعلماء والعامة ومن وراءهم، وأغلق الناس محلاتهم، وحدثت مظاهرة كبيرة فاجتمع الأمراء وحذروا الأمير من عواقب صنيعه، واجتمع بالعلماء، وصارت مشادة عنيفة أذعن بعدها الأمير، لكن العلماء لم يرضوا حتى يجري صلح رسمي وتُكتب وثيقة فيها شروط على الأمراء بأن يتعهدوا بالتزام ما يقضي به القضاة من الأحكام الشرعية، وبقي الشيخ الدردير على سيرته الجميلة حتى توفي سنة ١٢٠١/١٧٨٦[١].

ومنهم الشيخ سليمان المنصوري الأزهري، وقد وقف في وجه فرمان - قرار- عثماني أرسله الخليفة من استانبول إلى القاهرة سنة ١١٤٨ ويتضمن إلغاء بعض الأوقاف الخيرية وإضافتها إلى دائرة الوالي على مصر ليرسل غلّتها إلى استانبول، فاجتمع العلماء وقرأ القاضي العثماني منشور الخلافة ثم عقب

(١) انظر ترجمته في «عجائب الآثار»: ٢/ ١٤٧ وما بعدها.

عليه بقوله: أمر السلطان لا يخالف، وتجب طاعته بنص الشرع الشريف.

فقام الشيخ سليمان المنصوري وقال: يا شيخ الإسلام هذا شيء جرت به العادة في مدة الملوك المتقدمين، وتداوله الناس ورتبوه على خيرات ومساجد وأسبلة فلا يجوز إبطال ذلك، وإذا بطل بطلت الخيرات وتعطلت الشعائر المرصد لها ذلك، فلا يجوز لأحد يؤمن بالله ورسوله أن يبطله، وإنّ أمر ولي الأمر بإبطاله لا يُسَلّم له، ويخالَف أمره لأن ذلك مخالفة للشرع، ولا يُسَلَّم للإمام في فعل يخالف الشرع الكريم، فكان قوله ذلك سببًا في عدول الحكومة عما كانت تريد فعله، وهكذا ينبغي أن يكون العلماء.

توفي -رحمه الله تعالى- سنة ١١٦٧[١].

- ومنهم الشيخ أحمد بن موسى العروسي، وقد ولد سنة ١١٣٣/ ١٧٢٠، وتولى مشيخة الأزهر سنة ١١٩٢ وظل في المشيخة إلى أن مات سنة ١٢٠٨، وقد كان له مواقف مشهودة في الدفاع عن الناس أمام الأمراء، وقد اشتد الغلاء في مدة من المدد وضج الناس منه، فذهب العروسي إلى الوالي حسن باشا واتفق معه على وضع تسعيرة للخبز واللحم والسمن، وزالت الغمة بفضل الله -تعالى- على يد ذلك الشيخ.

وقد اجتمع مرةً مجلس الديوان لإقرار ما يطلبه الوالي العثماني من ضرائب على المصريين لمحاربة المماليك في الصعيد، فأنكر الشيخ العروسي هذا، فكظم الباشا غيظه وقال: هذا رأي السلطان، وشرع يقرأ منشورًا باللغة العثمانية، لكن العروسي قال: أخبرونا عن حاصل الكلام فإننا لا نعرف التركية، فيُترجم

---

(١) انظر ترجمته في «عجائب الآثار»: ١/ ١٩٠.

المنشور، ويفهم الشيخ أن الدولة تريد أن تفرض على المصريين ضرائب بغير حق شرعي فقال: إنني لا أعبأ أن يكون الحاكم من العثمانيين أو من المماليك، إنما أبحث عن مصالح الناس وأموال المسلمين، ثم يلتفت إلى العثمانيين الحاضرين في المجلس وقال لهم: اخرجوا إليهم للحرب ساعة فإما أن تَغلبوا وإما أن تُغلبوا، وسنستريح من الجميع فلم يسع الوالي والقائد مخالفته، وهؤلاء هم العلماء العاملون.

توفي -رحمه الله تعالى- سنة ١٢٠٨[١].

ومنهم الشيخ المؤرخ المعروف عبدالرحمن الجبرتي الذي كان والده حسن من علماء الأزهر، وقد ولد عبدالرحمن سنة ١١٦٧/ ١٧٥٦، وطلب العلم الشرعي حتى صار من العلماء، وألف كتابه التاريخي المشهور «عجائب الآثار»، وأورد فيه تفصيلات لظلم المماليك والعثمانيين ومحمد علي باشا، ولم يأبه بالطغيان والظلم، فقتل محمد علي ابنه، وقيل إنه قتله هو أيضًا، وبعد قتله صودرت كتبه وأُحرقت، وأحرقت داره، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

وقد قال الجبرتي في مقدمة كتابه: «سنورد -إن شاء الله- ما ندركه من الوقائع بحسب الإمكان، والخلو من الموانع، إلى أن يأتي أمر الله، وأن مردنا إلى الله، ولم أقصد بجمعه خدمة ذي جاه كبير، أو طاعة وزير أو أمير، ولم أداهن فيه دولة بنفاق، أو مدح أو ذم مباين للأخلاق» وذكر في كتابه كيف كان المماليك يحكمون مصر، وكيف كان تكالبهم على المال والجاه، وما جلبوه لمصر من محن ونكبات، وكيف كان أتباع أمراء المماليك يأخذون ما يحبون من الباعة

---

(١) انظر ترجمته في «عجائب الآثار»: ٢/ ٢٥٢ وما بعدها.

دون ثمن، فإذا امتنع أحد قتلوه ونهبوا متجره، وكيف كانوا يخطفون النساء والأولاد، وكيف كانوا يدخلون بيوت بالناس ولا ينصرفون حتى يأخذوا ثيابًا وأموالاً وطعامًا، وكيف كانوا يتهجمون على النساء ويأخذون حليهن، وكيف كانوا ينهبون الذهب والفضة من محلات الصاغة.

ولما جاء الفرنسيون سجل مخازيهم بالتفصيل في كتابه الجليل «مظهر التقديس في زوال دولة الفرنسيس».

ولما جاء محمد علي باشا مدحه الجبرتي فيما قام به من إصلاحات لكنه أظهر مساوئه ومساوئ ابنه إبراهيم بجلاء ووضوح وجرأة وإقدام وإنصاف، ولما فعل إبراهيم بأهل الصعيد ما فعل من مخازٍ وسوء قال الجبرتي:

«ثم سافر إبراهيم راجعًا إلى الصعيد ليُتم ما بقي عليه لأهله من العذاب الشديد، فقد فعل بهم فعل التتار عندما جالوا بالأقطار، وأذل أعزة أهلها، وليس ذلك ببعيد على شاب جاهل، سنه دون العشرين عامًا، وحضر من بلده ولم يرَ غير ما هو فيه، لم يؤدبه مؤدب، ولا يعرف شريعة، ولا مأمورات، ولا منهيات».

وذاع في الناس نقد الجبرتي لمحمد علي وابنه إبراهيم وأشياعهما من الظالمين كمحمد الدفتردار وسليمان أغا السلحدار، فقتلوا ولده خليلاً، فحزن عليه الجبرتي فعمي بصره، ثم قُتل هو نفسه -على أصح الروايات- بعد مقتل ولده بثلاث سنوات سنة ١٢٤٠/ ١٨٢٥ ونُكل بترائه، ولم يجد له في الأرض معينًا ولا نصيرًا، وأرجو أن يكون جزاؤه عند الله -تعالى- أحسن الجزاء وأعظم الثواب[1].

---

(١) انظر ترجمته في «الأعلام»: ٣/ ٣٠٤.

ومن علماء مصر الذين لن ينساهم الزمان، ولن يأتي مثلهم إلا بإذن الواحد الديان نقيب الأشراف عمر مَكْرَم الأسيوطي (ت ١٢٣٧/ ١٨٢٢)، وهو شرف للعلماء العاملين ومجدهم وعزّهم، فاللهم أرنا مثله يا رب العالمين، وإليكم ترجمةً موجزةً بعض الشيء لبيان فضله وعظمة صنيعه -رحمه الله تعالى- :

عاش رحمه الله تعالى في زمن الإدبار وذهاب هيبة الأمة الإسلامية، وتربص أعدائها بها الدوائر، وكانت الدولة العثمانية آنذاك في طور الانحدار فلم تستطع أن تصنع كبير شيء مع المكايد التي كانت تترى عليها في كل وقت، والمؤامرات التي تحيط بها من كل جانب، في تلك المدة المظلمة عاش سماحة الشيخ المجاهد عمر مكرم بن حسين السيوطي.

ولد سنة ١١٦٤/ ١٧٥٠ في أسيوط، من أسرة شريفة النسب، تنتهي إلى الأدارسة، وانتقل إلى القاهرة للدراسة في الأزهر، وعُني بالفقه، وتخرج في الأزهر، واقتنى مكتبة كبيرة ما زال جزء منها محفوظًا في دار الكتب المصرية باسمه، لكنه لم يشتغل بتأليف الكتب ولا بالدروس لأنه كان بطبعه ميالاً إلى المشاركة في الشأن العام وسياسة الشعب والاهتمام بأمور المجتمع المصري.

بداية ظهور السيد وعلو شانه:

وكانت بداية بروز السيد عمر مكرم لما اختل الأمر في الديار المصرية بوقوع التنازع بين أمراء المماليك وتسابقهم في ظلم الشعب، فأرسلت الدولة العثمانية حسن باشا الجزائرلي لتأديب المماليك خاصة الأميرين مرادًا وإبراهيم اللذين فَرّا إلى الصعيد، فلما عاد حسن باشا إلى بلاده سنة ١٢٠٥/ ١٧٩١

توسط الأميران لدى الحكومة العثمانية في القاهرة ليعودا إليها، وكان رسولهما في هذا هو السيد عمر مكرم لصداقة بينهم، فنجح في مهمته وعاد الأميران للحكم.

وبعد ثلاث سنوات من هذه الحادثة توفي السيد محمد البكري نقيب الأشراف وشيخ السادة البكرية ولم يكن له عقب فأسند الأميران نقابة الأشراف إلى السيد عمر مكرم عرفانًا بالجميل ووفاءً له، وكان ذلك سنة ١٢٠٨/ ١٧٩٣، وكان هذا بداية ظهوره في المجتمع المصري.

ثم عظم شأنه بعد ذلك؛ إذ إن الأميرين عادا إلى سيرتهما القبيحة وظلمهما للشعب، فثار الشعب المصري عليهما سنة ١٢٠٩/ ١٧٩٥ وكادت تحدث فتنة فاجتمع الأمراء والباشا التركي في بيت الأمير إبراهيم، وتعهد الأميران مراد وإبراهيم وسائر الأمراء بكف أيديهم عن الشعب وتحري العدل ورفع المظالم وصرف الأموال إلى مستحقيها وإرسال مخصصات الحرمين، ورفع الضرائب المستحدثة وأن يسيروا في الحكم سيرة حسنة، وكُتبت وثيقة بذلك وخُتمت من قِبَل الأميرين، ومن الباشا التركي، وكان السيد عمر مكرم ممن اشترك في كتابة هذه الوثيقة، وهذا مما رفع من مكانته بين قومه.

السيد عمر مكرم والحملة الفرنسية على مصر:

ولما احتل الفرنسيون مصر سنة ١٢١٣/ ١٧٩٩ هرب الأميران مراد وإبراهيم بعد معركة قصيرة مع الفرنسيين وتركا الشعب المصري لمصيره، وهنا نادى السيد عمر مكرم في المصريين بالجهاد، وصعد إلى القلعة ونشر علمًا كبيرًا كان يُسمى «البيرق النبوي» ونزل من القلعة إلى بولاق -وكان حيًّا في أطراف

القاهرة آنذاك- والناس حوله ألوف مؤلفة يحملون العصي والنبابيت وهم يهللون ويكبرون وقد امتلئوا حماسة وحبًّا للجهاد، لكن ما الذي تغنيه قوتهم وعتادهم الضعيف أمام أسلحة الفرنسيين الحديثة خاصة أن جيش المماليك قد هُزم ولاذ بالفرار؟!

وهنا رأى المشايخ مثل الشرقاوي شيخ الأزهر، والشيخ السادات أن يستسلموا ويسلموا البلد للفرنسيين، لكن عمر مكرم رفض أن يدخل القاهرة وآثر أن يصحب جيش إبراهيم بك في تقهقره إلى الشمال نحو المنصورة ثم إلى سيناء فالشام وجيش الفرنسيين يتبعهم.

ثم لجأ عمر مكرم إلى يافا وبقي فيها حتى فتحها نابليون، الذي حرص على إكرامه وإعادته إلى مصر عن طريق دمياط، ودخل القاهرة بعد غياب ثمانية أشهر، فلم يشهد ثورة المصريين الأولى على الفرنسيين التي وقعت بعد ثلاثة أشهر من الاحتلال إنما شهد الثورة الثانية.

ولما عاد إلى مصر رفض أن يشترك في ديوان الحكم الذي أقامه الفرنسيون لتسيير أمور المصريين، ولم يطلب استرجاع مكانه في نقابة الأشراف ولا في نظارة الأوقاف اللتين كان يديرهما من قبل، ولم يرض أن يطلب من الفرنسيين أن يردوا له أملاكه التي صادروها؛ عزةً وأنفةً ورفضًا للاحتلال.

ثورة القاهرة الثانية على الفرنسيين:

في ٢٣ شوال سنة ١٢١٤/ مارس ١٨٠٠ ثار المصريون على الفرنسيون ثورتهم الثانية -ولها قصة يطول ذكرها- وقصد الشعب السيد عمر مكرم ينادونه ويهتفون باسمه فلم يخيب ظنهم وسارع بالنزول إلى الشوارع، وقاد

الثورة الشعبية ومعه بعض الأمراء والكبراء والشجعان، وأمر أهلَ القاهرة ببذل الأموال فسارعوا لتلبيته أمره، وتحرك السيد عمر مكرم من شارع إلى آخر، ومن موقع إلى موقع يحمس الناس ويثبتهم ويشد من عزيمتهم.

ولما وقع الصلح أخرج الفرنسيون بقايا عسكر الترك من مصر، وأباحوا لمن أراد من المصريين أن يخرج معهم فخرج السيد عمر فيمن خرج مؤثرًا الغربة وتحمل المشاق على البقاء في بلاده وهي محتلة، وذلك هو خروجه الثاني، في أول ذي الحجة سنة ١٢١٤/ ٢٥ ابريل ١٨٠٠، بعد ٣٧ يومًا من الجهاد وإغلاق أبواب القاهرة في وجه الفرنسيين الذين دكوها بالقنابل من القلاع المشرفة عليها.

ولما خرج السيد من مصر إلى الشام نُهب بيته كما نُهبت بيوت سائر الأمراء الذين آثروا الخروج على البقاء.

ثم لما رجع الجيش العثماني إلى مصر بمعونة الإنجليز لطرد الفرنسيين منها رجع معهم السيد عمر مكرم، واستقبلته القاهرة استقبالاً حافلاً، وصار رجلَ مصر وزعيمها الشعبي، وعادت إليه زعامة نقابة الأشراف.

عمر مكرم يُنَصِّب محمد علي حاكمًا على مصر:

لما خرج الفرنسيون من مصر سنة ١٢١٥/ ١٨٠١ عاد أمراء المماليك إلى عادتهم المذمومة في ظلم الناس واضطهادهم، وصاروا بحيث يقاتل بعضهم بعضًا، وكان في مصر والٍ عثماني اسمه أحمد خورشيد باشا لكنه لم يستطع ضبط الأمور، وكان محمد علي رئيسًا لجند الأرناؤوط «الألبان»، وكان بين الأرناؤوط والمماليك نزاع، وبينهما وبين الوالي التركي وجيشه نـزاع، وحدثت حوادث

يطول ذكرها لكن العلماء وعلى رأسهم السيد عمر مكرم رأوا أن أفضل من يلي حكم مصر هو محمد علي لما رأوا من هدوئه وحسن ضبطه للأمور ودهائه وقوته، فاستقر رأي العلماء على تنصيب محمد علي حاكمًا على مصر، فدخل عليه السيد عمر مكرم والشيخ الشرقاوي وعرضا عليه ما اتفقوا عليه فتردد محمد علي ثم وافق، فألبساه لباس الحاكم آنذاك، وبايعاه نيابة عن الشعب في سنة ١٢٢٠/ ١٨٠٥.

وكانت تلك الحادثة فريدة في تاريخ مصر لم تتكرر قبل ذلك أو بعده فيما أعلم.

ولم يقبل الوالي أحمد خورشيد هذا الذي جرى لكنه أُجبر عليه إجبارًا بعد حوادث يطول ذكرها، وتصدر السيد عمر في هذه الحوادث كلها، ومما يظهر عمق فهم السيد عمر وثقته بما صنع ما جرى بينه وبين رسول الوالي التركي أحمد خورشيد الذي أرسله ليناقش السيد عمر فيما صنعه فقال له الرسول:

- كيف تثورون على مَن ولاه السلطان عليكم وقد قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾[النساء: ٥٩].

- فقال له السيد: اعلم أن أولي الأمر هم العلماء وحملة الشريعة والسلطان العادل، وهذا الحاكم الذي أرسلكم ما هو إلا رجل ظالم ... وقد كان لأهل مصرَ دائمًا الحق في أن يعزلوا الوالي إذا أساء ولم يرض الناس عنه ... إن السلطان أو الخليفة نفسه إذا سار في الناس سيرة الجور والظلم كان لهم خلعه وعزله.

- فقال الرسول: وكيف يجوز لكم حصارنا ومعاملتنا معاملة الخوارج الكفرة؟



- فقال السيد عمر: إننا نقاتلكم لأنكم عصاة قد خرجتم على الحق ...

ومن هذه المناقشة ومن سياق الحادثة يتبين عظم مكانة السيد عمر وطاعة الناس له ولجوءهم إليه.

ثم حدثت حوادث عديدة كادت تودي بمحمد علي في بدايات حكمه لكن السيد عمر مكرم استطاع أن يتجاوز عواقبها بسلام، واستطاع تثبيت حكم محمد علي لمصرَ، خاصة بعد أن عزلت الدولة العثمانية محمد علي بعد سنة تقريبًا من ولايته وطلبت منه أن يتولى ولاية سلانيك عوضًا عنها، لكن السيد عمر استطاع أن يجمع العلماء والكبراء وكتبوا كتابًا للسلطان العثماني يخبرونه بأنهم لا يرضون لحكم مصر إلا محمد علي باشا، ورضخ السلطان لطلبهم بعد حوادث عديدة، وثبت محمد علي حاكمًا لمصر.

ولما تولى محمد علي حكم مصر بمساعدة السيد عمر مكرم عظم شأنه، وقال الجبرتي في شأن علوّ مقدار السيد عمر مكرم أوائل زمن محمد علي باشا:

«وارتفع شأن السيد عمر، وزاد أمره بمباشرة الوقائع (أي الحروب) وولاية محمد علي باشا، وصار بيده الحل والعقد، والأمر والنهي، والمرجع في الأمور الكلية والجزئية».

السيد عمر مكرم والحملة الإنجليزية الأولى على مصر «حملة فريزر»:

نزل الإنجليز على الشاطئ المصري سنة ١٢٢٢/ ١٨٠٧، واحتلوا الإسكندرية، وتحركوا شرقًا لاحتلال بلدة رشيد لأنهم كانوا يريدون سلوك الطريق نفسه الذي سلكته الحملة الفرنسية قبل نزولهم بتسع سنوات تقريبًا،

لكن حامية رشيد والأهالي فيها قاوموا أروع المقاومة ووقفوا سدًّا منيعًا أمام دخول الإنجليز بلدتهم، وأرسلوا استغاثات للقاهرة لنجدتهم.

ولما رأى عمر مكرم ذلك عمل شيئًا فريدًا رائعًا عبر عنه المؤرخ المصري الجبرتي بقوله:

«نبّه السيد عمر النقيب على الناس وأمرهم بحمل السلاح والتأهب لجهاد الإنجليز، حتى مجاوري الأزهر أمرهم بترك حضور الدروس، وكذلك أمر المشايخ بترك إلقاء الدروس».

وعلق المؤرخ المصري الرافعي[١] على ذلك بقوله:

«فتأمل دعوة الجهاد التي بثها السيد عمر مكرم والروح التي نفخها في طبقات الشعب، فإنك لترى هذا الموقف مماثلاً لموقفه عندما دعا الشعب إلى التطوع لقتال الفرنسيين قبل معركة الأهرام، ثم تأمل دعوته الأزهريين إلى المشاركة في القتال تجد أنه لا ينظر إليهم كرجال علم ودين فحسب بل رجال جهاد وقتال ودفاع عن الزمان، فعملهم في ذلك العصر كان أعم وأعظم من

---

(١) عبد الرحمن بن عبد اللطيف الرافعي: مؤرخ مصر في العصر الحديث، محام، من أعيان الحزب الوطني. مولده بالقاهرة سنة ١٣٠٦/ ١٨٨٩. تخرج في مدرسة الحقوق الخديوية وعمل سنة في جريدة اللواء وانقطع للمحاماة وأعمال الحزب والسياسة العامة وضبطت مذكراته السياسية في أوائل الحرب العالمية الأولى فسجن عامًا. وانتخب للنيابة أكثر من مرة، وعضوًا في مجلس الشيوخ ورئيسًا لنقابة المحامين. وألف نفائس من الكتب كلها مطبوعة، منها «تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر» جزآن، و«الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزي» و«في أعقاب الثورة المصرية» ثلاثة أجزاء، و«الجمعيات الوطنية» و«مصطفى كامل» و«محمد فريد» و«عصر إسماعيل» جزآن، و«حقوق الشعب» و«مصر والسودان» و«مذكراتي»، أصيب بشلل نصفي، توفي على أثره في القاهرة سنة ١٣٨٦/ ١٩٦٦. انظر «الأعلام»: ٣/ ٣١١.

عملهم اليوم»[1]، وصدق الرافعي والله.

بدايات الجفوة بين السيد عمر مكرم ومحمد علي باشا:

وكان محمد علي غائبًا في الصعيد فلما عاد استأذنه السيد عمر في الجهاد هو ومن معه فرفض، وأخبره بأن الواجب قد سقط عنهم وأن هذه مسئولية الجيش، وأن مسئولية الشعب هي إعداد الأعلاف للدواب التي ستخرج إلى رشيد!! فوجم السيد عمر من هذه الكلمة غير اللائقة، وحملها بغم وهم وعاد أدراجه وهو ضيق الصدر.

ثم فترت العلاقة بين السيد عمر مكرم ومحمد علي باشا، وساعد على فتورها أكثر أن محمد علي أخذ من المصريين الضرائب الفادحة، وأنزل فيهم من المظالم شيئًا كثيرًا، فغضب عليه السيد ورأى أنه قد أخَلّ بالشرط الذي أُخذ عليه يوم توليته الحكم وهو: «أن يسير بالعدل، ويقيم الأحكام والشرائع، ويُقلع عن المظالم، وألا يفعل أمرًا إلا بمشورة العلماء، وأنه متى خالف الشروط عزلوه»، وبسبب هذا فترت العلاقة بينهما أكثر من ذي قبل فلم يَعُد السيد عمر يتردد على محمد علي باشا كما كان يصنع قبل ذلك.

نفي السيد عمر مكرم:

ثم صار السيد عمر مكرم يجاهر بمعارضة محمد علي باشا بين الناس، وأبدى السخط والتذمر من تصرفات محمد علي باشا، واستمرت الجفوة بينهما عامين طويلين حتى حدثت حادثتان ضخمتا الخلاف وصعدتا به إلى درجات

---

(١) «عصر محمد علي».

خطيرة، وأولاهما أن محمد علي باشا كُلف من قِبل الدولة العثمانية بحرب الوهابيين -كما كانوا يسمونهم- في نجد فاقتضى هذا منه أن يجمع المال الكثير من الشعب، وثانيهما أن أحد المشايخ سُجن ظلمًا فرأى خواص المشايخ والكبراء وفي مقدمتهم السيد عمر مكرم أن في هذا مساسًا بالاتفاق مع محمد علي باشا وقت تنصيبه واليًا على مصر بأن يسير بالعدل، وأن في هذا خلافًا للوثيقة التي وُقعت في بيت الأمير إبراهيم قبل الحملة الفرنسية على مصر ومجيء محمد علي حاكمًا بمدة ونصت على السير في الناس بالعدل، فاجتمعوا في الأزهر يتذاكرون في السبل الكفيلة بردع محمد علي والعامة حولهم يصيحون ويهمون بالثورة، وخلص الأمر إلى كتابة وثيقة تُضمن الشكاوى من محمد علي وترسل إلى رئيس الديوان ليسلمها إليه، فراع ذلك الاجتماع محمد علي، وعلم برئاسة عمر مكرم له فزاده ذلك تغيظًا عليه، وطلب من المشايخ الموقعين على الوثيقة الحضور عنده للمناقشة فذهبوا إلا السيد عمر رفض أن يذهب إليه، ولما ذهب المشايخ صار بعضهم يطعن في السيد عمر مكرم -للأسف- وقال عنه بعضهم: «ما هو إلا صاحب حرفة أو جابي وقف يجمع الإيراد ويصرفه على المستحقين، وليس له قدر إلا بمؤازرتنا، فإذا نحن تخلينا عنه لم يكن له بعد انصرافنا قدر ولا خطر» وهكذا يفعل الحسد والتنازع، وبهذا الموقف الذي استغله محمد علي ضُرب أول إسْفين «مِعْول» بين المشايخ وتراجع قدرهم بعد ذلك فلم يستطيعوا استعادة هيبتهم إلى يوم الناس هذا، واستطاع محمد علي أن يقلم أظافرهم جميعًا بعد خذلانهم السيد عمر مكرم، ونقض اتفاقهم معه الذي كان في الأزهر، كما ذكرت آنفًا.

وتشدد الشيخ عمر في موقفه بعد ذلك وصار يجهر بعدائه لمحمد علي ويقول:

«كما أصعدته للحكم فإني قدير على إنـزاله منه»!!

والتمس محمد علي رضا السيد عمر بكل طريقة حتى أنه حاول أن يهديه الأموال الكثيرة ورجاه أن يعدل عن طريقته لكن السيد عمر مكرم يرفض أن يتنازل عن موقفه إلا بعد أن يعلن محمد علي عن توقفه عن جباية الضرائب بحسب إرادته ومشيئته دون الرجوع إلى زعماء الشعب.

وبينما الأمر على ذلك حدثت حادثة كانت القشة التي قصمت ظهر البعير، وهي أن محمد علي أعدّ «كشف حساب» ليرسله إلى الدولة العثمانية ليبين لها أنه صرف الأموال التي جباها من الشعب بناء على أوامر قديمة منها منذ أن كان الصدر الأعظم -رئيس وزراء الدولة العثمانية- يوسف باشا في مصر زمن خروج الفرنسيين منها، وطلب من المشايخ التوقيع على كشف الحساب فقبلوا ورفض السيد عمر مكرم، وبرر رفضه بأن الضرائب المعتادة كانت كافية لكل ما قام به محمد علي من الأعمال العامة وأنه لا يستطيع أن يشهد إلا بالحق الذي يعتقده وهو أن الضرائب التي فرضها محمد علي -زائدةً على ما كان من قبل- لا داعي لها، فغضب محمد علي وطلب اجتماع المشايخ فحضروا إلا السيد عمر وهناك أعلن خلعه من نقابة الأشراف ونفيه إلى دمياط، وكان ذلك سنة ١٢٢٤/ ١٨٠٩، فامتثل للأمر، وللأسف فإن جماعة من العلماء قاموا بكتابة محضر إلى الدولة العثمانية يدافعون عن نفي محمد علي باشا السيد عمر مكرم واتهموه باتهامات غير صحيحة، لكنهم بعد نفيه ذاقوا وبال صنيعهم، وصدق

قول الجبرتي فيهم وفي السيد عمر :«كان ظلاً ظليلاً عليهم وعلى أهل البلد يدافع عنهم، ولم يزالوا بعده في انحطاط».

وقضى السيد عمر مكرم قرابة ثلاث سنوات في دمياط بنى فيها نزلاً لنزول التجار الذين كانوا يقصدون ميناءها من سائر البلدان، ثم تحول إلى طنطا فبقي فيها خمس سنوات تقريبًا، إلى أن عفا عنه محمد علي وأعاده إلى القاهرة بعد أن طلب السيد عمر منه أن يحج، ثم أرسل له محمد علي خطابًا لطيفًا قال له فيه: «إلى مطهر الشمائل سَنِيِّها، حميد الشئون وسميّها، سلالة بيت المجد الأكرم والدنا السيد عمر مكرم دام شأنه، أما بعد:

قد بلغنا نجلكم عن طلبكم الإذن في الحج إلى البيت الحرام وزيارة روضته -عليه الصلاة والسلام- للرغبة في ذلك، والترجي لما هنالك، وقد أذنّا لكم في هذا المرام؛ تقربًا لذي الجلال والإكرام، ورجاء لدعواتكم بتلك المشاعر العظام، فلا تَدَعوا الابتهال، ولا الدعاء لنا بالقال والحال، كما هو الظن في الطاهرين والمأمول من الأصفياء المقبولين ...»، وعاد السيد عمر إلى القاهرة التي ارتجت فرحًا بمقدمه، وخرج عامة الشعب إلى بولاق لتحيته، بعد تسع سنوات من نفيه.

نفي السيد عمر مرة أخرى !!:

وبعد ثلاث سنوات من عودة السيد عمر من المنفى حدثت حادثة استدعت إعادة نفيه، وهي أن الدولة العثمانية طلبت من محمد علي تموين بعض سفنها التي تحارب اليونانيين في جزيرة كريت وذلك سنة ١٢٣٧/ ١٨٢٢ فاضطر محمد علي لفرض ضرائب على الشعب الذي هاج وماج، وهتف باسم



السيد عمر مكرم الذي لم يكن قادرًا على الاستجابة لطلبهم لكبر سنه وضعف قوته، لكن محمد علي خاف من تجدد الفتن فبادر بنفيه إلى طنطا لكنه لم يبقَ في منفاه طويلاً إذ توفي في السنة نفسها عن ثلاث وسبعين سنة، ودفن في قرافة القاهرة رحمه الله تعالى وغفر له.

وبتنحية السيد عمر مكرم تنتهي مرحلة من أهم مراحل مصر الحديثة، ويُجهض عمل من أهم الأعمال التي مَرّت على ديار العرب في القرنين الأخيرين، ألا وهو مشاركة العلماء الحكام في إدارة شأن العامة وتوجيههم، ومشاركة العلماء في اختيار الحكام ليكونوا معهم أولياء الأمور، ولا أعلم أنه قام في ديار العرب في العصر الحديث عمل مشابه لما كان في مصر، ولو قُدر لتلك المشاركة أن تمضي إلى نهايتها لتغير تاريخ العرب والمسلمين بل العالم كله، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

- وقد تمنيت أن يلاين السيد عمر مكرم محمد علي قليلاً، وأن يداريه شيئًا من المداراة حتى يحصل منه على أكبر قدر ممكن من المكاسب للبلد والشعب؛ فإن الصدام بينهما لم يكن من المصلحة أبدًا لكن هكذا جرى الأمر، والحمد لله على كل حال.

وفي النهاية لا بد من القول بأن العلماء اعتادوا أن يصفوا بعض المتأخرين بأنهم خاتمة الحفاظ أو خاتمة المحدثين أو غير ذلك من الألقاب، وأستطيع أن أقول إن السيد عمر مكرم كان خاتمة العلماء المجاهدين، فإني لم أرَ في التاريخ المصري الحديث بل التاريخ العربي الحديث عالمًا بوزن السيد عمر مكرم ومشاركته في الجهاد وتوجيه العامة مع الهيبة والمقام العالي بين سائر الناس،

حكامًا ومحكومين، وقد كان خاتمة لعلماء مصريين هم كالشامة بين الناس، وكلهم كانوا مجاهدين عاملين، ذكرت منهم المشايخ سليمان المنصوري، وعلي ابن موسى الحسيني المقدسي المصري، وعُرف بابن النقيب، وعلي الصعيدي، والشيخ الدردير، والشيخ العروسي، وخاتمتهم السيد عمر مكرم رحمه الله تعالى.

وأختم بما قاله المؤرخ المصري عبدالرحمن الرافعي في السيد عمر مكرم فإنه معبر عن حاله أحسن التعبير:

«كان للشعب زعماء عديدون يجتمعون ويتشاورون ويشتركون في تدبير الأمور، ولكلٍّ منهم نصيبه ومنزلته، ولكن من الإنصاف أن يُعرف للسيد عمر مكرم فضله في هذه الحركة؛ فقد كان بلا جدال روحها وعمادها»[1].

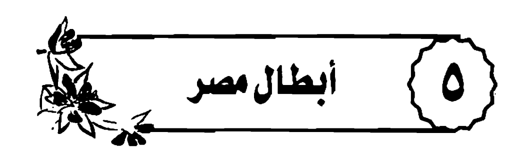
هؤلاء بعض علماء مصر الذين أنجد الله -عز وجل- بهم العباد والبلاد، وكانوا محل ثقة الناس، وملجأ لهم بعد الله -سبحانه وتعالى- وكان لهم أيادٍ بيضاء على مصر في مدة مظلمة شاع فيها الظلم واستُسهل فيها الاعتداء على الناس، وضعف فيها الاستمساك بحبل الله تعالى والأخذ بالشرع المطهر، وهكذا ينبغي أن يكون العلماء في مقدمة الصفوف يحلون المشكلات ويأخذون على يد الظلمة، ويوقفون الولاة عند حدود الشرع فلا يجرأون على تجاوزها، فوجود أولئك العلماء في تلك العصور المظلمة هو فخر لمصر، ودلالة واضحة على أن العلماء هم صِمام أمان المجتمعات الإسلامية في كل زمان ومكان.

***

---

(١) «عصر محمد علي».





٥ أبطال مصر

وأما أبطال مصر الذين كانت لهم أيادٍ بيضاءُ على أهل الإسلام فهم جملة وافرة كبيرة من الصحابة والتابعين الذين فتحوا مصر واستقروا بها، ومن ثَم اتخذوها قاعدة لفتح الشمال الإفريقي، والكلام عنهم يطول لكنني إنما أريد أن آتي بأبطال العصر الوسيط والحديث، لأنهم ممن تخفى تراجمهم أو يخفى أثرهم في مصر على غير المختصين، فمن هؤلاء:

الأمير الكبير حسام الدين لؤلؤ، أحد أكابر الأمراء في دولة صلاح الدين الأيوبي، وهو المسئول عن الأسطول البحري المصري فكان شوكة في حلق الفرنجة، قال فيه الإمام ابن كثير: كان «البحر في البحر، فكم من شجاع قد أسر، وكم من مركب قد كسر، وكم من أسطول لهم قد فرّق شمله، ومن قارب قد غَرّق أهله، وقد كان مع كثرة جهاده دارّ الصدقات، كثيرَ النفقات في كل يوم، وكان بديار مصر غلاء شديد فتصدق باثني عشر ألف رغيف لاثني عشر ألف نفس فجزاه الله خيرًا، ورحمه في قبره، وبيض وجهه يوم محشره ومنشره، آمين».

ولما عمل أرناط الصليبي أمير الكرك مراكب في البحر الأحمر لينفذ بها إلى مدينة رسول الله ﷺ، أمر ملك مصر العادل أبوبكر بن صلاح الدين الأمير حسام الدين لؤلؤ صاحب الأسطول أن يدرك أسطول الفرنجة ويحمي قبر

النبي ﷺ، ففعل وأدرك أسطول الفرنجة فحرّق منه وغَرَّق، وسبى وأسر وقهر، وقَتَل بأمر من صلاح الدين نفسه كل من شارك من الصليبيين في هذه الحملة لأنهم اطلعوا على طريق الحجاز البحري، ولم يكن صلاح الدين يريد أن يبقى واحد من أولئك حيًا حتى لا يعيد الكرة.

وقد أنجد حسام الدين لؤلؤ صلاح الدين في حصار عكا بخمسين سفينة، فلما وصل الأسطول إلى سواحل عكا حاد عنه الأسطول الصليبي يمنة ويسرة خوفًا منه، ولله الحمد والمنة[1]، فرحم الله تعالى ذلك البطل الكبير، وفيه يقول القاضي الفاضل:

«وهذا لؤلؤ قد اشتهرت بالكفر فتكاته، وشُكرت في العدو نكاياته، وقد تفرد بغزوات لم يشاركه فيها أحد، وهو الذي رد الفرنج عن بحر الحجاز ولم يترك منهم عينًا تَطْرِف، ولم يُبق لهم دليلاً يَعْرِف، وغزواته مشهورة، وفتكاته مذكورة، وأمواله مبذولة، وأكياسه لعقد الإنفاق في سبيل الله محلولة»[2].

ومن أبطال مصر واليها المشهور صلاح الدين الأيوبي الذي عاش فيها مدة طويلة، وقد صُقل في مصر، واكتسب تجارب وخبرات أهلته للسلطنة فيما بعد.

وكان له الفضل بعد الله -تعالى- في إنهاء الدولة العبيدية الرافضية الميمونية القداحية اليهودية التي تنسب زورًا وبهتانًا إلى فاطمة -رضي الله تعالى عنها- فيقال الدولة الفاطمية، فأنهى الدولة وأعاد مصر للخلافة العباسية.

---

(١) انظر «البداية والنهاية» لابن كثير: ١٤/ ٣١٤، ٣٧٠، ٤٥٦ على التوالي.
(٢) انظر «مختصر الروضتين»: ٢٨٧.

وكان له الفضل بعد الله -تعالى- في إنقاذ مصر من الصليبيين المتربصين بها سوءًا، وفي ذلك كلام يطول وأحداث كثيرة لا يسعني إيرادها هاهنا.

أما فتحه بيت المقدس فتلك قصة جليلة رائعة، طويلة الذيول، كثيرة التفاصيل، لا أستطيع ايرادها في هذه العجالة، ولأني لا أورد -هاهنا- إلا ماله علاقة مباشرة بمصر والمصريين.

وإن ينس التاريخ أبطالاً فلن ينسى أبدًا أبطال مصر الذين ردوا الحملة الصليبية الذي جاء على رأسها لويس التاسع ملك فرنسا واستولى على دمياط، فكمن له أبطال مصر وأذاقوه سوء العذاب، وأبادوا من جيشه عشرات الآلاف، وحبسوه في دار ابن لقمان بالمنصورة ووضعوا القيد في رجليه، ووكلوا به حارسًا يُدعى صَبيحًا، وكانت وقعة جليلة، ولما عاد إلى بلاده ذليلاً مهينًا بعد فداء نفسه بمبلغ ضخم من المال حدثته نفسه بالعودة إلى الديار المصرية، فأنشأ الصاحب جمال الدين يحيى بن مطروح[1] قصيدة رائعة وبعثها إليه فأحجم عن المجيء وأخذ الثأر، وهي:

قل للفرنسيس إذا جئتَه ... مقالَ صدق من قؤول فصيح

أتيت مصر تبتغي مُلْكها ... تحسب أن الزمر يا طبلُ ريح

وكلَّ أصحابك أودعتَهم ... بحسن تدبيرك بطن الضريح

وفقك الله لأمثالها ... لعل عيسى منكمُ يستريح

---

(١) شاعر مصري من الشعراء المجيدين. توفي سنة ٦٥٤. انظر ترجمته في «حسن المحاضرة»: ١/ ٥٦٧.

آجــرك الله عـــلى مـــا جـــرى مـــن قتـل عُبّـاد يســوع المسـيح
فســـاقك الحَـــيْنُ إلى أدهـــم ضـاق بـه عـن ناظريـك الفسـيح
خمســـون ألفًـــا لا تـــرى مـــنهم إلا قتـــيلاً أو أســـيرًا جـــريح
إن كـــان باباكــم بــذا راضـــيًا فـرُب غـش قـد أتـى مـن نصـيح
وقــل لهــم إن أضــمروا عــودة لأخــذ ثــأر أو لقصــد صــحيح
دار ابـــن لقـــمانَ عـــلى حالهـــا والقيـد بـاقٍ والطـواشي صَـبيح[1]

ومنهم البطل الكبير قطز سلطان المماليك الذي كان له الأثر العظيم في معركة عين جالوت، وأوقف المد التتري الهمجي، وقد نصره الله -تعالى- ببركة طاعة سلطان العلماء العز بن عبد السلام، وكان قطز قد أدخله المجلس الحربي الذي عقد في القاهرة سنة ٦٥٨، وقد ناهز العز الثمانين من عمره المبارك، يوم كان للعلماء رونق وبهجة وجلالة وسلطان على نفوس الحكام، وطلب قطز من العز أن يجوِّز للمماليك جمع ضريبة من المصريين من أجل جهاد التتار، فامتنع العز إلا بعد أن يجمع قطز كل أموال المماليك وحليهم وحلي نسائهم عنده وأن يقتصر كل الأمراء على دوابهم وسلاحهم فقط ويتساووا مع العامة ثم ينظر -إن لم يكف ذلك- في أمر الضرائب، أما أخذ أموال العامة مع بقاء ما في أيدي الجند من الأموال والآلات الفاخرة فلا، ففعل قطز ذلك ولم يسعه مخالفة العز البطل العظيم، ثم رأى العز أن ذلك غير كافٍ للجهاد فأفتى بأخذ الضرائب من المصريين، ثم قال للمجلس الحربي قولة عجيبة جدًّا:

(١) انظر الحادثة في «البداية والنهاية»: ١٥/ ٢٧٢.

اخرجوا وأنا أضمن لكم على الله النصر، وما قال العز ذلك جرأة على الله -تعالى- ولا رجمًا بالغيب إنما قاله لمعرفته بالسنن وأن المسلمين قد وصلوا إلى حد الاضطرار والله -تعالى- قد قال: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: ٦٢] ثم خرج المماليك إلى لقاء التتار وكان ما كان من نصر عظيم مؤزر قاده البطل العظيم قطز، وساعده الظاهر بِيبرس الذي طهر الأرض من التتار وأتبعهم بأبطال المماليك إلى أن أخرجهم من العراق، ولله الحمد والمنة[١].

ومن أبطال المصريين الأشرف خليل بن قلاوون (ت ٦٩٣) الذي طهر الساحل الشامي من الصليبيين وأخرجهم من آخر معاقلهم عكّا سنة ٦٩٠، بعد وفاة البطل صلاح الدين بقرن كامل، وكتب الله هذا الشرف للأشرف خليل -رحمه الله تعالى- وكان بطلاً شجاعًا مقدامًا مهيبًا، عاليَ الهمة، يملأ العين، ويُرْجِف القلب، وقد فتح إضافة إلى عكا بيروت وصور وصيدا وقلاعًا أخرى بحيث انقطع أثرهم تمامًا من البلاد الشامية، ولله الحمد والمنة[٢].

ومن أبطال مصر العالم الكبير ونقيب الأشراف عمر مكرم[٣].

ومن أبطال المصريين محمد كريّم والي الإسكندرية زمن الحملة الفرنسية الباغية الهمجية على الديار المصرية ١٢١٣/١٧٩٨ فقد قاتل قتال الأبطال وفعل كل ما في وسعه، لكن الأمر كان أكبر منه، وقتله نابليون بعد ذلك صبرًا في القاهرة وغدرًا بعد أن طلب منه فدية ضخمة عجز عن دفعها، رحمه الله

---

(١) انظر الواقعة في «البداية والنهاية»: ١٥/ ٣٥١ وما بعدها.

(٢) انظر ترجمته في المصدر السابق: ١٥/ ٥٧٣ وما بعدها .

(٣) راجع المقال الماضي.

تعالى رحمة واسعة[(١)].

ومن أبطال مصر أحمد عرابي الذي ثار على الخديو توفيق عميل الإنجليز، وحارب الإنجليز في وقت جبن فيه أكثر الناس وقعدوا، وله هنات وعليه بعض المؤاخذات في أخطاء ما كان له أن يفعلها، وقد بينتها في حلقات الحملة الإنجليزية على مصر، وقد بُثت في قناة اقرأ ،لكنه – في الجملة - بطل في وقت عز فيه وجود الأبطال، وقد حاول وبذل مافي وسعه لكن الأمر كان أكبر منه، فرحمه الله رحمة واسعة هو وإخوانه الضباط الأبطال وعلى رأسهم الشاعر المصري الكبير، الذي جدد الشعر بعد موات، الضابط محمود سامي البارودي.[(٢)]

ومن أبطال مصر الضابط الكبير أحمد عبدالعزيز الذي دوخ إخوان القردة في فلسطين، وكان له من جلائل الوقائع ما يُسطّر بمداد من نور على وَجَنات الحور، لكن إعلامنا إعلام رقص وغناء وتطبيل وتمثيل وإلا فأين هو من أولئك العظماء الكبراء، هذا وقد جاء فى موسوعة« ويكيبيديا» موجزًا لجهاده واستشهاده، أوجزه بالتالي:

بعد قرار تقسيم فلسطين وانتهاء الانتداب البريطاني في ١٤ مايو ١٩٤٨م وبعد ارتكاب العصابات الصهيونية لمذابح بحق الفلسطينيين العُزْل ثار غضب العالم العربي والإسلامي وانتشرت الدعاوى للجهاد في كل أرجاء الوطن العربى.

---

(١) انظر ترجمته في «الأعلام»: ٧/ ١٤.
(٢) انظر ترجمته في «الأعلام»: ١/ ١٦٨ وما بعدها.



كان أحمد عبد العزيز أحد الذين استجابوا لدعوة الجهاد، فقام بتنظيم المتطوعين وتدريبهم وإعدادهم للقتال في معسكر الهايكستب، وقد وجهت له الدولة إنذارًا يخيره بين الاستمرار في الجيش أو مواصلة العمل التطوعي، فما كان منه إلا أن طلب بنفسه إحالته إلى الاستيداع وكان برتبة القائمقام (عقيد).

بعد أن جمع ما أمكنه الحصول عليه من الأسلحة والذخيرة من قيادة الجيش وبعض المتطوعين وبعض الأسلحة من مخلفات الحرب العالمية الثانية بعد محاولة إصلاحها اتجه إلى فلسطين.

دخل الجيش المصري فلسطين عام ١٩٤٨م ودخلت قوات منه إلى مدن الخليل وبيت لحم وبيت صفافا وبيت جالا في ٢٠ مايو ١٩٤٨م، وكانت هذه القوات مكونة من عدد من الجنود ونصف كتيبة من الفدائيين بقيادة أحمد عبد العزيز، وكان يساعده اليوزباشي كمال الدين حسين واليوزباشي عبد العزيز حماد، وكانت هذه القوات مزودة بالأسلحة الخفيفة وعدد من المدافع القوسية ومدافع من عيار رطلين بالإضافة إلى سيارات عادية غير مصفحة.

قبل أن يبدأ البطل الجهاد كان يجهز قواته نفسيًّا فكان يخطب فيهم قائلاً: «أيها المتطوعون: إن حربًا هذه أهدافها لهي الحرب المقدسة، وهي الجهاد الصحيح الذي يفتح أمامنا أبواب الجنة، ويضع على هاماتنا أكاليل المجد والشرف، فلنقاتل العدو بعزيمة المجاهدين، ولنخشَ غضب الله وحكم التاريخ إذا نحن قصرنا في أمانة هذا الجهاد العظيم...».

بدأ أحمد عبد العزيز أول ما وصل إلى بيت لحم باستكشاف الخطوط الدفاعية للعدو، وكانت تمتد من تل بيوت ورمات راحيل في الجهة الشرقية الجنوبية للقدس

بالقرب من قبة راحيل في مدخل بيت لحم الشمالي حتى مستعمرات بيت هكيرم وشخونات هبوعاليم وبيت فيجان ويفنوف ونشر قواته مقابلها.

عندما بدأت قوات الجيش المصري الرسمية تتقدم إلى فلسطين عرضت على أحمد عبد العزيز العمل تحت قيادتها، فتردد في بادئ الأمر لأن عمله مع المتطوعين كان يمنحه حرية عدم التقيد بالأوضاع والأوامر العسكرية ولكنه قَبِلَ في آخر الأمر.

وقد وضع الضابط الأردني عبد الله التل- متمردًا على أوامر قيادته- القواتِ الأردنيةَ في كل المنطقة تحت تصرف أحمد عبد العزيز دون علم قيادة الجيش الأردني؛ لإيمانه بوطنيته وإخلاصه.

كانت مستعمرة رمات راحيل تشكل خطورة نظرًا لموقعها الاستراتيجي الهام على طريق قرية صور باهر وطريق القدس بيت لحم، فقرر أحمد عبد العزيز يوم ٢٤ مايو ١٩٤٨م القيام بهجوم على المستعمرة قاده بمشاركة عدد من الجنود والضباط من قوات الجيش الأردني.

بدأت المدفعية المصرية الهجوم بقصف المستعمرة، زحف بعدها المشاة يتقدمهم حاملو الألغام الذين دمروا أغلب الأهداف المحددة لهم، ولم يجد اليهود إلا منزلاً واحدًا احتمى فيه مستوطنو المستعمرة، وحين انتشر خبر انتصار أحمد عبد العزيز بدأ السكان يفدون إلى منطقة القتال لجني الغنائم، والتفت العدو للمقاتلين، وذهبت جهود أحمد عبد العزيز في إقناع الجنود بمواصلة المعركة واحتلال المستعمرة سدى ووجد نفسه في الميدان وحيدًا إلا من بعض مساعديه، مما أدى إلى تغير نتيجة المعركة بعدما وصلت تعزيزات



لمستعمرة رمات راحيل قامت بعده العصابات الصهيونية بشن هجوم في الليل على أحمد عبد العزيز ومساعديه الذين بقوا، وكان النصر فيه حليف الصهاينة، والمؤرخون يقارنون بين هذا الموقف وموقف الرسول ﷺ حين سارع الرماة إلى الغنائم وخالفوا أوامره في غزوة أحد وتحول النصر إلى الهزيمة.



القائد المصري احمد عبد العزيز يفاوض القائد موشي ديان واقفاً لرفضه الجلوس معه إلي طاولة واحدة

في الوقت الذي استطاعت قوات الفدائيين بقيادة البطل أحمد عبد العزيز تكبيد العصابات الصهيونية خسائر فادحة فقطعت الكثير من خطوط اتصالاتهم وإمداداتهم، وساهمت في الحفاظ على مساحات واسعة من أرض فلسطين قبلت الحكومات العربية الهدنة مما أعطى للصهاينة الفرصة لجمع الذخيرة والأموال وإعادة تنظيم صفوفهم.

قاموا باحتلال قرية العسلوج لقطع مواصلات الجيش المصري في الجهة الشرقية، وكانت قرية العسلوج مستودع الذخيرة الذي يمون المنطقة، وفشلت

محاولات الجيش المصري لاسترداد القرية فاستعانوا بالبطل أحمد عبد العزيز وقواته التي تمكنت من دخول هذه القرية والاستيلاء عليها.

حاول بعدها الصهاينة احتلال مرتفعات جبل المكبر المطل على القدس حيث كان هذا المرتفع أحد حلقات الدفاع التي تتولاها قوات أحمد عبد العزيز المرابطة في قرية صور باهر، ولكن استطاعت قوات أحمد عبد العزيز ردهم وكبدتهم خسائر كثيرة.

كان البطل فخورًا بجنوده وبما أحرزوه من انتصارات رائعة مما جعله يملي إرادته على الصهاينة، ويضطرهم إلى التخلي عن منطقة واسعة مهددًا باحتلالها بالقوة، وبعد هذه البطولات التي سطرها جاءت نهاية هذا البطل.

في ٢٢ أغسطس ١٩٤٨م دُعي أحمد عبد العزيز لحضور اجتماع في دار القنصلية البريطانية بالقدس لبحث خرق الصهاينة للهدنة، وحاول معه الصهاينة أن يتنازل لهم عن بعض المواقع التي في قبضة الفدائيين، لكنه رفض، واتجه في مساء ذلك اليوم إلى غزة حيث مقر قيادة الجيش المصري لينقل إلى قادته ما دار في الاجتماع.

كانت منطقة عراق المنشية مستهدفة من اليهود، فكانت ترابط بها كتيبة عسكرية لديها أوامر بضرب كل عربة تمر في ظلام الليل، وعندما كان أحمد عبد العزيز في طريقه إليها بصحبة اليوزباشى صلاح سالم اشتبه بها أحد الحراس وظنها من سيارات العدو، فأطلق عليها الرصاص، فأصابت إحداها أحمد عبد العزيز فاستُشهد في الحال.

توجد مقبرة البطل أحمد عبد العزيز في قبة راحيل شمال بيت لحم، وله

هناك نصب تذكاري شامخ، وقد أحاطته مؤخرًا سلطات الاحتلال الإسرائيلي بسياج من الأسلاك الشائكة والأسوار العالية التي بها فتحات مراقبة لبنائها كنيسًا يهوديًا بالقرب منه، كما أطلقت رصاصة على شاهد قبره من قبل قوات الاحتلال ولكنها لم تكسره.

وقد سُمي أحد أهم وأرقى الشوارع بمصر على اسمه (شارع البطل أحمد عبد العزيز) تخليدًا لذكرى هذا البطل العظيم، ويوجد هذا الشارع بمنطقة المهندسين بالقاهرة»ا.هـ.

ومن أبطال مصر الفريق سعد الدين الشاذلي الذي توفي سنة ١٤٣٢/ ٢٠١١، وقد كان أسد حرب رمضان سنة ١٣٩٣/ أكتوبر ١٩٧٣ وقد غمطه السادات ثم مبارك حقه، وشرداه في الأرض، وأخملا ذكره، وتنكرا لجهده وعمله، ولم يكن يُذكر في الإعلام المصري أبدًا حتى توفي، وبعد الثورة المصرية بدأ الإعلام ينصفه، ويبين جزءًا من حقه، وأرجو أن يعوضه الله -تعالى خيرًا- في آخرته.

***



٦ عباد مصر وزهادها وأولياؤها

قد كان في مصر جملة وافرة من العباد والزهاد والأولياء الذين كانوا بعيدين عن الشطح والبدع، وضربوا أعظم الأمثلة في العبادة والزهد والولاية، فكان منهم :

سليم بن عِتْر التجيبي المصري قاضي مصر وناسكها، وهو من كبار التابعين، حضر خطبة الفاروق عمر بالجابية وحدّث عنه وعن صحابة آخرين، وسُميَ الناسك لكثرة فضله وشدة عبادته، وكان كثير الختم للقرآن، وهو أول قاص -أي واعظ- بمصر، توفي سنة ٧٥، رحمه الله تعالى[١].

ومنهم حَيْوة بن شُريح التُجِيبيّ، أبو زُرْعَةَ المصريّ المتوفى سنة ١٥٨، رحمه الله تعالى، وهو فقيه زاهد عابد، أحد سادة العباد والزهاد، قال عبدالله بن المبارك : ما وُصف لي أحد ورأيته إلا كانت رؤيته دون صفته إلا حَيوة بن شريح فإن رؤيته كانت أكبر من صفته[٢].

وذو النون المصري ثوبان بن إبراهيم المتوفى سنة ٢٤٥ - رحمه الله تعالى - الذي بهر المتوكل على الله الخليفة العباسي وأبكاه فرده مكرمًا إلى مصر بعد أن حُمل إليه متهمًا بالزندقة، وكان المتوكل بعد ذلك يقول: إذا ذُكر الصالحون فحيّ

---

(١) انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٤/ ١٣١ وما بعدها.

(٢) انظر ترجمته في المصدر السابق: ٦/ ٤٠٤ وما بعدها.

هلا بذي النون، وقد ورد عنه أقوال وأحوال لطيفة بعيدة عن الشطح الذي ابتلي به كثير من العباد بعد ذلك، فمما ورد عنه رحمه الله تعالى أنه كان يقول: الاستغفار جامع لمعانٍ:

أولها: الندم على ما مضى.

الثاني: العزم على الترك.

الثالث: أداء ما ضيعت من فرض الله.

الرابع: رد المظالم في الأموال والأعراض والمصالحة عليها.

الخامس: إذابة كل لحم ودم نبت على الحرام.

السادس: إذاقة ألم الطاعة كما وجدت حلاوة المعصية.

وكان في زورق فمر به زورق آخر، فقيل لذي النون: إن هؤلاء يمرون إلى السلطان يشهدون عليك بالكفر، فقال: اللهم إن كانوا كاذبين فغَرِّقهم، فانقلب الزورق وغرقوا، فقيل له: فما بال الملاح؟ قال: لم حملهم وهو يعلم قصدهم؟ ولأن يقفوا بين يدي الله غرقى خير لهم من أن يقفوا شهود زور، ثم انتفض وتغير وقال: وعزتك لا أدعو على أحد بعدها.

وقيل لذي النون: كيف خلصت من المتوكل وقد أمر بقتلك؟

قال: لما أوصلني الغلام قلت في نفسي: يا من ليس في البحار قطرات، ولا في دَيْلَج الرياح ديلجات -يعني والله أعلم دورة الرياح- ولا في الأرض خبيئات، ولا في القلوب خطرات إلا وهي عليك دليلات، ولك شاهدات، وبربوبيتك معترفات، وفي قدرتك متحيرات، فبالقدرة التي تجير بها مَن في

الأرضين والسماوات إلا صليت على محمد وعلى آل محمد وأخذت قلبه عني، فقام المتوكل يخطو حتى اعتنقني ثم قال: أتعبناك يا أبا الفيض[١].

ومنهم أبوبكر بن الحداد المصري الإمام الجليل الفقيه، كان كثير التعبد، يصوم يومًا ويفطر يومًا، ويختم في كل يوم وليلة ختمة، وقد روى عن مالك والليث وابن لهيعة والفضيل بن عياض وسفيان بن عيينة[٢].

ومنهم بُنان الحمال الزاهد، المتوفى سنة ٣١٦ -رحمه الله تعالى- الذي أنكر على واحد من وجهاء أهل الذمة ركوبه الخيل في مصر، وأمره بالنـزول وركوب الحمار، كما أُخذ عليهم في عهد الذمة، فبلغ الأمرَ خُمارويه بن أحمد بن طولون حاكم مصر فجوّع أسدًا وأُلقي بنان بين يدي الأسد فكان يشمه ولا يؤذيه فرُفع من بين يديه وزاد تعظيم الناس له، فقيل له: كيف كان حالك وأنت بين يدي الأسد؟ فقال: لم يكن عليّ بأس ولكن كنت أفكر في سؤر السباع أهو طاهر أم نجس؟!

ومن كلامه: ذكر الله باللسان يورث الدرجات، وذكر الله بالقلب يورث القربات، وكان يُضرب بعبادته المثل.

وجاء إليه رجل يشكو ضياع وثيقة له على رجل دينًا بمائة دينار مصرية -وهي مبلغ ضخم آنذاك- وخاف أن ينكر الرجل الدين وطلب منه الدعاء فقال له: أنا رجل قد كبرت وأنا أحب الحلوى فاذهب فاشترِ لي رطلاً، وائتني به حتى أدعو لك، فذهب الرجل وعاد بالحلوى وقد لُفّت بورقة فإذا هي وثيقته الضائعة!!

---

(١) انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ١١/ ٥٣٢ وما بعدها.

(٢) انظر ترجمته في «حسن المحاضرة»: ١/ ٣١٣ وما بعدها.

فأخبر الشيخ بذلك فقال: خذ الحلوى وأطعمها صبيانك!!

ولما توفي خرج أكثر أهل مصر في جنازته، وكانت شيئًا عجبًا، رحمه الله تعالى[(١)].

ومنهم أحمد بن نصر الدقاق، من أقران الجنيد، وكان من كلامه: مَن لم يصحبه التقى في زهده أكل الحرام المحض.

وقال: كنت مارًّا في تيه بني إسرائيل فخطر ببالي أن علم الحقيقة مباين لعلم الشريعة، فهتف بي هاتف من تحت شجرة: كل حقيقة لا تتبع الشريعة فهي كفر، وهذا الذي ذكره يُعد قاعدة مهمة في علم الزهد والرقائق غفل عنها أهل الشطح والبدع فيما بعد[(٢)].

ومنهم أبو الحسن علي بن محمد بن سهل الدينوري الصائغ الزاهد المتوفى سنة ٣٣١، رحمه الله تعالى، قال الذهبي: أحد المشايخ الكبار، وقال ابن كثير: ومن كراماته أنه رُئي يصلي بالصحراء في شدة الحر، ونسر قد نشر جناحيه يظله من الحر[(٣)]!!

وأنكر مرة على تكين أمير مصر شيئًا -وكان ظالمًا- فأخرجه إلى بيت المقدس، فلما وصل القدس قال :كأني بالبائس، يعني تكين، وقد جيء به في تابوت إلى هنا، فإذا أُدني من الباب عثر البغل ووقع التابوت، فبال عليه البغل، فبعد مدة يسير حصل هذا الذي أخبر به الشيخ بحذافيره!! ثم ركب عائدًا إلى

---

(١) انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ١٤/ ٤٨٨ وما بعدها.
(٢) انظر ترجمته في المصدر السابق: ١/ ٥١٢.
(٣) انظر ترجمته في المصدر السابق: ١/ ٥١٣ وما بعدها.

مصر، وهذا الذي جرى على الشيخ هو من جملة الكرامات التي تحصل لأولياء الله -تعالى- ويصدقها أهل السنة والجماعة بشرط ثبوتها.

ومنهم أبو علي الحسن بن أحمد الكاتب المصري المتوفى سنة ٣٤٣،رحمه الله تعالى،وكان من كبار المصريين، وكان أوحد مشايخ زمانه، ومن كلامه: إذا انقطع العبد إلى الله بكُليته أول ما يفيده الله الاستغناء به عن الناس[(١)].

وقال: إذا سكن الخوف في القلب لم ينطق اللسان بما لا يعنيه.

- ومنهم أبو محمد محمد بن أحمد بن سهل الرملي الفايلي، كان عابدًا صالحًا زاهدًا، قوالاً بالحق، قال: لو كان معي عشرة أسهم رميت الروم بسهم ورميت بني عبيد بتسعة، فبلغ ذلك صاحب مصر المعز فجاء به فسأله فقال: لا، بل أرميهم بالعشرة كلها، فقتله سنة (٣٦٣) قِتْلة شنيعة، رحمه الله تعالى ورضي عنه[(٢)].

ومنهم سند بن عنان الأزدي، توفي بالإسكندرية سنة ٥٤١، كان من زهاد العلماء والفقهاء، ومن كبار الصالحين، رُئي في النوم فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: عُرضت على ربي فقال لي: أهلاً بالنفس الطاهرة الزكية العالمة[(٣)].

ومنهم أبو القاسم بن منصور المالكي الإسكندري المعروف بالقُبّاري (ت ٦٦٢)، باع دابة لرجل، فأقامت أيامًا لم تأكل عنده شيئًا، فجاء إليه وأخبره، فقال له الشيخ: ما صنعتك؟ قال: رقاص عند الوالي، فقال: إن دابتنا لا تأكل

---

(١) انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ١/ ٥١٤ وما بعدها.

(٢) انظر ترجمته في المصدر السابق: ١٦/ ١٢٨ وما بعدها.

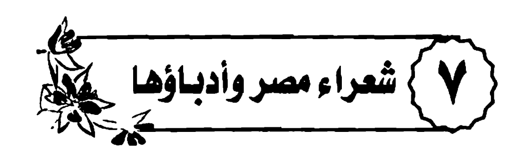
(٣) انظر ترجمته في المصدر السابق: ١/ ٤٥٢.

الحرام!!! ثم رد إليه دراهمه، الله أكبر، دوابه لا تأكل الحرام فكيف لو رأى زماننا هذا[1]؟!

كان أولئك بعض أولياء مصر البعيدين عن البدع والشطح، ممن تمكنت من الوقوف على سيرهم مكتوبة منشورة، وأنا واثق أن مَن أوردتهم هم قطرة من بحر ، وغيض من فيض، لكن حسبي مثالاً مَن أوردتهم، والله أعلم.

* * *

(١) انظر ترجمته في «حسن المحاضرة»:١/ ٥٢٠.



قد كان بمصر جماعة كثيرة جدًّا من الأدباء والكتاب والشعراء، وقد كان لبعضهم آثار إسلامية جليلة، وعلى رأس أولئك القاضي الفاضل وزير صلاح الدين وأحد الأسباب الكبرى في تثبيته في معاركه، كما سيأتي إن شاء الله تعالى:

ومن هؤلاء الشعراء والكتاب والأدباء:

١- **جميل العُذْري المشهور بجميل بثينة**، أحد عشاق العرب، وإليه ينسب العشق العُذْريّ، وهو شاعر إسلامي من أفصح شعراء زمانه، قدم مصر على عبدالعزيز بن مروان -والد الخليفة الراشدي عمر ﷺ- فأكرمه، ومات بمصر سنة ١٢٠، رحمه الله تعالى[(١)].

٢- **كُثيِّر بن عبد الرحمن الخزاعي المشهور بكُثيِّر عزة**، وكانت معشوقته، توفي قرابة سنة ١٦٠، أقام بمصر مدة يمدح عبدالعزيز بن مروان، والد الخليفة الراشدي عمر بن عبدالعزيز ﷺ، وزار قبر عزة بمصر، ولما ماتت عزة ضعف شعره، فقيل له: ما بال شعرك قد قصرت فيه؟ فقال: ماتت عزة فلا أطرب، وذهب الشباب فلا أعجب، ومات عبدالعزيز بن مروان فلا أرغب، وإنما الشعر عن هذه الخلال[(٢)].

---

(١) انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء» :٤/ ١٨١ وما بعدها.

(٢) انظر ترجمته في المصدر السابق: ٥/ ١٥٢ وما بعدها.

٣- نَصيب بن رباح، من شعراء الحماسة، توفي بمصر سنة ١٨٠[(١)].

٤- أبو نواس الحسن بن هانئ، أبو علي الحكميّ، وهو شاعر بغدادي مشهور بالمجون، وأقام بمصر مدة، وتوفي سنة ١٩٩ رحمه الله تعالى[(٢)]، وقد رآه بعض أصحابه في المنام فقال له: ما فعل الله بك ؟ فقال: غفر لي بأبيات قلتها في النرجس:

تفكر في نبات الأرض وانظر ... إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لُجَيْنٍ شاخصات ... بأبصار هي الذهب السبيك
على قُضُب الزبرجد شاهدات ... بأن الله ليس له شريك

وفي رواية عنه أنه قال: غفر لي بأبيات قلتها وهي تحت وسادتي، فجاءوا فوجدوها برقعة في خطه:

يا رب إن عظمت ذنوبي كثرة ... فلقد علمت بأن عفوك أعظمُ
أدعوك ربي كما أمرت تضرعًا ... فإذا رددت يدي فمن ذا يرحمُ
إن كان لا يرجوك إلا محسن ... فبمن يلوذ ويستجير المجرمُ
مالي إليك وسيلةٌ إلا الرجا ... وجميل عفوك ثم إني مسلم

٥- أبو تمام حبيب بن أوس الطائي، وهو شامي لكنه كان في حداثته في مصر يسقي الماء في المسجد الجامع ثم شاع ذكره وجاد شعره وسار، وبلغ خبره المعتصم فحمل إلى بغداد، وتوفي سنة ٢٣١، رحمه الله تعالى، وهو القائل:

---

(١) انظر ترجمته في المصدر السابق: ٥/ ٢٦٦ وما بعدها.
(٢) انظر ترجمته في المصدر السابق: ٩/ ٢٧٩ وما بعدها.

السيف أصدق أنباء من الكتب   في حده الحد بين الجد واللعب[1]

٦- ابن طباطبا، الشريف الحسني المصريّ، عبدالله بن أحمد ابن علي نقيب الطالبيين، توفي سنة ٣٤٥[2].

٧- المتنبي أحمد بن الحسين، وقد أقام في مصر عند كافور أربع سنين يمدحه، وله شعر بلغ الغاية في الرقة والروعة والجمال، توفي مقتولاً سنة ٣٥٤[3].

٨- القاضي الفاضل عبدالرحيم بن علي اللخمي البَيْساني ثم العسقلاني ثم المصري، الوزير الكبير وزير صلاح الدين الأيوبي، رحمهما الله تعالى.

له آثار حميدة وأفعال جميلة رائعة، توفي سنة ٥٩٠ ودفن بالقرافة، وهو من كبار أدباء العربية، وله نثر رائع وشعر كثير، ونثره أجود من شعره، لكن أحسن أعماله على الإطلاق مساندته لصلاح الدين وتثبيته له في رسائلَ جليلةٍ جدًّا، حتى قال صلاح الدين لقواده: لا تظنوا أني فتحت البلاد بسيفي لكن بقلم القاضي الفاضل، ومن تلك الرسائل قوله لصلاح الدين لما حاصر عكا ثلاث سنين متصلة في أحوالٍ عصيبة وقوارع مخيفة فاستبطأ النصر:

«إنما أُتينا من قِبَل أنفسنا، ولو صَدَقْناه لعَجّل لنا عواقب صدقنا، ولو أطعناه لما عاقبنا بعدونا، ولو فعلنا ما نقدر عليه من أمره لفعل لنا ما لا نقدر عليه إلا به، فلا يستخصم أحد إلا عمله، ولا يلم إلا نفسه، ولا يرجُ إلا ربه،

---

(١) انظر ترجمته في المصدر السابق: ١١/ ٦٣ وما بعدها.

(٢) انظر ترجمته في المصدر السابق: ١٥/ ٤٩٦ وما بعدها.

(٣) انظر ترجمته في المصدر السابق: ١٦/ ١٩٩ وما بعدها.

ولا تنتظر العساكر أن تكثر، ولا الأموال أن تحضر، ولا فلان الذي يُعتقد عليه أن يقاتل، ولا فلان الذين يُنتظر أنه يسير، فكل هذه مشاغل عن الله ليس النصر بها ولا نأمن أن يكلنا الله إليها، والنصر به، واللطف منه، والعادة الجميلة له، ونستغفر الله -سبحانه- من ذنوبنا فلولا أنها مسد طريق دعائنا لكان جواب دعائنا قد نزل، وفيض دموع الخاشعين قد غسل، ولكن في الطريق عائق، خار الله لمولانا في القضاء السابق واللاحق»[1].

الله أكبر، ما أحسن هذا الكلام!

ومن كتاب آخر:

«وعسكرنا لا يشكو -والحمد لله- منه خَوَرًا، وإنما يشكو منه ضجرًا، والقوى البشرية لا بد أن يكون لها حدّ، والأقدار الإلهية لها قصد، وكل ذي قصد خادم قصدها، وواقف عند حدها، وإنما ذكر المملوك هذا ليرفع المولى من خاطره مقت المتقاعس من رجاله، كما يثبت في شكر المسارع من أبطاله، قال الله تعالى: ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

يا مولانا: أليس الله -تعالى- اطَّلع على قلوب أهل الأرض فلم يؤهل ولم يستصلح ولم يختر ولم يُسهل ولم يستعمل ولم يستخدم في إقامة دينه وإعلاء كلمته وتمهيد سلطانه وحماية شعاره وحفظ قبلة موحديه إلا أنت، هذا وفي الأرض مَن هو للنبوة قرابة، ومَن له المملكة وراثة، ومن له في المال كثرة، ومن له في العدد ثروة، فأقعدهم وأقامك، وكسَّلهم ونشَّطك، وقبضهم وبسطك،

---

(١) مختصر «كتاب الروضتين في أخبار الدولتين» لأبي شامة المقدسي: ٣١٧.

وحبب الدنيا إليهم وبغَّضها إليك، وصعبها عليهم وهونها عليك، وأمسك أيديهم وأطلق يدك، وأغمد سيوفهم وجرّد سيفك، وأشقاهم وأنعم عليك، وثبطهم وسَيّرك:

﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ﴾ [التوبة: ٤٦].

نعم وأخرى أهم من الأولى أنه لما اجتمعت كلمة الكفر من أقطار الأرض وأطراف الدنيا ما تأخر منهم متأخر، ولا استبعد المسافة بينك وبينهم مستبعد، وخرجوا من ذات أنفسهم الخبيثة لا أموالَ تنفق فيهم، ولا ملوك تحكم عليهم، ولا عصا تسوقهم، ولا سيف يزعجهم، مُهطعين إلى الداعي، ساعين في أثر الساعي، وهم من كل حدب ينسلون، ومن كل بر وبحر يقبلون، كنت يا مولانا -كما قيل- أبقاك الله:

ولستَ بملك هازمٍ لنظيره ولكنك الإسلام للشرك هازم

هذا وليس لك من المسلمين كافة مساعدة إلا بدعوة، ولا مجاهد معك إلا بلسانه، ولا خارج معك إلا بهمّ، ولا خارج بين يديك إلا بالأجرة، ولا قانع منك إلا بزيادة، تشتري منهم الخطوات شبرًا بذراع، وذراعًا بباع، تدعوهم إلى الله وكأنما تدعوهم إلى نفسك، وتسألهم الفريضة كأنك تكلفهم النافلة، وتعرض عليهم الجنة وكأنك تريد أن تستأثر بها دونهم.

والآراء تختلف بحضرتك، والمشورات تتنوع بمجلسك، فقائل: لم لا نتباعد عن المنزلة، وآخر: لم لا نميل إلى المصالحة، ومتندم على فائت ما كان فيه



حظ، ومشير بمستقبل ما يلوح فيه رشد، ومشير بالتخلي عن عكا حتى كأن تركها تغليق المعاملة[١]، وما كأنها طليعة الجيش ولا خَرَزة السلك إن وهت تداعى السلك، فألهمك الله قتل الكافر، وخلاف المخذّل، والتجلد وتحت قدمك الجمر، وأفرشك الطمأنينة وتحت جنبك الوعر:

ولكـن مولانـا صـفيحة وجهـه كضـوء شـهاب القـابس المتنـور

قليـل التشـكي للمهـم نصـيبه كثير الهوى شتى النـوى والمسـالك

لا شبهة أن المملوك قد أطال، ولكن قد اتسع المجال، وما مراده إلا أن يشكر الله على ما اختاره له ويسره عليه، وحببه إليه، فرب ممتحن بنعمة، ورب منعم عليه بمشقة، وكم مغبوط بنعمة هي داؤه، ومرحوم من بلوى هي دواؤه، ويريد المملوك بهذا أن لا يتغير لمولانا -أبقاه الله- وجه عن بشاشة، ولا صدر عن سعة، ولا لسان عن حسنة، ولا تُرى منه ضجرة، ولا تُسمع منه نَهْرَة، فالشدة تذهب ويبقى ذكرها، والأزمة تنفرج ويبقى أجرها، وكما لم يُحدث استمرار النعم لمولانا -عز نصره- بطرًا فلا تُحدث له ساعات الامتحان ضجرًا، والمملوك يستحسن بيتي حاتم، ومولانا -أبقاه الله وخلد سلطانه وملكه- يحفظهما:

شربنا بكأس الفقر يومًا وبالغنى وما منهما إلا سـقانا بـه الـدهر

فما زادنـا بغيًـا علـى ذي قرابـة غنانا ولا أزرى بأحسـابنا الفقـر

والمملوك بأن يسمع أن مولانا -عز نصره- على ما يعهده من سعة صدره

---

(١) أي نهاية الجهاد مع الكفار.

أسرُّ منه بما يسمعه من بشائر نصره، ويا ليتني كنت معهم، وماذا كانت تصنع الأيام إما شيئًا من مشاهدة الحروب، فقد شبنا والله من سماع الأخبار، أو غُرمًا يمكن خُلفه من الوفْر[1] فقد غرمنا في بعد مولانا ما لا خُلف له من العمر، أو مرض جسم فخيره ما كان الطبيب حاضره، ولقد مرضنا أشدَّ المرض لفراقه إلا أن التجلد ساتره»[2].

ومن كتاب آخر:

«قيل للمهلب[3]: أيسُرُّكَ ظفر ليس فيه تعب؟ فقال: أكره عادة العجز.

ولا بد أن تنفذ مشيئة الله في خلقه، لا رادّ لحكمه، فلا يتسخط مولانا بشيء من قدره، فلأن يجري القضاء وهو راضٍ مأجور خير من أن يجري وهو ساخطٌ موزور، من شكا بثه وحزنه إلى الله شكا إلى مشتكى واستغاث بقادر، ومن دعا ربه خفيًا استجاب له استجابة ظاهرة، فلتكن شكوى مولانا إلى الله خفية عنا، ولا يقطع الظهور التي لا تشتدّ إلا به، ولا يُضيق صدورًا لا تنفرج إلا منه، وما شَرّد الكرى[4]، وأطال على الأفكار ليل السُّرى[5] إلا ضائقة القوت بعكا، ولم يبقَ إلا ضَعْفٌ نعم المعين عليه ترويح النفس وإعفاؤها من الفكر، فقد علم مولانا بالمباشرة أنه لا يُدَبِّرُ الدهر إلا برب الدهر، ولا ينفذ

---

(١) أي كثرة المال.

(٢) مختصر «كتاب الروضتين في أخبار الدولتين» لأبي شامة المقدسي: ٣١٧-٣٢٠.

(٣) هو المهلب بن أبي صفرة القائد المعروف، انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٤/ ٣٨٣ وما بعدها.

(٤) أي النعاس والنوم: وانظر «لسان العرب»: كرا.

(٥) السُّرى: سير عامة الليل: وانظر «لسان العرب»: سرى.

الأمر إلا بصاحب الأمر، وأنه لا يقلّ الهم إن كثر الفكر:

قد قلـت للرجـل المقسّـم أمـرُه فوض إليه تـنم قريـر العـين

وكل مقترح يجاب إليه إلا ثغرًا يصير نصرانيًّا بعد أن أسلم، أو بلدًا يخرس فيه المنبر بعد أن تكلم، يا مولانا: هذه الليالي التي رابطت فيها والناس كارهون، وسهرت فيها والعيون هاجعة، وهذه الأيام التي ينادى فيها: ياخيل الله اركبي، وهذه الساعات التي تزرع الشيب في الرءوس، هي نعمة الله عليك، وغراسك في الجنة: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ [آل عمران: ٣٠] وهي مجوِّزاتك على الصراط، وهي مثقلات الميزان، وهي درجات الرضوان، فاشكر الله عليها كما تشكره على الفتوحات الجليلة، واعلم أن مثوبة الصبر فوق مثوبة الشكر.

من ربط جأش أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ قوله: «لو كان الصبر والشكر بعيرين ما باليت أيها ركبت»، وبهذه العزائم سبقونا وتركونا لا نطمع في اللحاق بالغبار، وامتدت خطاهم ونعوذ بالله من العِثار، ما استعمل الله في القيام بالحق إلا خير الخلق، وقد عُرف ما جرى في سير الأوّلين، وفي أنباء النبيين، وأن الله -تعالى- حرض نبيه ﷺ على أن يهتدي بهداهم، ويسلك سبيلهم، ويقتدي بأولي العزم منهم.

وما ابتلى الله -سبحانه- من عباده إلا مَن يعلم أنه يصبر، وأمور الدنيا ينسخ بعضها بعضًا وكأن ما قد كان لم يكن، ويذهب التعب ويبقى الأجر، وإنما يقظات العين كالحلم، وأهم الوصايا أن لا يحمل المولى همًا يضعف به جسمه، ويضر مزاجه، والأمة بنيان وهو -أبقاه الله تعالى- قاعدته، والله يثبت تلك القاعدة القائمة في نصرة الحق.

ومما يستحسن من وصايا الفرس: «إن نزل بك ما فيه حيلة فلا تعجز، وإن نزل بك ما ليس لك فيه حيلة -والعياذ بالله- فلا تجزع»، ورب واقع في أمر لو اشتغل عن حمل الهم به بالتدبير فيه مع مقدور الله لا نصرف همه، وما تشاءون إلا أن يشاء الله.

هذا سلطان هو بحول الله أوثق منه بسلطانه، قاتلت الملوك بطمعها وقاتل هذا بإيمانه، وإذا نظر الله إلى قلب مولانا فلم يجد فيه ثقة بغيره، ولا تعويلاً على قوة إلا على قوته فهنالك الفرج ميعاده، واللطف ميقاته، فلا يقنط من روح الله، ولا يقل متى نصر الله، وليصبر فإنما خلق للصبر، بل ليشكر فالشكر في موضع الصبر أعلى درجات الشكر، وليقل لمن ابتلى: أنت المعافي، وليرضَ عن الله -سبحانه- فإن الراضي عن الله هو المُسَلِّم الراضي»[١].

وكتب السلطان إلى القاضي الفاضل كتابًا من بلاد الفرنج يخبره عما لاح له من أمارات النصر ويقول: ما أخاف إلا من ذنوبنا أن يأخذنا الله بها، فكتب إليه الفاضل: «فأما قول المولى: إننا نخاف أن نؤخذ بذنوبنا، فالذنوب كانت مثبتة قبل هذا المقام وفيه محيت، والآثام كانت مكتوبة ثم عُفِي عنها بهذه الساعات وعَفِيَتْ[٢]، فيكفي مستغفرًا لسانُ السيف الأحمر في الجهاد، ويكفي قارعًا لأبواب الجنة صوتُ مقارعة الأضداد، ولعين الله موقفك، وفي سبيل الله مقامك ومنصرفك، وطوبى لقدم سعت في منهاجك، وطوبى لنفس بين يديك قتلت وقُتلت، وإن الخواطر تشكر الله فيك وعن شكرها لك قد شُغلت»[٣].

---

(١) مختصر «كتاب الروضتين في أخبار الدولتين» لأبي شامة المقدسي: ٣٢٠-٣٢٢.
(٢) أي تلاشت ومُحيت.
(٣) مختصر «كتاب الروضتين في أخبار الدولتين» لأبي شامة المقدسي: ٣٢٢.
وانظر ترجمة القاضي الفاضل في «سير أعلام النبلاء»: ٢١/ ٣٣٨ وما بعدها.

الله أكبر ما أجمل هذا الكلام وما أحسنه! وليت الأدباء كلهم يكتبون كما يكتب القاضي الفاضل، لكننا بلينا اليوم بأدباء الحداثة الذين يدور كلامهم على الكفر أو الضلال، أو المِلال وعدم الفهم وتضييع الزمان بالترهات والأوهام.

وقد ذكر ابن حِجّة[1] القاضي الفاضل فقال:

«كان نظم القاضي الفاضل -رحمه الله- ونثره كفرسي رهان، ولكن نثر أكثر مما نظم، وأجمع الناس أنه أتى مع الإكثار بالعجائب، وذكر قاضي القضاة شمس الدين بن خلكان في تاريخه أن مسودات رسائله إذا جمعت ما تقصر عن مائة مجلد... ولعمري إن الإنشاء الذي صدر في الأيام الأموية والأيام العباسية نُسي وأُلغي بإنشاء الفاضل وما اخترعه من النكت الأدبية والمعاني المخترعة والأنواع البديعة، والذي يؤيد قولي قول العماد الكاتب في «الخريدة» أنه في صناعة الإنشاء كالشريعة المحمدية نسخت الشرائع»[2].

٩- ابن سناء المُلك الشاعر المشهور هبة الله بن جعفر بن محمد، درس الحديث والنحو، وكان شاعرًا بارعًا، توفي سنة ٦٥٨، رحمه الله تعالى[3].

١٠- البوصيري صاحب البردة في مدح النبي الأعظم ﷺ الشاعر المشهور، وله شعر عجيب جليل، توفي سنة ٦٩٥، رحمه الله تعالى[4].

١١- شهاب الدين أحمد بن محيى الدين بن فضل الله الأديب البليغ،

---

(١) هو أبوبكر بن علي الحموي نزيل القاهرة، أديب له مصنفات. توفي سنة ٨٣٧، رحمه الله تعالى. انظر «حسن المحاضرة»: ١/ ٥٧٣.

(٢) «ثمرات الأوراق»: ١٣٣.

(٣) انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٢١/ ٤٨٠ وما بعدها.

(٤) انظر ترجمته في «حسن المحاضرة»: ١/ ٥٧٠.

الناظم، الناثر، صاحب «مسالك الأنظار في ممالك الأمصار» توفي سنة ٧٤٩[(١)].

١٢- ابن نُباتة، محمد بن محمد بن محمد بن محمد الجذامي المصري المشهور صاحب الخطب البليغة المعروفة باسمه، وفاق أهل زمانه في النظم والنثر، توفي بالقاهرة سنة ٧٦٨، رحمه الله تعالى[(٢)].

١٣- شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي، الأديب المصري المشهور، وصاحب الحاشية على كتاب «الشفا في التعريف بحقوق المصطفى» للقاضي عياض، وله شعر رقيق، وقد ولي القضاء في مصر وفي الدولة العثمانية، وتوفي سنة ١٠٦٩، رحمه الله تعالى[(٣)].

هؤلاء هم بعض شعراء مصر وأدبائها وكتابها ولو أردت التوسع لأتيت بشيء مهول لكن حسبي ما ذكرت وفيه زاد وبلاغ، والله أعلم.

* * *

(١) انظر ترجمته في المصدر السابق: ١/ ٥٧١.

(٢) انظر ترجمته في المصدر السابق.

(٣) انظر ترجمته في «الأعلام»: ١/ ٢٣٨.



٨ علماء الطبيعة والحكماء والفلاسفة

قد كان بمصر جماعة من علماء العلم الطبيعي وعلوم الحكمة والطب والفلسفة، وكان لهم باع كبير في تأسيس الحضارة الإسلامية، فمن هؤلاء:

١) **أبو الحسن علي بن الإمام الحافظ أبي سعيد بن يونس** صاحب تاريخ مصر، وكان ولده -كما قال ابن كثير- منجمًا، شديد الاعتناء بعلم الفلك، مرجعًا في آلات هذا الفن ومنه ما يسمى بـ «الزيج الحاكمي»، توفي سنة ٣٩٩ رحمه الله تعالى[١].

٢) **أبو الصلت أمية بن عبدالعزيز بن أبي الصلت الداني**، قال الذهبي: كان رأسًا في معرفة الهيئة -أي الفلك- والنجوم والموسيقى والطبيعي والرياضي والإلهي، كثير التصانيف، بديع النظم، توفي سنة ٥٢٨، رحمه الله تعالى[٢].

٣) **شرف الدين عبدالله بن علي، الشيخ السديد**، شيخ الطب بالديار المصرية، توفي سنة ٥٩٢ رحمه الله تعالى[٣].

٤) **القطب المصري، أبو إسحاق إبراهيم بن علي السلميّ**، سافر إلى

(١) انظر ترجمته في «حسن المحاضرة»: ١/ ٥٣٩.
(٢) انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ١٩/ ٦٣٤ وما بعدها.
(٣) انظر ترجمته في «حسن المحاضرة»: ١/ ٥٤٠.

المشرق وأخذ عن الرازي وكان من أشهر تلامذته، وألف كتبًا كثيرة في الطب والحكمة منها شرح كليات القانون لابن سينا، وقد قتله التتار بنيسابور لما استولوا عليها سنة ٦١٨ رحمه الله تعالى[(١)].

٥) **أفضل الدين الخونجي محمد بن ناماوار بن عبدالملك الفيلسوف**، برع في علوم الأوائل حتى صار متفردًا فيها وشرح مقالة ابن سينا، وله كتب عديدة، وولي قضاء الديار المصرية بعد عزل سلطان العلماء العز بن عبدالسلام، رحمه الله تعالى، ومن اللطائف أن الإمام السيوطي قال في ذلك: «فاعتبروا يا أولي الأبصار، يُعزل شيخ الإسلام وإمام الأئمة شرقًا وغربًا ويُولى عوضه رجل فلسفي، الدهر يأتي بالعجائب».

توفي سنة ٦٤٩ رحمه الله تعالى[(٢)].

٦) **ابن البيطار المالقيّ، عبدالله بن أحمد، الطبيب البارع**، انتهت إليه معرفة أنواع النبات وصفاته وأماكنه ومنافعه، بل يعد أعظم عالم نبات ظهر في القرون الوسطى، وذكر في كتبه ٣٠٠ نوع من النباتات لم يعرفها طبيب قبله، وهو صاحب كتاب «الجامع في الأدوية المفردة» وهو كتاب ليس له نظير ألّفه على طريقة بديعة عجيبة، استقر في مصر، وخدم الملك الأيوبي الكامل الذي عينه رئيسًا على سائر العَشّابين، وبعد وفاة الكامل خدم الملك الصالح نجم الدين أيوب توفي بدمشق سنة ٦٤٦، رحمه الله تعالى[(٣)].

---

(١) انظر ترجمته في «حسن المحاضرة»: ١/ ٥٤٠ وما بعدها.
(٢) انظر ترجمته في المصدر السابق: ١/ ٥٤١.
(٣) انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٢٣/ ٢٥٦ وما بعدها.

٧) ابن النفيس، العلامة المشهور علاء الدين علي بن أبي الحزم القرشي، شيخ الطب بالديار المصرية وصاحب الكتب النفيسة منها «الشامل في الصناعات الطبية»، و«شرح تشريح قانون ابن سينا» و«شرح الأدوية المركبة» وقد ترجم إلى اللاتينية وله كتب غير ذلك طبية وشرعية، وكان صاحب ذكاء مُفْرط، وذهن حاذق، مع مشاركة في الفقه والأصول والحديث والعربية والمنطق، وهو مكتشف الدورة الدموية الصغرى التي ينسبها الغرب زورًا وبهتانًا لهارفي، وأحد رواد علم وظائف الأعضاء في الإنسان، حيث وضع نظريات يعتمد عليها العلماء إلى الآن، ويعده الكثيرون أعظم أطباء العصور الوسطى.

عمل في المستشفى الناصري ثم المستشفى المنصوري الذي أنشأه السلطان قلاوون وكان رئيس الأطباء فيه، ثم أصبح الطبيب الخاص للسلطان الظاهر بيبرس.

توفي في القاهرة سنة ٦٨٧، وعندما حضرته الوفاة -وكان من أبناء الثمانين- مرض ستة أيام مرضًا شديدًا فحاول الأطباء معالجته بالخمر فقال: لا ألقى الله تعالى وفي جوفي شيء من الخمر، رحمه الله تعالى.

وقد أوقف داره وكتبه وكل ما له على المستشفى المنصوري في القاهرة قائلاً: إن شموع العلم يجب أن تضيء بعد وفاتي.

وقد جاء في موسوعة «ويكيبيديا» وصف جيد لأعماله ومكتشفاته، اصطفيت منه ما يلي:

«عام ١٢٤٢- أي ٦٣٩ هجرية - نشر ابن النفيس أكثر أعماله شهرة، وهو

كتاب «شرح تشريح قانون ابن سينا»، الذي تضمن العديد من الاكتشافات التشريحية الجديدة، وأهمها نظريته حول الدورة الدموية الصغرى وحول الشريان التاجي، وقد اعتبر هذا الكتاب أحد أفضل الكتب العلمية التي شرحت بالتفصيل مواضيع علم التشريح وعلم الأمراض وعلم وظائف الأعضاء، كما صوّب فيه العديد من نظريات ابن سينا.

بعد ذلك بوقت قصير، بدأ العمل على كتابه «الشامل في الصناعة الطبية، الذي نشر منه ٤٣ مجلدًا في عام ١٢٤٤ – أي سنة ٦٤١ هجرية - وعلى مدى العقود التالية، كتب ٣٠٠ مجلد لكنه لم يستطع نشر سوى ٨٠ مجلدًا فقط قبل وفاته، وبعد وفاته حلّ كتابه هذا محل «قانون» ابن سينا موسوعةً طبية شاملة في العصور الوسطى، مما جعل المؤرخين يصفونه بأنه «ابن سينا الثاني».

كان ابن النفيس قبل ذلك قد كتب كتابه «شرح الأدوية المركبة»، تعقيبًا على الجزء الأخير من قانون ابن سينا الخاص بالأدوية، وقد ترجمه «أندريا ألباجو» إلى اللاتينية في عام ١٥٢٠- أي ٩٢٦ هجرية - ونشرت منه نسخة مطبوعة في البندقية في عام ١٥٤٧ – أي ٩٥٤ هجرية - والتي استفاد منها ويليام هارفي في شرحه للدورة الدموية الكبرى.

اتصفت آراء ابن النفيس في الطب بالجرأة، فقد فنّد العديد من نظريات ابن سينا وجالينوس وصوّبها.

فُقد العديد من مؤلفات ابن النفيس عقب سقوط بغداد عام ١٢٥٨ –أي ٦٥٦ هجرية - الذي شهد خسارة وتدمير العديد من الكتب المهمة لكثير من علماء المسلمين.

اكتشافه للدورة الدموية الصغرى:

يعتبر اكتشافه للدورة الدموية الصغرى أحد أهم إنجازاته، حيث قال:

«إن الدم ينقى في الرئتين من أجل استمرار الحياة وإكساب الجسم القدرة على العمل، حيث يخرج الدم من البطين الأيمن إلى الرئتين، حيث يمتزج بالهواء، ثم إلى البطين الأيسر».

كان الرأي السائد في ذلك الوقت، أن الدم يتولد في الكبد ومنه ينتقل إلى البطين الأيمن بالقلب، ثم يسري بعد ذلك في العروق إلى مختلف أعضاء الجسم.

ظل اكتشاف ابن النفيس للدورة الدموية الصغرى (الرئوية) مجهولاً للمعاصرين حتى عثر محيي الدين التطاوي عام ١٩٢٤ - أي ١٣٤٢ هجرية - أثناء دراسته لتاريخ الطب العربي على مخطوط في مكتبة برلين رقمه ٦٢٢٤٣ بعنوان «شرح تشريح القانون»، فعُني بدراسته وأعد حوله رسالة للدكتوراه من جامعة فرايبورج بألمانيا موضوعها «الدورة الدموية عند القرشي»- أي ابن النفيس ، وكان هذا أحد ألقابه - ولجهل أساتذته بالعربية أرسلوا نسخة من الرسالة للمستشرق الألماني مايرهوف (المقيم بالقاهرة وقتها)، فأيد مايرهوف التطاوي، وأبلغ الخبر إلى المؤرخ جورج سارتون الذي نشره في آخر جزء من كتابه «مقدمة إلى تاريخ العلوم».

٨) **أبو العباس شهاب الدين أحمد بن رجب بن طِيْبغا**، المعروف بابن المجدي،وطيبغا كان أحد أمراء المماليك الكبار.وابن المجدي عالم رياضي وفلكي، ولد بالقاهرة سنة ٧٦٧ هـ-١٣٦٦ م.

قال السخاوي في ترجمته: إنه «صار رأس الناس في أنواع الحساب، والهندسة، والهيئة، والفرائض، وعلم الوقت بلا منازع».

وقال السيوطي: «اشتغل، وبرع في الفقه، والنحو، والفرائض، والحساب، والهيئة، والهندسة...».

ترك آثارًا عديدة وُجد بعضها في مكتبات القاهرة وليدن وأكسفورد، وأشهرها: «الدر اليتيم في صناعة التقويم»، «إرشاد الحائر إلى تخطيط فضل الدوائر» في علم الهيئة -أي الفلك- «تعديل القمر»، «تعديل زحل».

وقد حفظ القرآن الكريم ودرس ألفية ابن مالك في النحو، وتفقه على كتاب أبي زكريا يحيى النووي «منهاج الطالبين وعمدة المفتين»، وتفقه على مجموعة من الشيوخ منهم: أبو البقاء الدميري، وجمال الدين محمد بن المارديني، وسراج الدين البُلقيني.

وقد جَدّ ابن المجدي في طلب العلم، وبرع في عدة فنون وعلوم، ووُصف بفرط الذكاء، وبأنه كان رأس الناس في كثير من العلوم وفي مقدمتها: علم الفلك والرياضيات من حساب مثلثات والحساب العددي والهندسة والجداول الرياضية والتقويم والنحو والفقه.

وتخرج على يديه مجموعة من التلاميذ صاروا علماء، ومن أشهرهم: ابن الجيعان أبو زكريا الدمياطي الذي لازم ابن المجدي، وأخذ عنه علوم الرياضيات وتفوق فيها، والمناوي حسن بن على بن محمد البدر وأخذ عنه الحساب والفلك.

وكان ابن المجدي يعيش ملازمًا لداره المجاورة لجامعة الأزهر، وقد استغنى عن الحاجة إلى غيره؛ فقد كان يعيش من عائد أرض وعقارات ورثها عن أبيه وجده، بل إنه كان ينفق من ماله على طلبته الفقراء.

وقد استمر ابن المجدي في طريقة حياته الجميلة إلى أن ودع الدنيا عن عمر بلغ أربعة وثمانين عامًا عام ٨٥٠هـ ١٤٤٧م ودفن بالقاهرة.

وقد أشاد كثير من العلماء بعقلية ابن المجدي وتواضعه.

ومن أهم إنجازات ابن المجدي العلمية أنه أضاف جديدًا في الفلك لمعرفة كيفية التعرف على حال كوكب معين في وقت معين، ومعرفة الظل الواقع في السطح الموازي للأفق في أي وقت معين، ومعرفة الظل الواقع في السطح الموازي لمعدل النهار وسمته، وإخراج الجهات بارتفاع قطب المعدل للنهار، ومعرفة الجهات على أي سطح من الأسطحة القائمة والمائلة والساعات الفلكية، بالإضافة إلى التعرف على ارتفاع الشمس إذا ألقت شعاعها في موضع لا يمكن الوصول إليه، واهتم بدراسة الكواكب في حالاتها المختلفة منها: زحل و القمر.

وقد وضع ابن المجدي مباحث مهمة في عرفة عمق الآبار، وسعة الأنهار، ومسافة ما بين الجبلين، وأيها أقرب للسائر في الطريق.

وقد قاربت مؤلفات ابن المجدي من خمسين كتابًا ورسالة ومقالاً معظمها في الفلك والرياضيات، وهي في معظمها مخطوطات بدور الكتب العربية والأجنبية[1].

---

(١) هذا النقل مأخوذ من شبكة المعلومات.

هذا غيض من فيض من سير أطباء مصر وفلكييها ورياضييها وحكمائها، والله الموفق.

وفي الجملة فإنه على يد مصر وعلمائها قُعِّدت أكثر العلوم والفنون، وضُبطت الصناعات وحُذقت، ولو قُدِّر لها أن ترزق حكامًا صالحين لكانت الآن في مقدمة دول العالم، ألم تبعث اليابان بعثة رسمية أواخر القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي إلى مصر لينظر كيف تقدمت ليتبع خطواتها[١]؟

لكن المصيبة كل المصيبة أن مصر بُليت بحكام سوء فعلوا بها كل قبيحة ونقيصة، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

* * *

(١) وهذا أورده الأستاذ محمد رشيد رضا في مجلة «المنار».



٩ مصر في أقوال العلماء والأدباء

قد كثر الحديث عن فضل مصر من العلماء والأدباء، وبعضه حديث لطيف اصطفيت شيئًا منه وتركت البحر الزاخر، فمن ذلك:

قال ابن الكندي المصري:

«فضل الله مصر على سائر البلدان، كما فضل بعض الناس على بعض، والأيام والليالي بعضها على بعض، والفضل على ضربين: في دين أو دنيا، أو فيهما جميعًا، وقد فضل الله مصر وشهد لها في كتابه؛ بالكرم وعِظم المنزلة، وذكرها باسمها، وخصها دون غيرها، وكرر ذكرها، وأبان فضلها في آيات من القرآن العظيم، تنبئ عن مصر وأحوالها، وأحوال الأنبياء بها، والأمم الخالية، والملوك الماضية، والآيات البينات، يشهد لها بذلك القرآن، وكفى به شهيدًا، ومع ذلك رُوي عن النبي ﷺ في مصر وفي عَجَمها خاصة -أي القبط- وذكره لقرابته ورحمهم، ومباركته عليهم وعلى بلدهم، وحثه على برهم ما لم يُرو عنه في قوم من العجم غيرهم ... مع ما خصها الله به من الخصب والفضل، وما أنزل فيها من البركات، وأخرج منها من الأنبياء والعلماء والحكماء والخواص والملوك والعجائب بما لم يخصص الله به بلدًا غيرها، ولا أرضًا سواها.

فإن ثَرّب علينا مُثرِّب بذكر الحرمين، أو شَنّع مُشنع، فللحرمين فضلهما الذي لا يُدفع، وما خصهما الله به مما لا ينكر، من موضع بيته الحرام، وقبر نبيه

عليه الصلاة والسلام، وليس ما فضلهما الله به بباخسٍ فضلَ مصر، ولا بناقص منزلتها، وإن منافعها في الحرمين لبينة، لأنها تُميرهما بطعامها وخصبها وكسوتها وسائر مرافقها، فلها بذلك فضل كبير، ومع ذلك فإنها تطعم أهل الدنيا ممن يرد إليها من الحاج طول مقامهم يأكلون ويتزودون من طعامها من أقصى جنوب الأرض وشمالها ممن كان من المسلمين في بلاد الهند والأندلس وما بينهما، لا ينكر هذا منكر، ولا يدفعه دافع، وكفى بذلك فضلاً وبركة في دين ودنيا»(١).

وقال ابن ظهيرة المخزومي -رحمه الله تعالى- يمدح القاهرة:

«وأما القاهرة بالخصوص فبلد عظيم الشأن، وكرسي الإمام وبغية الإسلام، والدليل على شرفها وعظمها اتخاذ الملوك لها دارًا، وبيت المال بها قرارًا، وجيوش الإسلام لها استقرارًا، ورحل إليها ونشأ بها واستوطنها العلماء الأعلام، والسادة من أولياء الله الكرام، وأهل الفضائل والصناعات البديعة، والتجار، وسائر أصناف الخلق على اختلاف أجناسهم وأنواعهم قاطنون بها لا يبرحونها، وأما المترددون للتجارة وغيرها فأكثر من أن يحصروا في عصر وزمان، وهي الآن أحق بقول أبي إسحاق الزجاج في بغداد: هي حاضرة الدنيا وما سواها بادية»(٢).

قال صلاح الدين الصفدي:

من شاهد الأرض وأقطارها والناس أنواعًا وأجناسا

---

(١) «فضائل مصر المحروسة»: ٣.
(٢) «الفضائل الباهرة»: ١٨٥.

ولا رأى مصـــر ولا أهلـــها فمـا رأى الـدنيا ولا الناسـا

وقال أيضًا:

رأيت في أرض مصر مذ حللت عجائبا ما رآها الناس في جيل

تسود في عيني الـدنيا فلـم أرهـا تبيض إلا إذا ما كنت في النيل

وقال زين الدين الوردي:

ديار مصر هـي الـدنيا وسـاكنها هـم الأنـام فقابلـها بتقبيـل

يا مـن يبـاهي ببغـداد ودجلتهـا مصر مقدمـة والشـرح للنيـل

وقال شاعر مصر الكبير جمال الدين بن نباتة:

دعـاه لـذكر الحمـى مـذهب وشـوق أقـام فمـا يـذهب

أمصرَ سـقتك غـوادي السـرور وجـادك مـن أُفْقهـا صَـيِّب

ذكرتُ زمانـك حيـث الوصـال وحيـث الصـبا طيـب طيـب

وقد كتب زين الدين الـواعظ الشـامي المقـرب إلى صـلاح الـدين والأثـير لديه -وهو من أهل دمشق ومن ساكني مصر- إلى صلاح الدين أثناء وجـوده بدمشق يشوقه إلى مصر، ويدعوه إلى «نيلها ونعيمها، وسلسبيلها، ودار ملكها، ودارة فُلْكِهـا، وبحرهـا وخليجهـا، ونَشْرهـا وأريجهـا -أي طيـب رائحتهـا- ومقياسها وأنيس ناسها، وقصور معزها، ومنازل عزهـا، وجيزتهـا وجزيرتهـا، وخِيرتهـا وجِيرتهـا، وبِرْكتهـا وبَرَكتهـا، وتعلـق القلـوب بقليوبهـا، واسـتلاب النفوس بأسلوبها، وملتقى البحرين، ومرتقى الهرمين، وروضة جنانهـا، وجنـة رضـوانها، ومسـاجدها وجوامعهـا، ومشـاهدها ومرابعهـا، ونـواظر بسـاتينها

ومناظر ميادينها، وساحات سواحلها وآيات فضائلها، ورحاب شوارعها، وطيب طويتها، ومجرى فلكها ومرساها، وعجائب بناها وغرائب مبناها، وكياسة أخلاقها ونفاسة أعلاتها، وشتاؤها في الفضل ربيع نضير، وغبارها عبير، وماؤها كوثري، وترابها عنبري!!»[١]، ما أحسن هذا الوصف وما أجمله.

وقال شاعر العروبة والإسلام أحمد محرم:

بِرًا بمصر، ومصر أعظم حرمةً	من أن يضيع رجاؤها المنشودُ
إلا يكن مجدٌ أشم وسؤددٌ	فحياة شعبٍ صالحٍ ووجودُ
شدّوا القلوب على الإخاء،	مصرٌ، وإن بلاءها لشديدُ
أنرى الممالك كلّ يومٍ حولنا	تسعى، ونحن على الرجاء قُعودُ؟
الأمرُ مشتَركٌ، ومصرُ لنا معًا	في العالمين منازلٌ ولحودُ
والنيلُ إن حمل القذى وإذا صفا	فهو الحياةُ ووِردُها المورود
زعم العِدَى أنّا نَعُقُّ بلادنا	زعمٌ لعمر الأمّتَيْنِ بعيدُ
من كان يحكم أن نعيش أذلة	بين الشعوب، فحكمه مردود
لا نعرف اليأس المُميت، ولا	أن الحياةَ سبيلُها مسدودُ
أيهانُ للأهرام مجدٌ باذخٌ	ويُضام تأريخ لمصر مجيدُ؟
إن تَبْكِ مصر على مُؤَثَّلِ مجدها	فلسوف يرجع عاليًا ويعود

---

(١) «الروضتين في أخبار الدولتين»: ٢/ ٥٨.

وقال أيضًا:

نحـن حِـزبُ الله صُـنَّا حَقَّـه وحفظنـا عهـده في النـاكِثين

نحـن بايعنـاه مـذ كنـا علـى نصـرة الحـق، وكنـا فـاعلين

إن غضـبنا أو رضـينا فلـه لا نبـالي تُرّهـات الُمـرجفين

نحمـل الأقـلام غُـرًا، ولنـا صُحُفُ الأبرار بـين الكـاتبين

مـا الأَلِبَّـاءُ كضـلاَّل النُّهـى لا، ولا الأحرار كالمستعبدين

مـا رضـينا خُطّـةَ الغـاوي، ولا عابنا شـأن الـذّليلِ المستكين

يـا لقـومي جاهِـدوا لا تَهنـوا وسـيأتي الله بالنصـر المـبين

أَنجـدوا مِصَـر إذا مـا فَزِعـتْ وأهابـت بالكُمـاة الباسِـلين

احفظوهـا، إن مِصـرًا إن تَضِـعْ ضاع في الدنيا تراث المسلمين

وقد نظم شاعر النيل حافظ إبراهيم قصيدة في مدح مصر طويلة، أجتزئ منها التالي:

وَقـف الخلـق ينظـرون جميعًـا كيـف أبـني قواعـد المجـد وحـدي

وبُناةَ الأهـرام في سـالف الدهـ ـر كَفَـوْني الكـلام عنـد التحـدي

أنا تـاج العـلاء في مفـرق الشـ ـرق ودُرَّاتـه فرائـد عقـدي

أي شيء في الغرب قد بَهَرَ النـا سَ جمـالاً ولم يكـن منـه عنـدي؟

ورجالي لـو أنصـفوهم لسـادوا مـن كهـولٍ مـلء العيـون ومُـردِ

لـو أصـابوا لهـم مجـالاً لأبـدوا مُعجـزات الـذكاء في كـل قَصْـدِ

أنـــا إن قَــدَّر الإلـــه ممــاتي لا ترى الشرق يرفع الرأس بعدي
مــا رمــاني رام وراح سـليمًا مِــن قَــديمٍ عِنايــة الله جُنْــدي
كم بَغَـتْ دَوْلَـةٌ علـيَّ وجـارَتْ ثـمّ زالَـتْ وتلـك عُقبـى التَّعَـدِّي
قُل لِمَنْ أنكَـرُوا مَفـاخِرَ قَـومي مِثْـلَ مــا أنكَــرُوا مــآثِرَ وُلْــدي
هَـلْ وَقَفْـتُم بقمَّـةِ الهَـرَمِ الأكبــ ــبر يومًـا فـرَيْتُمُ بعـضَ جُهْـدي؟
هَلْ رَأَيْتُمْ تلك النُّقوش اللـواتي أعْجزت طَـوْق صـنعةِ المتحـدِّي؟
حالَ لَونُ النهار مِن قِـدَم العهـ ــد ومـا مـس لونَهـا طـولُ عهـدِ
هل فهمتم أسرار ما كان عندي مـن علـوم مخبـوءةٍ طَـيَّ بَـرْدي؟
ذاك فن التحنيط قد غلَب الدهـ ـــر وأبْلـى البِلـى وأَعْجَـزَ نِـدِّي
وقـديمًا بنـى الأسـاطيل قـومي ففــرقن البحــار يَحملــن بَنْـدي
أترانــي وقــد طَوَيْــت حيــاتي في مراسٍ لم أبلـغ اليـوم رشـدي؟
أيُّ شــعب أحــق مــني بعــيشٍ وارف الظل أخضر اللـون رغـدِ؟
أمــنَ العــدل أنهــم يــردون الــ ـــماء صـفوًا وأن يُكَـدَّرَ وِرْدي؟
أمــنَ الحــق أنهــم يطلقــون الــ ـــأُسْدَ مـنهم وأنْ تُقَيَّـدَ أُسْـدي؟
فاستبينوا قصد السَّبيل وجِـدُّوا فالمعــــالي مَخطوبـــة للمُجِـــدِّ

وقد دعا الأستاذ محب الدين الخطيب ابن أخته الشيخ علي الطنطاوي – رحمهما الله تعالى– إلى مصر فقال الشيخ علي:

«إنكم لا تدرون ماذا أثارت هذه الدعوة في نفسي من مشاعر، وفي ذهني من خواطر.

كانت مصر في خيالنا يومئذ دنيا مسحورة، فيها العجائب، وكل مرغوب فيه يأتينا منها: المجلات والصحف، الحركات الفكرية والوطنية تنبثق منها، الرجال الذين نقرأ لهم، والشعراء الذين نحفظ شعرهم منها، وكان تخيل ذهابي إليها أكبر من أن يمر وصفه من شق القلم، والتعبير عنه -مهما كان بليغًا- لا يبلغ حقيقته.

وكنت أسمع أن الأحرار من أرباب الأقلام، ومن عشاق الحرية يؤمون مصر: أستاذنا محمد كرد علي، ومن قبله شيخ مشايخنا السيد رشيد رضا، ومن بعده خالي وأستاذي محب الدين، يأتون من كل مكان من المغرب من الجزائر من تونس من ليبيا.

فلما طلب إليّ أن أسافر إلى مصر، تراءى لي هذا الحلم دانيًا كأني ألمسه»[1].

وقد مرّ ابن بطوطة[2] -رحمه الله تعالى- في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، بمصر، وركب النيل من دمنهور متجهًا إلى القاهرة فقال يصف عِظَمَ ما رأى:

«ومن هذه المدينة ركبت النيل مصعدًا إلى مصر، ما بين مدائنَ وقرى منتظمة، المتصل بعضها ببعض، ولا يفتقر راكب النيل إلى استصحاب الزاد،

---

(١) «ذكريات علي الطنطاوي»: ١/ ٢٤٣.

(٢) هو محمد بن عبدالله بن محمد الطبخي المغربي، توفي سنة ٧٧٩، رحمه الله تعالى، انظر ترجمته في «الدرر الكامنة»: ٣/ ٤٨٠.

لأنه مهما أراد النزول بالشاطئ، نزل للوضوء والصلاة وشراء الزاد وغير ذلك، والأسواق متصلة من مدينة الإسكندرية إلى مصر، ومن مصر إلى مدينة أسوان من الصعيد.

ثم وصلت إلى مدينة مصر: هي أم البلاد، وقرارة فرعون ذي الأوتاد، ذات الأقاليم العريضة والبلاد الأريضة[١]، المتناهية في كثرة العمارة، المتناهية بالحسن والنضارة، ومجمع الوارد والصادر، ومحط رحل الضعيف والقادر، وبها ما شئت من عالم وجاهل، وجاد وهازل، وحليم وسفيه، ووضيع ونبيه، وشريف ومشروف، ومنكر ومعروف، تموج موج البحر بسكانها، وتكاد تضيق بهم على سعة مكانها وإمكانها، شبابها يَجِدّ على طول العهد، وكوكب تعديلها لا يبرح عن منزل السعد، قهرت قاهرتها الأمم، وتمكنت ملوكها من نواصي العرب والعجم، ولها خصوصية النيل الذي أجلّ خطرها، وأغناها عن أن يستمد القَطْرَ قُطْرُها[٢]، وأرضها مسيرة شهر لمجدّ السير، كريمة التربة، مؤنسة لذوي الغربة، قال ابن جزيء: وفيها يقول الشاعر:

لَعمرك ما مصرٌ بمصرٍ وإنما ... هي الجنة الدنيا لمن يتبصَّر

فأولادها الولدان والحور عِينُها ... وروضتها الفردوس والنيل كوثر»[٣]

هذه هي بعض المقتطفات في مدح مصر من كلام الشعراء والأدباء، وهي غيض من فيض، وقطرة من بحر.

---

(١) الأريضة: الزكية المعجبة للعين، انظر «القاموس المحيط»: أرض.

(٢) أي أغناها عن نزول المطر.

(٣) «رحلة ابن بطوطة»: ٥٥.

١٠ مصر في العصر الحديث

قد كان لمصر في عصرنا الحديث فضائل جمة، وأعمال جليلة مهمة، ولأهلها أيادٍ بيضاء على المسلمين، وهذا بحر ضخم خضم لكني سآتي على بعض درره ولآلئه، فمن أدباء مصر الكبار:

مصطفى صادق الرافعي، وهو الأديب الذي سخر قلمه الرائع للدفاع عن الإسلام والرد على خصومه، وعلى مثيري الشبهات الذين جعلوا القرآن غرضًا لهم، فألقمهم الحجر، ورد عليهم في كتابه الجليل «تحت راية القرآن» وغيره ردًّا مفحمًا، ولقد كان وجوده بين أدباء عصره علامة فارقة؛ فإن معظم أدباء عصره كانوا بعيدين عن هذا المضمار، نائين بأنفسهم عن الدخول في هذه القضايا الإسلامية التي كان من يتبناها يُعرض نفسه لأشد أنواع الهجوم والبلاء الذي لا يطيقه كل أحد، هذا وقد كان ذلك الأديب الكبير أصم لكن لم يمنعه صممه من الوصول إلى أعلى الدرجات في الأدب.

ومنهم: الأستاذ سيد قطب الذي جمع بين الأدب الرفيع وتفسير القرآن على وجه لم يسبقه إليه غيره؛ إذ إني لا أعلم تفسيرًا في الأرض نحا نحو تفسيره في ربط مدلولات الآيات القرآنية الكريمة بواقع الناس وأحوالهم وتصاريف زمانهم، فقد أفلح في ذلك وأجاد بل أقول إنه كان مُعانًا موفقًا، والله أعلم.

وقد كان من الأدباء القلائل جدًّا الذين خاضوا غمار الدعوة إلى الله،

تعالى، وخُتم له بالشهادة، إن شاء الله -تعالى-.

وقد اتُّهم باتهامات عديدة صعبة خشنة من قِبَل خصومه وبعض أصحابه، وبعد دراسة أقواله والاطلاع على أحواله، وسؤال بعض أقرانه ومعاصريه فإني أدين الله تعالى بأنه بريء منها، وقد ركب متهموه مركبًا صعبًا عندما اتهموه بها، ولا أجد فصلاً بينه وبين مَن اتهمه بها أفضل من قول أبي العتاهية:

إلى دَيّان يوم الدين نمضي وعند الله تجتمع الخصوم

نعم هو أديب وقع على الإسلام وأشرقت روحه وحَيِيَ قلبه به فتكلم في بعض أصول وفروع الشريعة بكلام رائع جليل أصاب في أكثره، وفي بعضه ما في كلام البشر من الخطأ، وما يصيبهم من الزيغ والزلل، لكن لا يصل إلى حد ما اتهمه به من اتهمه، فلم التشنيع والتهويل وكثرة العويل وعدم حمل كلام الرجل على أحسن محامله، ورد متشابهه إلى محكمه ومجمله إلى مبينه؟

ومنهم الأستاذ الكبير الأديب العالم أبو فِهرْ محمود محمد شاكر الذي كان له مواقف جليلة صدع فيها بالحق، وفَنّد فيها الباطل بقوة، وله كتب عظيمة صارت هادية للأجيال وموجهة لها ومرشدة، ولو لاين خصومه وتفاهم معهم لاجتمعت حوله القلوب والتف عليه الناس، لكنه -رحمه الله تعالى- كان يشتد عليهم اشتدادًا لا يفرق فيه غالبًا بين داعية للإسلام وعدو له، وبين محب للإسلام وشانئ ومبغض له، وهو بعد هذا كله قمة سامقة لا يستطيعها الرويبضات التافهون، وله الكتاب المشهور الذي لا يستطاع الإتيان بمثله ولا بنصفه، على وجازته وصغر حجمه، وهو «رسالة في الطريق إلى ثقافتنا» أبدع فيه أيما إبداع، وله أعمال أخرى جليلة، وآثار مضيئة.



وأما شعراء مصر الذين كان لهم أثر عظيم في تجديد الشعر العربي بعد مدة انحطاط طويلة فعدد كبير، منهم الضابط المشارك في الثورة العرابية محمود سامي البارودي -وهو أول الكبار- وأحمد شوقي الذي قيل فيه: لم يأتِ بعد أحمد المتنبي مثل أحمد شوقي، ومنهم حافظ إبراهيم شاعر النيل، وأحمد محرم شاعر العروبة والإسلام، ومحمود غنيم.

ومن دعاة مصر الكبار:

الأستاذ الإمام محمد عبده الذي كان أحد المؤثرين الكبار في تاريخ مصر بل في تاريخ الإسلام الحديث، والرجل عليه بعض المؤاخذات -غفر الله له- لكن أثره وعمله ما زال يتردد في جنبات مصرَ إلى يوم الناس هذا، وتوفي -رحمه الله تعالى- سنة ١٣٢٢/ ١٩٠٥.

ومنهم الأستاذ محمد رشيد رضا الشامي ثم المصري، منشئ مجلة المنار في مصر، وهي المجلة التي ظلت ملاذًا لأهل الإسلام أكثر من ثلاثين سنة، وللشيخ رشيد آثار في التجديد، والاجتهاد في الدعوة إليه مشهودة معلومة، وظل شوكة في حلق أعداء الإسلام وفي حلق أنصاره من الجامدين المعارضين حتى أتاه اليقين سنة ١٣٥٣/ ١٩٣٥، رحمه الله تعالى.

ومنهم الأستاذ الإمام الشهيد -بإذن الله تعالى- حسن البنا، الذي لم يأتِ مثله -عندي- في مجموع صفاته وأحواله منذ شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالى- وذلك أنه أتى والإسلام قد درست معالمه، وانطمست مزاياه ومحاسنه، وأكثر أهله عنه مدبرون، وفي جدواه متشككون، ومن اطّلع على أحوال عصره علم ما قلته، وعرف صدق ما ادعيته، فأعاد إلى الإسلام ما امتاز

به من الشمول، بعد طول أُفول، وأظهر ما فيه من جلال وجمال بعدما أصابه على يد أهله بسبب سوء الأفعال والأقوال.

والرجل ليس ككل الرجال، فحسبكم دليلاً على ذلك أنه عاش أربعًا وأربعين سنة تقريبًا جاهد فيها إخوان القردة في فلسطين والصليبيين الإنجليز في مصر، وترك من الأعمال والآثار ما يعجز عنه جماعة كبيرة من الرجال الأبطال، فهذا يدل -والله تعالى أعلم- أن لله به عناية، وأما ما اتهمه به خصومه فهو شِنشنة نعرفها من أَخْزم، واتهامات لم يقيموا عليها بينات جليّات، ولا دلائل واضحات فذهبت أدراج الرياح وبقي للرجل سيرته الناصعة البيضاء.

وهو على كل حال بشر ليس بمعصوم، وله أخطاء وزلات كما لسائر البشر -حاشا الأنبياء والمرسلين عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين - لكن الظلم كل الظلم هو تضخيم الأخطاء القليلات غير المقصودات ونسيان المحاسن الكثيرات، والمزايا الواضحات، والأعمال العظيمات.

ومنهم الأستاذ الداعية المنتسب إلى الجمعية الشرعية محمود عبدالوهاب فايد الذي وقف في وجه الطاغية العبد الخاسر، وصدع بالحق في زمن قَلّ فيه الصادعون، ونكص أكثر الناس من الخواص والعلماء والمشايخ وطلبة العلم على أعقابهم، يوم كان أكثر أبطال مصر في السجون أو المنافي، وكان له مواقف في مصر هي خالدة في ذاكرة التاريخ، وأرجو أن ينال بها أعظم المكافأة في الآخرة، إن شاء الله تعالى، وإليكم ترجمةً له موجزةً:

ولد سنة ١٣٣٩/ ١٩٢١ في قرية «دمينكة» وهي تتبع محافظة كفر الشيخ، وأسرته معروفة بالعلم والدين؛ فوالده معروف بالعلم والصلاح، وجده



الشيخ مبروك كان عالمًا شرعيًا، وأخوه الأكبر مأذون القرية ومعروف بتدينه وورعه، وأخوه الذي يلي الأكبر هو د.عبدالوهاب، وهو مدرس في كلية أصول الدين بالجامع الأزهر، وابن عمه الشيخ محمد عبدالغني كان واعظًا بالأزهر ومعروفًا بالصلاح، وغير هؤلاء مما يدل على صلاح الأسرة في الجملة، وتعلق عدد من أفرادها بالعلم الشرعي.

حفظه والده القرآن العظيم، ثم ألحقه بمعهد دسوق الديني الابتدائي التابع للأزهر، وحدثت له حادثة فيه ففصل ثم أعيد، وبعد فراغه من الدراسة في المعهد قصد معهد طنطا الثانوي للدراسة فيه، وفصل وسجن بسبب حادثة عرضت له سيأتي ذكرها، إن شاء الله تعالى.

- من مواقفه المشرفة:

عقب الهزيمة المذلة سنة ١٣٨٧/ ١٩٦٧ طالب بمحاكمة الرئيس المصري عبدالناصر، فعزله من مناصبه بقرار جمهوري، وحاول بعض العلماء التدخل لدى الرئيس فأجابهم بشرط أن يحضروا منه التماسًا بذلك، فذهب إليه الشيخ عبدالحليم محمود ليعرض عليه هذا الأمر فرفض الشيخ بإباء، وقال:

«أنا طالبت بمحاكمته ولم أطالب بإدانته، وفي المحكمة تنكشف الحقائق، ثم قال: عندما أُخبرت بقرار الفصل بالهاتف صليت ركعتين لله، ثم قلت: اللهم فارزقني وأنا من اليوم عبد خالص لك، وقد استجاب الله لي وأراحني من الذهاب والإياب، وأنا لدي مكتبة عامرة بالكتب ورثتها عن آبائي وأجدادي، واشتريت المزيد فأنا أعكف على المطالعة والتأليف، ويأتيني من الرزق أضعاف ما كنت أتقاضاه من الوظيفة، وأحمد الله على نعمه، إنني أقول

وقد وسّع الله عليَّ، يا الله: لقد أرادوا أن يذلوني فأعززتني، لا أذل وأنا عبدك؛ عبد العزيز، وأرادوا أن يضعفوني فقويتني، لا أضعف وأنا عبدك؛ عبد القوي، وأرادوا أن يفقروني فأغنيتني، لا أفتقر وأنا عبدك؛ عبدالغني».

وهذا موقف جليل منه في زمن الطغيان.

- ومن المواقف المضيئة ما حدث حين أساء شيخ الأزهر عبدالرحمن تاج إلى منصبه وإلى الأزهر بممالأته للثوريين الناصريين وتقصيره في شأن الأزهر والأزهريين بل الإسلام والمسلمين، فهاجم شيخ الأزهر على سكوته وكتب مقالاً شهيرًا سماه: «بسم الله والله أكبر فليستقل شيخ الأزهر»، ووجد المقال قبولاً كبيرًا ورضى لدى جمهرة الأزهريين، فنقل الشيخ محمود نقلاً تأديبًا من معهد منوف إلى معهد قنا، ثم أوقف راتبه وأحيل إلى مجلس تأديبي، وفي ذلك المجلس نجاه الله تعالى ونصره على من عاداه، وعاد إلى معهده.

وقد شجعه والده في ذلك الموقف بقوله له لما استشاره:

«أنا لا يعنيني أن تُنقل إلى قنا أو تبقى هنا إنما يعنيني فقط أن تلزم جانب الحق في كل ما تقول».

- ومن مواقفه ما حدث له أثناء الدراسة في معهد طنطا الثانوي، فقد اعترض الطلاب على كتاب يُدَرَّس في كلية الآداب فيه مساس برسول الله ﷺ فثاروا وأضربوا عن الحضور إلى المعهد فبادر شيخ المعهد بفصل نفر منهم، فقام الشيخ محمود فايد بإلقاء قصيدة يعترض فيها على الفصل، فعوقب بالفصل والسجن !!

- ومن المواقف أنه كان قد تخرج في كلية أصول الدين في الأزهر سنة ١٣٧٦/ ١٩٤٦، وكان الأول على الطلاب، فدعي الطلاب الأوائل إلى حفلة يحضرها الملك فاروق ويصافح فيها الخريجين، وأُمر الجميع بالانحناء عند المصافحة لكن الشيخ أبى وصافحه وهو منتصب القامة مرفوع الرأس، وبسبب هذا الموقف صدر الأمر بتعيينه في سوهاج بالصعيد خلافًا لما جرى عليه العرف من تعيين الأوائل في القاهرة.

- ومن مواقفه العظيمة أن عبدالناصر استهزأ مرة بالعلماء وهون من شأنهم، واتهمهم ببيع الفتاوى بالفراخ وأعلن ذلك في إحدى الخطب، فما كان من الشيخ محمود فايد إلا أن كتب مقالاً في مجلة الاعتصام عدد ربيع الأول سنة ١٣٨١/ ١٩٦١ في أوج الطغيان والخوف، قال فيه بعد كلام غمز فيه من جانب الجيش واتهمه بموالاة الملك السابق يوم كان الشيخ يحارب الفساد:

« ... هل يجوز يا سيادة الرئيس أن يذاع على العالم وبجميع اللغات ومن رئيس الجمهورية العربية نفسه مثل هذا الكلام ؟!

لقد فاتك أن تعقب بأن كثيرًا من ذوي العمائم كان لهم مواقف كريمة وغيرة مشكورة، وإحساس مرهف، وإنك لتعرف بعضهم، ولبعضهم عليك فضل، ومن فضل الله أن شعبنا فاضل واعٍ ذكي أريب، يعرف مقاييس الرجال، ويميز الخبيث من الطيب.

وختامًا: يكفي العلماء العاملين شرفًا وفخرًا أن أحكم الحاكمين زكاهم ورفع قدرهم وخلد ذكرهم فقال سبحانه: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ

وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍۚ﴾ ويكفيهم في المدح والثناء قول أفضل البشر: **«العلماء ورثة الأنبياء»**.

وهذا الكلام خطير وصعب أن يواجه به زعيم طاغية باطش ظالم مثل عبد الناصر، لكن الشيخ محمود فايد كان من طراز فريد من العلماء.

- ومن مواقفه المشرفة مقالان نشر أحدهما أيام فاروق والآخر أيام عبد الناصر، قال في الأول يصف حال المسلمين:

«ملوكهم وحكامهم معنيون بمناصبهم، همهم أن تَسْلم لهم ... يسالمون عِداهم، ويذلون رعاياهم، يجمعون المال من دم الفلاحين وعرق الكادحين لينفقوه على ملذاتهم، ويبعثروه على شهواتهم، طورًا ينثرونه على موائد القمار ودور اللهو وكئوس الشراب، وحينًا يبذلونه في مخاصرة النساء وسماع الغناء وما تتطلبه الليالي الحمراء، والويل شر الويل لمن تسول له نفسه أن ينكر عليهم أو يزجي النصح لهم فجزاؤه السجن وإن شئت فقل الإعدام».

وفي النص الآخر أيام عبدالناصر قال مخاطبًا له:

«يا سيادة الرئيس: هذه الأموال الباهظة التي تنفق في غير موضعها، هذه المكافآت السخية التي تصرف من مال الدولة على الممثلين والممثلات، والراقصين والراقصات، والمغنين والمغنيات.

قلت يا سيادة الرئيس إنك تريد أن تطهر المجتمع من عوامل الحقد والأنانية والفساد والبغضاء، ومقتضى هذا المنطق أن تُقلم أظافر أولئك المترفين».

- ومن مواقفه القوية أن فرقة راقصة من بلد شيوعي أرادت أن تقيم



حفلاً في ميدان الحسين!! في رمضان سنة ١٣٨٧، فانتهز الشيخ محمود فرصة إقامة الجمعية حفلاً في ذكرى غزوة بدر فتكلم قائلاً:

«أخزى الله هؤلاء السفهاء، لقد بلغ بهم السخف أن يحيوا رمضان بالمنكرات، وفي أي مكان ؟ في ميدان الحسين بين مسجده وبين إدارة الأزهر ومشيخة الطرق الصوفية، يالها من إهانة متعمدة توجه لعمّار هذه المؤسسات الإسلامية، يا لها من إهانة توجه إلى شهر القرآن».

وكان أحد المسئولين حاضرًا لذلك الحفل فأبلغ الخبر إلى حسين الشافعي نائب رئيس الجمهورية فأصدر أمره بإلغاء الحفل، فكم نحن -اليوم- بحاجة إلى أمثال هؤلاء العلماء.

- ومن مواقفه المشرفة رده على الأديب أحمد حسن الزيات عندما كتب مقالاً افتتاحيًا في مجلة الأزهر الذي كان يرأس تحريرها، وكان في المقال كُفر واضح ظاهر ألا وهو تفضيل الوحدة الناصرية على الوحدة المحمدية!! وثار الصالحون في العالم الإسلامي ومنهم الأستاذ أبو الحسن الندوي، وثار الشيخ محمود فايد وكتب مقالاً شديدًا رد فيه على الزيات، نسأل الله العافية من الضلال.

- الجانب الذي تميز به الشيخ رحمه الله تعالى:

تميز الشيخ محمود فايد بميزة لم تكن إلا لقلائل من علماء زمانه ألا وهي اطلاعه الواسع على أحداث بلاده في زمانه، وفقهه واقعَ قومه، وقد جعله هذا يسارع إلى الرد على المخالف أو المفسد، أو الضال، وذلك من خلال المنبر الذي سخره الله له وهو مجلة «الاعتصام»، وهي على أنها محدودة الانتشار لكن كان لها من يتلقف مقالاتها المهمة فيعيد نشرها في بعض الصحف السيارة الذائعة،

وبعض تلك المقالات نشر في صحف المعارضة بعد توقيف مجلة «الاعتصام».

ولم يستثنِ الشيخ في رده أحدًا، فهو يرد على كل من يرى وجوب الرد عليه أو مناقشته، فقد رد على عبدالناصر في أوج طغيانه، وعلى السادات، وعلى حسني مبارك، ورد على بعض الوزراء والكبراء، وعلى بعض المشايخ الضعاف أو أصحاب المواقف المنحرفة أو المتخاذلة.

ولقد جُمعت هذه الردود والمناقشات في كتاب ضخم اسمه صيحة الحق، وبعض هذه الردود والمناقشات آتت أكلها وثمارها فحصل بها تغيير ولله الحمد، إذن لم تكن كل تلك المقالات صرخة في وادٍ، ومن أهم ما جاء في الكتاب من ردود ومناقشات في ظني هو التالي، وأنصح القراء بقراءتها لأنها تعد مثل الوثائق التي تبين الأوضاع في أكبر بلد عربي وإسلامي رمته سهام الأعداء من كل جانب:

١) ردوده على الرئيس المصري أنور السادات في عدة مقالات، ومن أهم ما رد عليه فيه مقولة السادات الشهيرة: «لا دين في السياسة ولا سياسة في الدين».

٢) مقال يدعو فيه لعدم ترخيص الحزب الشيوعي.

٣) مقال فَنّد فيه معاهدة الصلح بين مصر ودولة الصهاينة، ورد على العلماء الذين أيدوها.

٤) عدة مقالات طالب فيها رؤساء مصر بتطبيق الشريعة الإسلامية وعدم التلكؤ في هذا الأمر العظيم، ورد على بعض أعمالهم المنافية للإسلام،



وكان يسمي ثورة يوليو بالثورة المشئومة وحُقَّ له، وقد شن حملة هائلة على عبدالناصر ووصف مخازيه وسيئاته على وجه مفصل.

٥) مجموعة مقالات يرد فيها على العلمانيين الذين ينادون بفصل الدين عن الدولة، ويهمزون الشريعة ويلمزونها كعادتهم، ومِن أبرز تلك المقالات ردوده على أمينة السعيد ومحمد أحمد خلف الله وأمثالهما من المنحرفين والضالين.

٦) مناقشاته لكبار العلماء فيما رأى أنهم قد أخطأوا فيه، فلم يترك أحدًا منهم دون أن يرد عليه، فقد رد على عدد من شيوخ الأزهر، وكبار علماء عصره، ورد على المفتي محمد سيد طنطاوي فيما ذهب إليه من تحليل أنواع من الربا.

ومن أهم تلك الردود رده الرائع على شيخ الأزهر عبدالرحمن تاج، وقد ذكرت ذلك في ثنايا ترجمته، وأنصح كل عالم وشيخ وطالب علم بقراءة هذا المقال الجليل الذي كان له آثار ضخمة في مصر آنذاك.

ورد على د.محمد البهي الذي كان وزيرًا للأزهر، ولم يمنعه ذلك الرد القوي من الثناء عليه وبيان محاسنه، وهذا من إنصافه.

ميزات مقالاته:

كان لمقالات الشيخ محمود فايد مزايا مهمة منها:

١) التوسع والإطناب في العَرْض بما يقتضيه المقام فيوفيه حقه، ولا يغادر صغيرة ولا كبيرة مما يريد إيراده إلا ويوردها.

٢) مـزَج كلامـه بالآيـات الجليلـة والأحاديـث الشريفـة وكـلام الفقهـاء الضابطين، وهذا مما يُكسب مقالاته الهيبة والقوة.

٣) والشجاعة الظاهرة الواضحة في الرد والنقاش، والقوة في تقرير ما يريده، وبمعنى آخر إن مقالاته تخلو مما يُسمى بـ«المجاملة» التي جنت على كثير من الحقائق.

٤) المعاصرة لأحداث في البلاد ووقائع العباد، فمقالاته تعالج القضايا في وقتها وبالسرعة اللازمة للتأثير في نفوس قارئيها.

٥) الشمول في الردود فلا يترك حاكمًا أو محكومًا يرى أن يرد عليه إلا ويبادر للرد فلا يخص بمقالاته طائفة أو طبقة من الناس، وهذا مما يضفي على مقالاته أهمية وجودة.

وظائفه ومناصبه:

- عين وكيلاً عامًّا للجمعية الشرعية.

- عُين رئيسًا للجمعية الشرعية بمصر وذلك بعد وفاة الشيخ العالم عبداللطيف المشتهري، وظل في رئاستها منذ ١/ ٣/ ١٤١٦ – ٢٨/ ٨/ ١٩٩٥ إلى ٦/ ٢/ ١٤١٨ – ١١/ ٦/ ١٩٩٧، وذلك تاريخ وفاته رحمه الله تعالى.

وكان كل من يلي رئاسة الجمعية يلقب بإمام أهل السنة، وكان ذلك الوصف -في ظني- منطبقًا على الشيخ محمود فايد إلى درجة كبيرة من الانطباق، وذلك أن من أعظم خصائص أئمة السنة في كل زمان ومكان هو قول الحق وعدم خشية أحد فيه، وأحسب أن الشيخ كان من هؤلاء والله

حسيبه ولا أزكي على الله أحدًا.

- وقد عُين أيضًا رائدًا دينيًّا لمدينة البعوث في الأزهر، وكان مؤثرًا على الطلبة الوافدين إلى الأزهر لكن الشيخ عُزل عنها، إذ لم يحتمل الطغاة له ذلك.

- وعين أستاذًا في التفسير في كلية الدعوة وأصول الدين، وكلية اللغة العربية في الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة النبوية.

عضو لجنة السنة بمجمع البحوث.

مؤلفاته:

للشيخ -رحمه الله تعالى- عدد من المصنفات منها:

- كتاب «المنطق الواضح» في علم المنطق، في جزأين.
- «التربية في كتاب الله».
- «الإسلام والصحة».
- «الإسلام وأثره في نهضة الشعوب».
- «الرسالة المحمدية وشواهدها» ويعده أهم مؤلف له.
- «صيحة الحق».

وحقق مجموعة من كتب التراث.

وللشيخ شعر منشور في بعض الكتب والمقالات، ولا بأس به.

وفاته:

توفي الشيخ رحمه الله تعالى سنة ١٤١٨/ ١٩٩٧ ودفن في مصر، رحمه الله تعالى وغفر لنا وله.

وقريب من هذا الداعية الإمام ومن كان في الصدع بالحق مشهورًا أيضًا الأستاذ محمد أبو زهرة الذي كان له مواقف جليلة صدع فيها الطاغية العبد الخاسر بالحق البين الواضح، فلم يملك له إلا أن جرّده من مناصبه وعزله عن وظائفه، وللآخرة خير له من الأولى، إن شاء الله تعالى.

ومن علماء مصر في العصر الحديث الشيخ عبد الحميد كشك الخطيب المِصْقَع الذي لم يأت مثله -عندي- منذ قرون، وكان له أكبر الأثر في إذكاء الصحوة الإسلامية، وله طريقة في الخطابة لا تبارى ولا تجارى، وهو فصيح بليغ الى الحد الأعلى من الفصاحة والبلاغة، ومن استمع لخطبه أدرك ما أقول، أما جمعه بين هذا كله وبين الدعابة واللطف والاقتراب من الجمهور فهو شيء جديد في الخطابة أجزم -والله أعلم- أنه لم يقع من قبل، وحسبه شرفًا أنه توفي وهو ساجد، فلله ما أحسن ميتته، وما أشرف خاتمته.

وإن ينَس التاريخ أحدًا من الناس فانه لن ينسى أبدًا إن - شاء الله تعالى - جملة من الدعاة العاملين أصحاب المؤلفات النافعة والمواقف الرائعة منهم المشايخ والأساتذة محمد الغزالي ، والبهي الخولي، ومحمود خطاب السبكي منشئ الجمعية الشرعية، ومحمد الفقي من جماعة أنصار السنة، والمحدث أحمد محمد شاكر، والتونسي المصري شيخ الأزهر محمد الخضر حسين، وشيخا الأزهر الصادعان الرئيس السادات بالحق: عبد الحليم محمود وجاد الحق، وكذلك عمر التلمساني، ومصطفى مشهور، وغيرهم كثير، رحمهم الله تعالى.

وفي مصرَ اليوم ثلة من الدعاة كان لها أثر عظيم في تصحيح مسيرة شعب مصر وكثير من الشعوب العربية والإسلامية، ولهم أيادٍ بيضاء لا تنكر في

مجالات كثيرة، ولولا أني اشترطت على نفسي ألا أمدح إلا من انتقل إلى الدار الآخرة -حميدًا سعيدًا إن شاء الله- لذكرت جملة كبيرة منهم.

وكم لمصرَ من الأيادي البيضاء على الدول العربية والإسلامية، فقد علّم أساتذتها ومدرسوها كثيرًا جدًّا من العرب والمسلمين، وكان من المصريين وما زال لهم دعاة مبثوثون في قارات الدنيا الست، لا تخطئهم العين، ولا يغيبون عن المواقع المهمة.

ولا يُنسى فضل مصر في معركة العاشر من رمضان سنة ١٣٩٣/٦ أكتوبر ١٩٧٣ وإيقاف زحف إخوان القردة، وقد تحدثت عنها في مكان آخر، وهي أجلّ معركة في العصر الحديث وقائع ونتائج، والله أعلم.

وعقب تلك المعركة ظهرت الصحوة الإسلامية الجليلة الرائعة، التي أتى بها الله بنيان الكافرين والعلمانيين والمنافقين من قواعده، وهدم جُلّ مخططاتهم بهذا النورِ الذي بزغ شيئًا فشيئًا، واتسع نطاقه بعد ذلك ليعم بلاد مصر، بل معظم بلاد العالم، وللصحوة حديث جليل وتفصيل رائع لا يصلح له هذا السياق العَجِل، لكني ذكرت ذلك لأبين ريادة مصر الإسلامية في هذا الأمر، وفضلها على سائر الأقطار.

ولمصر قرّاء للقرآن هم أساتذة الدنيا في القراءة وجودة التلاوة وحسنها وعلى رأسهم الثلاثة الذين ليس لبلد في الأرض مثلهم: الشيخ محمود خليل الحصري، وعبدالباسط عبدالصمد، ومحمد صديق المنشاوي، وقد يضاف إليهم الأستاذ محمد رفعت، وإن لم يبلغ -عندي- إتقانَ أولئك الثلاثة، لكن لصوته جلال وجمال قَلّ مثيله.

وفي مصرَ اليوم ثلة من علماء الشريعة لهم أيادٍ بيضاء على شعب مصر والشعوب العربية والإسلامية.

وفي مصر عدد ضخم من علماء الكيمياء والفيزياء والرياضيات والطب وسائر جوانب العلوم الطبيعية والتطبيقية والتقنية، وقد أغنى كثير منهم الحضارة الغربية وجددوا لها نسيجها القديم، وكان لهم أثر لا ينكر في المشاركة في المسيرة الحضارية لعدد من الدول الغربية والإسلامية والعربية، وقد اغتال إخوان القردة مجموعة من أبرز هؤلاء، وقد أوردت موسوعة «ويكيبيديا» سيرة موجزة لهؤلاء وفي وكيفية مقتلهم فقالت:

«علماء مصر الذين اغتالهم الموساد الإسرائيلي خارج مصر:

يحيى المشد وهو عالم ذرة مصري وأستاذ جامعي، درّسَ في العراق في الجامعة التكنولوجية قسم الهندسة الكهربائية فشهد له طلابه وكل من عرفه بالأخلاق والذكاء والعلمية، اغتاله الموساد في يوم الجمعة ١٣ يونيه عام ١٩٨٠ -أي سنة ١٤٠٠هـ- ، وفى حجرته رقم ٩٤١ بفندق الميريديان بباريس عُثر على الدكتور يحيى المشد جثة هامدة مهشمة الرأس ودماؤه تغطي سجادة الحجرة.

علي مصطفى مشرفة باشا (١١ يوليو ١٨٩٨- ١٥ يناير ١٩٥٠م): عالم رياضيات مصري ،ولد في دمياط، تخرج في مدرسة المعلمين العليا ١٩١٧، وحصل على دكتوراه فلسفة العلوم PHD من جامعة لندن ١٩٢٣، ثم كان أول مصري يحصل على درجة دكتوراه العلوم DSC من إنجلترا من جامعة لندن ١٩٢٤، عُين أستاذًا للرياضيات في مدرسة المعلمين العليا ثم للرياضة

التطبيقية في كلية العلوم ١٩٢٦.

مُنح لقب أستاذ من جامعة القاهرة وهو دون الثلاثين من عمره.

كان يتابع أبحاثه العالم أينشتاين صاحب نظرية النسبية، ووصفه بأنه واحد من أعظم علماء الفيزياء.

انتخب في عام ١٩٣٦ عميدًا لكلية العلوم، فأصبح بذلك أول عميد مصري لها.

حصل على لقب الباشوية من الملك فاروق.

تتلمذ على يده مجموعة من أشهر علماء مصر، ومن بينهم سميرة موسى.

توفي في ١٥ يناير ١٩٥٠م، اثر أزمة قلبية، ويشاع أنه توفي مسمومًا، وقيل إن أحد مندوبي الملك فاروق كان خلف وفاته، كما قيل أيضًا إنها إحدى عمليات جهاز الموساد الإسرائيلي.

سميرة موسى (٣ مارس ١٩١٧- ١٥ أغسطس ١٩٥٢م): ولدت في قرية سنبو الكبرى، مركز زفتى بمحافظة الغربية.

وهي أول عالمة ذرة مصرية ولقبت باسم ميس كوري الشرق، وهي أول معيدة في كلية العلوم بجامعة فؤاد الأول، جامعة القاهرة حاليًّا.

استجابت الدكتورة سميرة إلى دعوة للسفر إلى أمريكا في عام ١٩٥٢، أتيحت لها فرصة إجراء بحوث في معامل جامعة سان لويس بولاية ميسوري الأمريكية، تلقت عروضًا لكي تبقى في أمريكا، لكنها رفضت وقبل عودتها بأيام استجابت لدعوة لزيارة معامل نووية في ضواحي كاليفورنيا في ١٥ أغسطس، وفي طريق

كاليفورنيا الوعر المرتفع ظهرت سيارة نقل فجأة؛ لتصطدم بسيارتها بقوة وتلقي بها في وادٍ عميق، ففز سائق السيارة -زميلها الهندى في الجامعة الذي يقوم بالتحضير للدكتوراه- والذي اختفى إلى الأبد».

هذا بعض ما يمكن إيراده في هذه العجالة من معالم مصرَ فى العصر الحديث، وهو قُلٌّ من كُثْر، وغيض من فيض، وقطرة من بحر.

وإني لأرجو بهذه المقالات العشر أن أكون قد وفيت لأهل مصر جزءًا من حقهم، وبينت شيئًا من فضلهم، وأتيت على قطرة من بحرهم، وأظهرت بعض مفاخرهم، ووضحت قليلاً من مآثرهم، وإلى الله -تعالى- أشكو التقصير.

وفي المقالة الأخيرة القادمة، سأورد -إن شاء الله تعالى- ماذا يريد المسلمون من المصريين، وماذا يطلبون منهم، فإن للمجد الذي أوردت بعضه ضريبة، وللشرف الباذخ ثمنًا، وللعزة القَعْساء عملاً جليلاً، والله المستعان.

***

١١ الواجبات المنوطة بالمصريين

قد قدمت في المقالات العشر الماضيات شيئًا من فضائل مصر ومزايا أهلها، وبينت عِظَم العطاء الذي شارك به المصريون في بناء صرح الشريعة الإسلامية، والثقافة الإسلامية، والحضارة الإسلامية، وهو أمر مشهور ذائع لا يحتاج إلى بيانٍ من مثلي لكنه من باب ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الذاريات: ٥٥]، وهو -أيضًا- أداء لحقهم، وبيان لفضلهم الذي قد يغمطهم عليه حاقدٌ أو يدفعهم عنه جاحد.

ويقي لي أن أنبه شعب مصر إلى بعض الأمور المهمة التي يريدها المسلمون منهم:

أولاً: مصر للمسلمين:

قد شاع في مصر بعد تولي السادات مقاليد الحكم واستقرار الأمر له شعار مصر للمصريين، ونادى بعض المصريين بوجوب الانكفاء على مصر وعدم الالتفات إلى غيرها، خاصة عندما جُمدت عضوية مصر في الجامعة العربية بسبب صلح السادات المشئوم مع إخوان القردة، واستمر هذا الشعار مسيطرًا في زمن المخلوع اللامبارك، فاجترأ إخوان القردة على لبنان سنة ١٤٠٢/ ١٩٨٢ ولم تحرك مصر ساكنًا، ثم حصلت مآسٍ بعدها عديدة في بلاد العُرْبِ والإسلام كانت مصر بعيدة عنها تقريبًا، ومصر اليوم بعد الثورة لا بد

أن تعود لكل المسلمين، فتحمل همومهم، وتحل مشكلاتهم، وتدرأ في نحور أعدائهم، وتدفع شرورهم، هذا هو قدر مصر الذي قدره الله -تعالى- لها منذ أن حملت راية القيادة في العالم الإسلامي بعد سقوط بغداد، وقد أوقفت مصر المد التتري الهمجي ودحرته في عين جالوت في أرض فلسطين بقيادة المماليك وأميرهم قطز في الخامس والعشرين من رمضان سنة ٦٥٨، ولم تذق التتار الهزيمة على يد المسلمين لمدة نصف قرن تقريبًا من المعارك قبلها.

وقد ردّت مصر الحملة الصليبية بقيادة لويس التاسع لما اجترأ على غزو الديار المصرية ٦٤٧، وأذاقته ألم الأسر والهوان، وقتلت من جيشه عشرات الآلاف وأسرت آلافًا مؤلفة، وباءت الحملة بالخزي والذل، بفضل الله -تعالى- ومنّه.

وقد طردت مصر الصليبيين من الساحل الشامي وطهرته تمامًا بقيادة المماليك وأميرهم الأشرف خليل بن قلاوون سنة ٦٩٠ بعد أن طرد الصليبيين من عكا.

وقد أنقذت مصر المسلمين بانتصارها على إخوان القردة في رمضان سنة ١٣٩٣/ أكتوبر ١٩٧٣.

تلك كانت أعمال مصر الإسلامية على الصعيد العسكري، أما غير ذلك فقد تولت مصر مقاليد القيادة الدينية والثقافية والحضارية في البلاد العربية المشرقية قرابة ٨٠٠ سنة، على ما بينته في أكثر الحلقات السابقة، فمقولة مصر للمصريين إذن لا تصح تاريخًا ولا حاليًّا، ولا يمكن أن تكون مصر إلا للمسلمين كلهم.

ثانيًا: الانفتاح الثقافي:

قد عاش أكثر المصريين حينًا من الدهر لا يكادون يرون أحدًا عنده علم نافع أو ثقافة جيدة سوى المصريين، وأكثر أولئك ما زالوا يفعلون الشيء نفسه، وهذا فيه غلوٌّ في التقدير، وقصور في الاطلاع على ثقافات الشعوب وأحوالها، وقد ساعدهم على ذلك وسائل إعلامهم التي كانت مسيطرة على الساحة العربية إلى زمن قريب، ولا بد من تغيير هذه النظرة إلى الشعوب الأخرى من غير المصريين، ففيها علماء وعظماء ومثقفون، وقد بلغ أولئك أعلى الدرجات في تخصصاتهم، فينبغي إذن أن يكون هناك تعاون وثيق قوي بين عظماء المصريين ونظرائهم من البلاد العربية والإسلامية، وأن يكون هناك تكامل جيد وتنسيق حسن؛ إذِ المرحلة المقبلة في مصر وبلاد العروبة والإسلام حرجة وصعبة، والمطلوب هو تعاون كل القوى لإنجاح المقاصد العليا للشرع المطهر.

ثالثًا: تعاون القوى الإسلامية والوطنية:

في مصرَ قوى إسلامية جليلة ضخمة، على رأسها الإخوان والسلفيون، وفيها قوى وطنية ربما لم تُوفق للاعتصام بالإسلام منهجًا لكنها تريد الخير لمصر والمصريين، وهي نزيهة لا تقبل العِوج ولا الفساد، فينبغي أن يجتمع كل أولئك للعمل على إخراج مصر من النفق المظلم الذي وضعها فيه الطغاة والظلمة والمستبدون، والفاسدون وخربو الذمم، منذ زمن طويل -أقدره بثمانية قرون تقريبًا- إلى يوم الناس هذا، ولم تنعم مصر أثناءه بحكم رشيد إلا في مدد قصيرة متقطعة، ومصر تملك من الثروات البشرية وغيرها قدرًا هائلاً، وتملك الموقع المتفرد جغرافيًا، فهي حقيقة بالريادة والسيادة، وتسنم ذُرى المجد الذي مُنعته

وتسنمته دول لا تَعْشُر مصر، لكن هذا لن يكون -بعد توفيق الله تعالى- إلا بالاجتماع والتعاضد والتآزر والتناصر.

رابعًا: تحكيم الشريعة:

إن قاصمة الظهر التي حلت بأكثر البلاد العربية والإسلامية هي تنحية كتاب الله -تعالى- وسنة رسوله ﷺ عن الحكم والتشريع، وكان هذا على يد الاستخراب العالمي وأذنابه من بعده، وقد نال مصرَ نصيب وافر من هذه الجناية بل الجريمة الفظيعة، وتعاون على إبعاد مصرَ عن كتاب ربها -سبحانه وتعالى- وسنة نبيها ﷺ حكامها المستغربون، والإنجليز الظالمون الماكرون، وبثوا في الأرض من أنواع المفاسد والشرور شيئًا عظيمًا، ونهبوا البلاد، وسرقوا العباد، وفعلوا كل نقيصة واجترأوا على كل سوء وقبيحة، وإنا لله وإنا إليه راجعون، ولن ينقذ البلاد من الهوة التي سقطت فيها إلا تحكيم شرع الله -تعالى- وتعبيد الناس لربهم، سبحانه، ونشر نور القرآن الكريم والسنة المطهرة في ربوع مصر، هذا أمرٌ لا بد منه، ولا نقاش فيه، لكن مصر ابتدأ تغريبها منذ زمن محمد علي أي منذ أكثر من مائتي سنة، ولا يمكن إرجاعها إلى الجادة بعمل أشهر، فلا بد من التدرج بالناس، وحسن عرض الأحكام الشرعية، وبيان ما ينبغي عليهم صنعه في هذا الباب بالحكمة والموعظة الحسنة ومراعاة الأحوال، ومعرفة مكائد الأعداء، ومكرهم في الليل والنهار بمصرَ وأهلها، وإرادة الوقيعة بين الشعب بعضه بعضًا، وإجهاض مكاسب الثورة المصرية، وتفريغها من مضمونها.

وها هنا يثور سؤال أثير من قبل مرارًا في وجوه المطالبين بتحكيم الشريعة



ألا وهو: هل يجوز التدرج في العمل بالأحكام؟

وأقول -وبالله التوفيق- إنه لا بد من التدرج مع قوم هذا شأنهم الذي ذكرته آنفًا، لكن للتدرج شروط منها:

أ. إحسان النية بوجوب العمل بكل الشريعة في نهاية المطاف، والعزم على ذلك.

ب. العمل بما يمكن العمل به من أحكام الشريعة والابتداء به فورًا، وهذا الممكن يقدره أهل الحل والعقد من علماء الشريعة والدعاة والعاملين ولا يُترك لألاعيب السياسيين ومماطلاتهم، وحبذا لو أُنشئت لجنة خاصة لهذا الغرض ذات صلاحيات تمكنها من العمل بحرية ودأب للوصول بمصرَ وأهلها إلى بر الأمان؛ أمان الشريعة الذي لا أمان في غيره.

جـ. النص بوضوح لا لبس فيه في الدستور على أن الشريعة الإسلامية هي المصدر الوحيد للتشريع؛ إذ لا يجوز الاستقاء من مصدر غير الشريعة فيما فيه نص شرعي في ديننا.

د. ألا يطول هذا التدرج بل توضع مدة معقولة مقبولة يقدرها علماء الشريعة والدعاة الفضلاء، خاصة أن الشعب مهيئٌ لهذا الآن عقب الثورة.

خامسًا: الرفق بالشعب:

إن الشعب المصري اليوم بحاجة إلى يد حانية تمسح آلامه، وتزيح همومه،

وتفرّج كروبه، وتنفس عنه عظيم ما يجد، وتعيد تربيته تربية إسلامية تؤهله لاستلام مفاتيح الريادة والسيادة، وليس أحد أحق بهذا من الدعاة الربانيين، والعاملين الصالحين، بالحكمة والموعظة الحسنة، والحوار اللين الرفيق، وتلمس مشكلات الشعب والعمل على حلها، والحرية التي بمصرَ الآن هي فرصة عظيمة للدعاة والعاملين، عليهم أن يستفيدوا منها في الانطلاقة الجادة لإصلاح الشعب، ودعوته إلى الله تعالى.

ولا بد أن يُعلم أن الشعب المصري تعرض لتغريب طويل دام عقودًا، وأنه لا بد من التدرج في إرجاعه إلى الجادة، فإن كثيرًا من الناس قد خفيت عليه معالم الحق، وانطمست في نفسه شعائر الإسلام وشرائعه بسبب التجهيل الطويل الذي سبّبه القائمون على المناهج التربوية ووسائل الإعلام المتعددة ممن لم يتقوا الله تعالى في هذا الشعب العظيم، ولعلي أختم بدعوة الحكومة المصرية المنتخبة المرتقبة أن تعيد النظر في كل وسائل الإعلام ومناهج التعليم، وطرائق إدارة الوزارات الخدمية، وأن تكون متأهبة لحمل المسئولية الجسيمة العظيمة التي تنتظرها، وأن تحاول جاهدة أن تعيد للناس الثقة في أنفسهم وبلدهم وأصحاب المناصب والأعمال فيها، وهذا ليس بالأمر المستحيل، بإذن الله تعالى، فإن حكومة حزب العدالة والتنمية التركية أمسكت بزمام البلاد، وقد تردت إلى هوة سحيقة فما زالت بها جدًّا واجتهادًا وعملاً متواصلاً حتى أصبحت ديار الترك اليوم تضاهي أحسن البلاد في العالم، ومصر وشعبها -لو فُتح الباب أمامهم- أكثر قدرة من الترك، وأحسن دأبًا واجتهادًا، ولا ينقصهم شيء إلا الاعتصام بحبل الله تعالى والتوكل عليه والرجوع إليه، وما أحسن

قوله سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

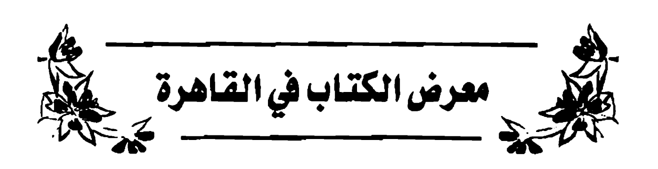
وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤].

والله أكبر والعزة للإسلام والمسلمين.

* * *

ملحق ببعض المقالات التي كتبتها قبل الثورة المصرية وبعدها، مما له علاقة بموضوع الكتاب





حضرت معرض الكتاب في القاهرة في دورته الرابعة والثلاثين، وكان متميزًا كالعادة بميزات جيدة، وكانت تخالطها بعض السلبيات، أما الإيجابيات فهي في تصوري كالتالي:

١) إقبال الناس الكثيف الملاحظ على الكتاب الإسلامي، وهجرهم للكتابات الأخرى، وأعني بالكتاب الإسلامي الكتاب الذي يتحدث عن الإسلام وحضارته وتراثه وتاريخه وثقافته، وينضم إلى ذلك ما عبر عن كل ما سبق بالوسائل المسموعة والمرئية من أشرطة وأقراص حاسوبية، فكل ذلك للإسلام فيه القدح المعلى والنصيب الأوفر، وقد ولى ولله الحمد إلى غير رجعة العصر الذي كان الناس يقبلون فيه على كتابات غير إسلامية، فلله الحمد والمنة، ومن كان يملك أدنى بصيرة وفهم وملاحظة يدرك هذا للوهلة الأولى، أما الكتابات العلمية المحضة من علوم واقتصاد ورياضيات فالإقبال عليها متوسط أو ضعيف بحسب لغة الكتاب، وجِدته أو قِدمه، وأهميته.

٢) رخص سعر الكتاب المصري -خاصة مع تدني سعر صرف الجنيه- مقارنة بكتب البلدان الأخرى، وهذا الرخص حقيقي وظاهر، وهو فرصة لمن أراد أن يؤسس مكتبة خاصة جيدة، وهنالك سوق داخل المعرض للكتاب المستعمل ضخم ومتنوع ومفيد، وبعض الكتب فيها سعرها أرخص من نصف ريال سعودي.

٣) حسن المعاملة والبشر والاهتمام من قبل كثير من باعة الكتب وتعاونهم مع المشترين وهمتهم الظاهرة في تعاملهم معهم، وإن كانت هذه ميزة عامة في الشعب المصري الشقيق لكنها كانت ظاهرة في المعرض واضحة، وهي تريح الناس وتحببهم في الكتاب وترغبهم في شرائه.

٤) طريقة عرض الكتب وتوزيعها جيدة في عمومها حيث يسهل على الناس الوصول إلى ما يريدون، ودعنا نقل إنها مناسبة في العموم وإن كان هناك بعض النقص الذي لا يمكن أن يخلو من معرض بهذا الحجم.

أما السلبيات التي إذا تجنبت كان للمعرض التميز الأكبر، فهي الآتي في تصوري:

١) عدم الإعلان عن موعد الندوات وموضوعها بطريقة مناسبة، فمعظم الندوات لم أستطع أن أعرف عنها شيئًا.

٢) وقوع المعرض في فصل البرد القارس، فلو أجل إلى الربيع مثلاً لكان أولى وأحسن، خاصة أن كثيرًا من المعروضات تعرض في الهواء الطلق أو داخل قاعات متصلة بالهواء الخارجي شديدة البرودة.

٣) قلة دورات المياه قلة ملحوظة، وقدم الموجود منها، وهذا إن اجتمع مع تباعد المسافات جدًّا بين قاعات المعرض علم القارئ ما أرمي إليه في ذكري هذه السلبية، ولا تنسَ البرد القارس الذي يضاعف حاجة المرء إلى أماكن قضاء الحاجة هذه.

٤) الإزعاج المنبعث من تضارب أصوات الباعة وعلوها واختلاطها، وأيضًا منبعث من مكبرات الصوت التي تجمع بين الأغاني المائعة والأناشيد

الإسلامية والقرآن في وقت واحد، فلك أن تتصور كيف يكون الأمر حينئذٍ.

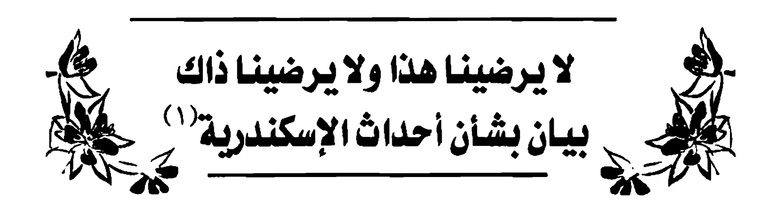
٥) الازدحام الشديد واختلاط الرجال بالنساء على نحو مزعج ، وأخشى أن يكون فيه بعض الحرج الشرعي، وعلى القائمين على المعرض مراعاة ذلك قدر الإمكان، نعم أعلم أنه أمر صعب وقد يكون غير عملي لكن يمكن تنظيم الأمر قليلاً بجعل مداخل خاصة للنساء في القاعات شديدة الازدحام، وإقامة ما يشبه شرطة الآداب إذ بعض الناس يستغل هذا المكان ليفسد أو ليبث شيئًا من غوايته وفاحشته.

٦) وجود بعض الكتب المخلة بالآداب، وهذا كثير في دور الكتب القومية والحداثية، وهو كثير أيضًا في سوق الكتب المستعملة، فحبذا لو كان هناك مراقبة لهذا الأمر حتى لا يتأذى به الناس ويفسد به الشباب.

وفي النهاية أقول:

إن تلك السلبيات المذكورة لا تقلل من قيمة المعرض، وأدعو القراء كافة لحضوره فهو مناسبة ثقافية رائعة خاصة أن الناس في هذا العصر تكاد تنصرف عن الكتاب والمكتبات، فالمعرض يغري أشد الناس انصرافًا عن الكتاب بشراء شيء ما منه، والله الموفق.

* * *



لا يرضينا هذا ولا يرضينا ذاك
بيان بشأن أحداث الإسكندرية[(١)]

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، وبعد:

فإنه من المعلوم من دين الإسلام حرمة التعرض لأهل الذمة في بلاد الإسلام -إذا التزموا بعقد الذمة- وجاء في التشديد في ذلك بضعة أحاديث لسيد المرسلين عليه أفضل الصلوات وأتم التسليم، ولذلك فإنه لا يرضينا -معشر المشايخ وطلبة العلم- ما حدث في كنيسة الإسكندرية قبل بضعة أيام، ونرى في ذلك خروجًا عن المنهج الإسلامي في التعامل مع أهل الذمة، وسفكًا للدماء المعصومة، وإزهاقًا لأرواح لا يحل إزهاقها على ذلك الوجه، وهذا هو ما يجب على المشايخ وطلبة العلم بيانه للناس أجمعين، حتى لا يتخرّص مُتَخَرِّص، ولا يتقول عليهم متقول، ولا يظن بهم أحد غير ذلك.

- لكن كما أنه لا يرضينا ما حدث فإنه لا يرضينا الآتي؛ براءةً للذمة ونصحًا للأمة، والتصاقًا بأحكام الشرع المطهر:

١) لا يرضينا أن رؤساء النصارى الدينيين لا يعترفون أصلاً بعقد الذمة،

---

(١) كنت قد كتبت هذه المقالة قبل أن تظهر علاقة حبيب العادلي وزير الداخلية بجريمة تفجير كنيسة القديسين.

ويعلنون ذلك ليل نهار، وهذا -في حد ذاته- خرق لعهد الذمة مِن قِبَل النصارى، ومحرض لعامة النصارى ضد المسلمين، وممهد لفتن لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى.

٢) ولا يرضينا أن يقول رؤساء النصارى عنا علنًا جهارًا بلا استحياء إنا -معشر المسلمين- ضيوف عليهم في مصر، ويقصدون بذلك أننا دُخلاء، وأنهم هم أصحاب الأرض، وهذا -في حد ذاته- خرق لعهد الذمة مِن قِبَل النصارى، ومهيج لعامة النصارى ضد المسلمين، وممزق للوحدة الوطنية.

٣) ولا يرضينا أن تبنى الكنائس في مصر على هيئة قلاع ضخمة وحصون شامخة، ويرفع فوقها الصليب عاليًا في تحدٍّ واضح لعقد الذمة الذي ينهاهم عن هذا، ولا زال البناء يُبنى ليل نهار -على هذه الطريقة- في كل أنحاء مصر؛ وهو تحدٍّ سافر لمشاعر كل المسلمين الذين في مصر وغيرها وليس فقط للمصريين، وفيه إيغار لصدور المسلمين، واستهزاء بهم وبدينهم، والتهاون بقدرهم ومنزلتهم في بلادهم بلاد الإسلام.

٤) ولا يرضينا أبدًا أن تُسَلَّم أخواتنا وفاء قسطنطين وكاميليا شحاتة وغيرهما للكنيسة لتفتنهن عن دينهن بل الأرجح أنها قتلتهن، في تحدٍّ صارخ واضح لمشاعر ألف وخمسمائة مليون مسلم وثمانين مليون مصري، وهذا أوضح صور خرق عهد الذمة مِن قبل النصارى في مِصر، وفي هذا تمزيق لشمل الوحدة الوطنية.

٥) ولا يرضينا أبدًا هذا التغوّل للنصارى في مصر، بحيث أصبح للكنيسة مؤسساتها الإعلامية والاقتصادية والأمنية -إي والله الأمنية- فتقتل من تشاء

وتسجن من تشاء بحيث أصبحت دولة حقيقية داخل دولة مصر، في تحدٍّ سافر للمصريين بل للمسلمين أجمعين، وهذا -أيضًا- من أوضح صور خرق عهد الذمة من قِبَل نصارى مصر، وهو من أعظم الأسباب الممهدات لقيام فتنة طائفية لا تبقي ولا تذر.

٦) ولا يُرضينا أبدًا هذا الضعف الواضح للحكومة المصرية أمام الكنيسة واسترضاءها في كل وقت وكل مناسبة، والسكوت التام عن جرائمها السابقة الذكر بحيث أصبح مشتهرًا بين الخاص والعام أن الحكومة المصرية لا تستطيع أن تفعل شيئًا ذا بال أمام سطوة الكنيسة، ولا أقول هذا الكلام تحريضًا -فأنا أعلم أني إنما أنفخ في رماد- لكني أقوله بيانًا للواقع وإبراء للذمة بالنصح، فهذا الضعف هو مفتاح الشرور كلها، والحزم في الحق وبالحق لهو أعظم ضامن للأمن والهدوء.

- ثم أليست هذه الجرائم الكنسية والضعف الشديد للدولة إزاءها هو الذي يفجر الفتنة الطائفية ويوغر صدور الأغلبية المسلمة الكاسحة في مصر.

- أليست المبالغة في تعداد نفوس النصارى في مصر، والمطالبة الملحة المستمرة بحقوق لهم مزعومة، والصياح بها ليل نهار في وسائل الإعلام، هو الذي يفجر الفتنة الطائفية؟

- أليس التحريض الخفي والظاهر للقوى الدولية على مصر من قِبل بعض أقباط المهجر بمعونة بعض أقباط الداخل هو الذي يفجر الفتنة الطائفية؟

إن الفتنة الطائفية إذا أُريد تجنبها فلا بد من معالجة أسبابها التي ذكرتها

آنفًا، وهي أسباب معلومة معروفة فإذا أُتي عليها دراسة وعلاجًا فساعتئذٍ يمكن القول بأننا وضعنا أيدينا على المفاتيح الصحيحة التي تفتح لنا باب الأمان الطائفي.

ولي في ختام مقالتي نصيحتان: إحداهما لعامة مسلمي مصر والأخرى لخواصّها، وتحذير لمن يريد الاصطياد في الماء العكر:

أما نصيحتي للخواص فأقول:

قد رأيت كثيرًا من كتاباتكم في الاعتراض على هذا الذي جرى فلم أقف -فيما رأيت وفيما علمت- على بيان متوازن ينكر ما حدث في الإسكندرية وفي الوقت نفسه يبين أسباب وجذور هذه الفتنة مما ذكرت بعضه آنفًا فينكر على رؤساء الكنيسة صنيعهم الآثم الفاجر، فأنتم موجهو الشعب وصفوته فلا بد من ذكر الحقيقة كاملة للشعب بل لكل المسلمين؛ لأن هذا أمانة في أعناقكم خاصةً مشايخكم وطلاب العلم منكم، ولئن قيل إن هذا ليس هو الوقت المناسب فأقول بل بيان شرع الله وتوضيحه في كل الأحداث هو المناسب تمامًا، وذكر أسباب وجذور الفتنة هو المناسب في كل وقت وحين، حتى لا يختلط الأمر على أجيال المسلمين، ومن أجل بيان الحق لأجيال النصارى وإعلامهم بما يفعل رؤساؤهم من كيد ومكر وتآمر سيعود عليهم هم بالضرر الشديد والأكيد إذا لم ينكروا على باباهم ومعاونيه، ويأخذوا على يديه.

- **وأما النصيحة الأخرى للعوام** فهي التحذير مما حصل في المظاهرات -الداعمة للوحدة الوطنية بعد الحادثة- من قبل شباب المسلمين وشاباتهم من رفع للهلال والصليب معًا، فلا يجوز في دين الإسلام أن يعلو

الصليب ويرفعه مسلم أو مسلمة أبدًا، فهذا الصنيع فيه خطورة شديدة على عقيدة من صنعه، وفيه خدش بل تمزيق لعقيدة الولاء والبراء، نعم نحن كلنا حريصون على الوحدة الوطنية لكن بدون تفريط في إسلامنا وهو أعظم ما نملك، ولا تساهل في عقيدتنا وهي أغلى ما عندنا، فالصليب إشارة إلى حادثة لا تصح عندنا، وقد بين الله في كتابنا أن المسيح عليه السلام لم يصلب ولم يقتل، فرفع الصليب -على هذا الوجه- فيه معاندة للنصوص الشرعية، ثم إن الصليب رمز لعقيدة النصارى وهي عقيدة باطلة عندنا نؤمن بأن من مات عليها فهو كافر مخلد في النار، فرفعه لا يجوز: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ [التوبة: ٦٢]، ولسنا أبدًا في سبيل إرضاء النصارى -وليسوا براضين- قابلين أن نتنازل عن ذرة من ديننا وعقيدتنا وعزتنا، والله أكبر: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

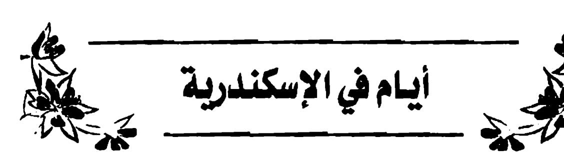
- **وأما التحذير** فهو لمن أراد أن يصطاد في الماء العكر، وهم جماعة من المأجورين من المتفلتين «الليبراليين» واللادينيين «العلمانيين» ممن هم على رأس كثير من المؤسسات الإعلامية والسياسية والاجتماعية، فقد حاول هؤلاء أن يلصقوا ما حدث بمن سموهم الأصوليين قبل معرفة نتائج التحقيق، وذكروا أن من أسباب هذا العمل هو المناهج الأصولية بزعمهم والتحريض المستمر والحقن الطائفي، وألصقوا كل ذلك بالمسلمين!! وفروا تمامًا من ذكر ما بينته آنفًا من أسباب وحقائق، وهذا ظلم للمسلمين، وتعدٍ عليهم، واستباق للتحقيقات، وانتهاز للفرص لتسوية الحساب مع الإسلاميين الذين نصب أولئك أنفسهم حربًا عليهم، فأحذرهم من التمادي في هذا المسلك المخالف

للشرع والمضاد لأوليات مبادئ أي قانون، وإن صنيعهم هذا يصيب في حوض التحريض والتهييج ضد المسلمين الصالحين، وهذا هو الذي دأب هؤلاء على صنيعه منذ أحداث أمريكا إلى يوم الناس هذا.

وختامًا أقول: إن مراعاة تطبيق عهد الذمة الذي وضعه الصحابة - وهم أطهر الخلق وأعقلهم وأشدهم حصافة وذكاء- بحذافيره، لهو الضامن الحقيقي للوحدة الوطنية، وقد عاش النصارى قرونًا طويلة في مصر تحت كنف المسلمين بهدوء وأمان ونالوا كل حقوقهم بعد أن نفذوا تعهداتهم وفعلوا ما يجب عليهم، فلنلتزم بهذا فإن فيه سعادة الجميع، ويحقق الأمن للجميع، ويرضي الجميع إلا من كان في قلبه مرض وغل وحقد.

هذا والله -تعالى- أعلم وأحكم، وأجلّ وأعظم، وصلِّ اللهم وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

* * *



أيام في الإسكندرية

قد زرت الإسكندرية مرارًا، فقدمتها أول مرة غلامًا سنة ١٣٩٢/ ١٩٧٢، وجئتها بعد ثلاث وعشرين سنة مارًّا بها في الطريق إلى ليبيا، حيث كان الطريق الجوي إليها مغلقًا بسبب العقوبات التي فرضت عليها آنذاك، وقد تحدثت عن هذا في حلقة أيام في ليبيا، ثم عدت إليها بعد أحد عشر عامًا زائرًا، ثم جئتها في سنة ١٤٣٠/ ٢٠٠٩.

ولقد شدني فيها قلعة قايتباي، وهي قلعة جليلة متينة أنشئت على شاطئ البحر، وقايتباي من أمثل سلاطين المماليك، وقد كان سلطانًا على مصر والشام والحجاز، وحكم مدة طويلة نسبيًّا استغرقت الثلث الأخير من القرن التاسع الهجري وأوائل العاشر، وكان فيه عدل ودين في الجملة، وله مآثر حسنة.

وزرت مكتبة الإسكندرية، وبناؤها على طراز غريب جميل، وهي قد بُنيت لتجدد عهد مكتبتها القديمة الأولى التي اتهم المستشرقون عمرو بن العاص - رضي الله عنه، فاتح مصر - زورًا وبهتانًا بحرقها، وليس للمسلمين عهد بحرق الكتب والمكتبات إنما هذا صنيع الصليبيين الذين أحرقوا مئات الآلاف من الكتب في الأندلس، وبعضها لم يكن له نظير في الدنيا، وبعضها كان النسخة الوحيدة الفريدة، ولقد عض الصليبيون اليد التي أحسنت إليهم؛ إذ كم مِن أحبار النصارى ورهبانهم ومقدميهم مَن درس في الأندلس على يد العلماء



المسلمين، الذين كانوا سادة في العلم وقادة؟ وكم من صناعات وزراعات وعلوم وفنون انتقلت إلى أوربا من الأندلس، لكن ما الصنيع مع المستشرقين الذين يغلب عليهم عدم الإنصاف، والتزوير، والتلبيس، والغش والخداع، ويصدق عليهم المثل العربي: رمتني بدائها وانسلت.

وزرت قصر فاروق في الإسكندرية «المنتزه» فرأيته قصرًا منيفًا تحيط به جنان من جوانبه فما أعظم تلاوة قول الله تعالى في ذلك المقام:

﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [الدخان: ٢٥-٢٨]، وكان للمصريين فاروق واحد فإذا بهم بعد الثورة عليه تتقاسمهم فواريق كثر، فأذاقوا البلاد والعباد الويلات، وجرّوا على مصر العزيزة النكبات، وأصلوها بنار هزائم متتاليات، وعهدنا بالمصريين أنهم هم المنتصرون منذ الصليبيين والتتار إلى الحملة الفرنسية في العصر الحديث، فصدق على فواريق مصر بعد فاروقها الأول قول الشاعر العربي:

والمستجير بعمرو عند كربته   كالمستجير من الرمضاء بالنار

ولقد جمعني مجلس في زيارتي الأخيرة للإسكندرية مع أحد مشايخها المقدمين، ودعاتها الأولين، ولم يرضَ أن أذكر اسمه حفاظًا على عمله من الرياء، حفظه الله، وحدثني حديثًا طويلاً فاضت أثناءه أعين، وخشعت قلوب، وعجب الحاضرون، فكان مما قاله رعاه الله تعالى وحفظه أنه كان أحد أعمدة الاتحاد الاشتراكي زمن الهالك عبد الناصر، وكان من منظريه والعالمين بميثاقه، والمجلّين لقيادته، الساهرين على الحفاظ عليه، والقائمين بتخريج طلابه،

وكانت له ثقة لا حد لها بالقيادة البائدة وبرئيسها الطاغية حتى جاءت النكبة العظمى والهزيمة الفاجعة في حرب ١٣٨٧/ ١٩٦٧، وتعرّت الناصرية، وفُضحت القومية، وخَزِيت الاشتراكية، وضعف يقين المعجبين بها، واهتزت قناعاتهم، وغشيهم من الهم ما غشيهم، وكانت هذه الهزيمة هي النعمة المُسْداة، والرحمة المهداة وكان ذلك الهم هو مفتاح الفرج؛ إذ تمهد للإسلام بعدها موطن فسيح، وثاب كثير من الناس إلى رشدهم.

فكان مما قاله -حفظه الله تعالى- أنه عقب هذه الهزيمة أصابه ما أصاب الكثيرين من تغير القناعات، فصار يتردد على مركز جماعة أنصار السنة في الإسكندرية، وأُعجب بهم، وحمد مكوثه معهم، وانسحب من الاتحاد الاشتراكي فلم يعد إليه ولله الحمد والمنة، وكان يقرأ مرة في صحيح البخاري فوقع على حديث «خمس من الفطرة» وقرأ فيه أن إعفاء اللحى من الفطرة فعجب وجاء إلى كبار جماعة أنصار السنة وكانوا يحلقون لحاهم على عادة أكثر الناس آنذاك وسألهم عن سبب حلقهم لحاهم ورغّبهم في إعفائها فقالوا له: وهل فعلنا كل السنن حتى لم يبقَ إلا الإعفاء؟! فلم يلتفت إلى قولهم وأطلق لحيته، وكان يعمل في المحاماة آنذاك فكان أول محامٍ ملتحٍ، وكان القضاة يعجبون منه، فانظروا -رعاكم الله- كيف كان الأمر في مصر آنذاك، بل في كل الدول العربية تقريبًا.

ثم قرأ أن الحجاب فرضٌ على النساء فجاء إلى امرأته ولم تكن محجبة، فأمرها بالحجاب، فقالت: كيف السبيل إلى الحجاب والناس سيستهزئون بي، فقال: لا بد من ذلك، وفي ١/ ٩/ ١٩٦٨/ ١٣٨٨هـ تحجبت امرأته، فكانت

أول امرأة في الإسكندرية تتحجب!!! وكان مما قاله: إن الزي الغالب آنذاك «الموضة» كانت لباس ما يسمى «الميكروجيب» أي اللباس القصير للغاية الفاضح، وهذا مما زاد الطين بِلة، وكان يعمل هو وزوجه في مكان واحد، فنزل معها إلى الحافلة ليركباها إلى مكان العمل فصارا فرجة للناظرين، ومحلاً للمستهزئين، ومرمى لسهام الطاعنين، فهو بلحيته وهي بحجابها، وبقيا على ذلك سنة كاملة، وهذا يدل بوضوح على مدى الجناية التي جنتها الناصرية على بلد هو للإسلام موئل، وللمسلمين حماية، وذلك طوال تاريخ الإسلام تقريبًا، فلله كم للناصرية من جرائم، وكم فعلت من القبائح، وكم أضلت من أناس، وهي لم تحاكم إلى اليوم على ما فعلته من الجرائم والقبائح، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

ومن يصدق أنه لم يكن بالإسكندرية -ذلك الثغر العظيم- امرأة محجبة؟! إن هذا من العجائب التي تروى وتذكر، وقد ذكر لي أحد الإخوة من المملكة أنه كان بالإسكندرية سنة ١٣٩٢/ ١٩٧٢ يدرس في جامعتها فلم يجد فيها فتاة واحدة محجبة آنذاك!! وهذا أيضًا من مؤكدات حديث الشيخ- حفظه الله- ومن الشواهد عليه، وأنا لست في حاجة إلى مؤكد لحديث الشيخ -حفظه الله تعالى- إنما سقت للقراء ذلك الشاهد لمزيد من التعجيب لحال الناس آنذاك ولتقوية كلام الشيخ في نفوس القارئين، ونعوذ بالله من الثورة المشئومة -ثورة يوليو- التي دمرت وأفسدت وأضلت.

ثم أخبرني -حفظه الله- أنه قد حذا حذو امرأته امرأة أخرى وهي زوج أستاذ داعية مشهور هنالك كان في السجن آنذاك، ثم تتابع النسوة على مُكث

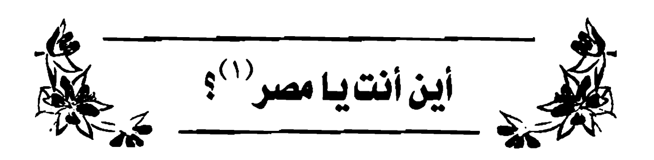
ومهل في لبس الحجاب حتى آن أوان الصحوة الجليلة، حيث أصبح الحجاب منتشرًا، وأتى الله بنيان القوم الضالين المضلين من القواعد، ولله الحمد والمنة، ولذلك حديث طويل لا يسعني إيراده هاهنا.

وقد حدثني الشيخ بحديث طويل آخر هو أجلّ وأعظم لكني سأورده في مكان آخر هو به أليق وبحاله ألصق إن شاء الله تعالى.

وقد زرت الشيخ أحمد المحلاوي -حفظه الله تعالى- فوجدت أن الله تعالى قد متعه بحواسه وقد جاز الثمانين ببضع سنين، ووجدته يجيب على أسئلة المستفتين بالهاتف، وسألني عن أحوالي، وأنست به، حفظه الله تعالى، وهو صاحب القصة المشهورة مع رئيس مصر السابق أنور السادات حيث ذكره في التلفاز، وذكر أنه ملقى في السجن مثل الكلب!! فإنا لله وإنا إليه راجعون، وله قصة رائعة أيضًا سأوردها في الجزء الثاني من الذكريات إن شاء الله تعالى مع بقية قصة شيخ الإسكندرية التي أوردتها في هذه الحلقة، وحسبي أنه قد نبهت القراء لفضلهما، ونوهت بعملهما، وسأورد قصتيهما على وجهها إن شاء الله تعالى في الجزء الثاني من الذكريات، كما ذكرت آنفًا والله المستعان.

* * *





أين أنت يا مصر[(١)]؟

المتأمل لما يجري في الأمة من أحداث عظام كثيرة لا يمكن إلا أن يعجب لانعزال مصر عنها، وهي القوة العربية الكبرى والوالدة الرؤوم، فمن الفلبين، إلى فطاني في تايلاند، إلى كشمير، إلى الشيشان ومصر ليس لها صوت فيما يجري في تلك البلدان من أحداث، وإذا أتينا على قضايا البلاد العربية المجاورة لمصر وجدنا الحال أعجب وأغرب، ففلسطين تغلي، ولبنان تضرب ليل نهار، ودارفور محاصرة، والعراق يئن، هذا كله ومصر ساكتة على وجه غريب مريب، وإن نطقت فبالأمر بضبط النفس، ومناشدة الأطراف المختلفة؟!

هذا ومع عدائنا الكامل لنظام عبد الناصر لمخالفته التامة للتوجه الإسلامي إلا أنه لم يكن بهذا السوء والصمت المطبق كما نرى اليوم ، فقد منع عبد الناصر على سوئه عبد الكريم قاسم رئيس العراق في السبعينيات الهجرية/ الخمسينيات الميلادية من غزو الكويت، وكان له -على مساوئه التي لا تعد كثرة ولا تحصى- هيبة وكلمة رادعة، وكان له معاونة لحركات الاستقلال في الجزائر وغيرها، أما الآن فيشتد عجبنا من السكوت المصري العجيب، فقد أفلحت أمريكا وربيبها النظام اليهودي البغيض في عزل مصر منذ سنة ١٣٩٩/ ١٩٧٩م.

---

(١) هذا مقال كتبته قبل الثورة بزمان طويل.

مصر ليس لها موقف مؤثر إيجابي فيما يجري من أحداث عظام، وهذا من كبرى الدول العربية أمر معيب، لم تكن مصر على مدار تاريخها هكذا بل كان لها مواقف مشرقة، فقد أمدت أهل الجزيرة بطعام عام الرمادة زمان الفاروق عمر رضي الله عنه، ومنها انطلقت الفتوحات الإسلامية لشمال إفريقية، وكان لها أثر بالغ في رد الحملات الصليبية، وأسر لويس التاسع إمبراطور فرنسا، وكان لها اليد البيضاء في قمع التتار وهزيمتهم في عين جالوت في فلسطين سنة ٦٥٨م، وطهر المماليك من مصر الساحل الشامي من الصليبيين بإخراجهم من عكا آخر معاقلهم سنة ٦٩٠ على يد الأشرف خليل، وشاركت مصر في معارك الدولة العثمانية وأنجدتها مرارًا وما أحداث جزيرة كريت عنا ببعيد، وكان لمصر مشاركات متنوعة عديدة في فلسطين في العصر الحديث، وكان لها أثر لا بأس به.

أما اليوم فلم نعد نسمع لمصر إلا مناشدات ونداءات لا تسمن ولا تغني من جوع ، وتُضرب أخواتها وهي تنظر !! أما الشعب في مصر فهو متعاطف مع ما يجري ، فكم من مظاهرات قام بها وقُمعت !! وكم من اعتصامات وفُرقت !! وكم من محاولات عبر الحدود وأجهضت!! وكم من مقاطعات وحُوربت !! وكم من خطباء مُنعوا ، ودعاة سُجنوا، وجامعي تبرعات ضُيق عليهم، والإعلام المصري بقنواته الرسمية وجرائده الحكومية، وإذاعاته المكرورة، وخطاباته المسرودة بعيد كل البعد عن ملامسة مصائب الشعوب العربية، ومآسي الدول الإسلامية!!

وليت الأمر وقف عند هذا الحد بل صار الإعلام المصري الرسمي مادة



للفساد، وصار يتنافس مع الإعلام اللبناني سيئ الذكر في إضلال الشعوب وإفسادها وإلهائها عن واجبها.

وصار الشعار المرفوع مصر للمصريين هو الأمر المتعارف عليه، وهو الذي يجري غرسه في أذهان المصريين وقلوبهم، وكلما ذُكرت مصر بواجبها صاح المسئولون: لقد فعلنا في فلسطين ما فعلنا، وشاركنا هنا وشاركنا هناك، ويكفي ما قدمناه.

فيا عجبًا وهل للمكارم نهاية ؟! وهل للواجبات حد زمني تقف عنده ؟! يحصل هذا الذي يحصل في مصر وهي التي كانت بعد الله -تعالى- معقد آمال الأمة، وموضع نظرها، ومحل مشكلاتها، فصارت مهمشة لا قيمة لها، وهذا العدو اليهودي يسرح ويمرح في مقدسات الأمة، ويضرب من شاء، ويقتل من شاء، ويعتدي على أية دولة شاء، ولا نسمع من مصر كلمة تهديد له، ولا ردع، بل إن بعض مواقف الدول الأوربية وتصريحاتها أحسن من مواقف مصر وتصريحاتها !!

وكلامي هذا موجه لمصر حكومة ورئيسًا، ولكثير من أفراد الشعب النائم اللاهي، وهناك فئة من الشعب اختارت ألا تعيش لنفسها ولشهواتها فقط، واختارت الطريق الصعبة الخطرة، طريقَ مساندة الشعوب الإسلامية ومؤازرتها، ونصرة قضاياها إعلاميًّا وسياسيًّا واقتصاديًّا وبشتى أنواع النصرة، ولو فتحت لهم الحدود لشاركوا بالنفس ولنصروا إخوانهم.

وهي قوى شعبة متعددة منها حركة كفاية، وشخصيات مستقلة وحزبية شجاعة مخلصة، وعلى رأس كل هؤلاء حركة الإخوان المسلمين التي يقودها

اليوم بكفاءة وحيوية ظاهرة مرشدها الشجاع الشهم الأستاذ مهدي عاكف صاحب المروءة الظاهرة، والتصريحات الباهرة، وأرجو أن يتحقق على يديه وأيدي إخوانه من مصر ما نرجو لمصر من مكانة ومشاركة فاعلة مؤثرة.

وأخاطب في النهاية حكومة مصر ورئيسها ، وقيادات الجيش المصري، وكل القوى المؤثرة أن تتقي الله في قضايا الأمة المصيرية، وأن يفعلوا كل ما في وسعهم فعله قبل الوقوف بين يدي الله والحساب العسير على التفريط الخطير ، وأن يكونوا على مستوى تطلعات شعوبهم وآمالها ورغباتها؛ فإن لم يفعلوا فلا أقل من أن يدعوا الشعب يفعل، ولا يحاربوه ليل نهار، ولا يقفوا في وجهه، فهذا أدنى ما ينبغي أن يفعلوه، وأقل ما يجب أن يقدموه، والله المستعان، واسلمي يا مصر !!

* * *





أخيرًا يا مصر



لقد أثلج صدري تلك المشاركة الرائعة المصرية في الحملة ضد الرافضي الخبيث الذي تطاول على مقام إحدى عظيمات النساء التي كان لها أثر عظيم في البناء الفقهي الإسلامي في الصدر الأول، وهي فوق ذلك أحب البشر إلى سيدنا رسول الله ﷺ الذي أثنى عليها في كثير من أحاديثه، الشريفة المنيفة عائشة الصديقة بنت الصديق الأكبر، رضي الله عنها وعن أبيها.

ولقد سررت سرورًا عظيمًا عندما قامت قنوات مصرية لتدافع عن الطاهرة العفيفة الشريفة، وتبرز محاسنها وتلعن سابها المتنقص منها، وقام شيوخ مصريون كثيرون بواجبهم في هذه الحملة الجليلة، ومصدر سروري هو التالي:

١) إن مصر والكثرة الكاثرة من مشايخها كانوا في حيدة تامة وانعزال كامل محكم عن المشاركة في فضح جرائم الرافضة وسوءاتهم العقدية والفكرية، بل كان بعض البارزين من مشايخها يجهل تمامًا هذه السوءات، حتى أن الشيخ سيد سابق -رحمه الله تعالى، وهو المقدم في الشيوخ المصريين- أسرّ إلى بعض إخواننا أنه إلى أن جاء إلى المملكة كان يظن أن الخلاف بين السنة والشيعة منحصر في سبع عشرة مسألة فقهية فقط!! فلذلك جاءت مواقف أكثر الشيوخ المصريين باهتة ضعيفة في قضايا الشيعة القديمة منها والمعاصرة، فإذا بهذه الحادثة تشعل حملة غير مسبوقة في تاريخ مصر الحديث ضد أولئك الروافض الذين لم يرعوا في حبيبة رسول الله ﷺ إلا ولا ذمة، وشارك شيوخ

مصريون كثيرون في هذه الحملة المباركة، ولله الحمد والمنة.

٢) إن هذا الموقف هو استكمال لما قام به الشيخ الفاضل الدكتور يوسف القرضاوي قبل عام تقريبًا من فضح لمخططات الروافض الذين يسعون لنشر التشيع والرفض في بلاد الإسلام الطاهرة المطهرة من خبائث معتقدهم، ولا يمكن لأحد أن يتهم الشيخ يوسف بأنه متحامل على الرافضة؛ وذلك لأنه ظل أكثر من نصف قرن يردد أن الرافضة هم إخواننا ويصلون إلى قبلتنا وإلى آخر تلك المقولة المعروفة، فلما تبين له أنهم أعداء للسنة، وأن مخططاتهم خطرة، وأن معتقداتهم خبيثة تبرأ منهم في وقفة جليلة رائعة -وإن كانت متأخرة جدًّا- فقامت قيامة الروافض عليه وكالوا له من التهم والسباب ما أعف عن ذكره هاهنا، فاعتبروا يا أولي الأبصار.

٣) إن الشعب المصري كان يجهل حال الشيعة الروافض، وذلك لأنه بعد أن طهر نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي -رحمة الله عليهما- بلاد مصر من رجس الدولة العبيدية «الفاطمية» لم تتلوث مصر بحمد الله بعقيدة باطلة ولا بمذهب معوج ولا بنحلة منحولة مدخولة، فظلت الأكثرية الكاثرة من الشعب المصري حقبًا طويلة لا تدري عن جرائم الروافض ومعتقداتهم الشنيعة شيئًا، فلما أراد الله -تعالى- بحكمته وجلال قدرته توعية الشعب المصري بخبث أولئك الروافض أطلعهم على سوء معتقدهم في عامة الصحابة وفي عائشة خاصة عن طريق القنوات المصرية وغير المصرية التي فضحت أولئك وعَرّتهم على وجه ليس له مثيل ولا شبيه في العصر الحديث، ففهم كثير من المصريين ما يقال على ألسنة الروافض من خبث وسوء، وما تنطوي عليه نفوسهم من المعتقدات الباطلة، وأظن أن توعية الشعب المصري بما يجري من



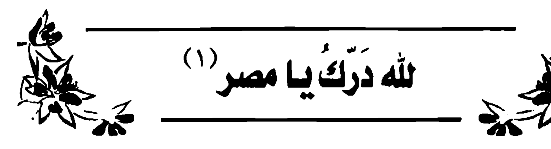
أولئك الضالين أمر مهم جدًّا حتى ينضم للحملة الجليلة ضد الروافض التي بدأت تؤتي ثمارها ولله الحمد، والعقبى للشعوب الغافلة الأخرى مثل شعوب المغرب العربي الكبير، والأتراك، والسودان، وشعوب الملايو، وغيرهم من الذين لا يكادون يعرفون شيئًا عن خطر الشيعة وضلال معتقدهم.

هذا الذي جعلني أُسَرّ سرورًا بالغًا غايته بهذه الحملة المصرية على العقيدة الرافضية.

وأرجو ألا يتهمني أحد بالاتهامات المكررة المعروفة بأنني أفرق الصف، وأن هذا الكلام يصب في مصلحة أمريكا وإسرائيل، وأن هذا ليس وقت الحديث عن هذه الموضوعات، فهذا الكلام مردود على قائله لسببين:

الأول: لأن الانتصار لعقيدتنا وصحابة رسولنا ﷺ ورضي عنهم أغلى علينا من كل الاعتبارات السياسية والمصلحية الموهومة التي لن ننتصر بها مهما استند عليها الواهمون والمضللون.

والسبب الآخر: هو أننا لم نرَ من الروافض يومًا مراعاة للسنة في شيء، وليس أدل على ذلك من صنيعهم في العراق لما احتلوها، ومن صنيعهم في بقيع الغرقد، ومن تهديداتهم للمملكة عن طريق دعم الحوثيين، ومن تهديداتهم للبحرين، ومن محاولة تصدير باطلهم للسودان والمغرب العربي الكبير ومصر وغيرها من بلاد السنة والإسلام، فلماذا لا يوجه الحديث إليهم هم بأن يتقوا الله -تعالى- ويكفوا عن محاربة السنة في كل مكان وفي قلب بلادهم إيران؟ ولماذا يؤمر أهل السنة دائمًا بالكف والهدوء وهؤلاء يملئون بلادنا باطلاً وسوءًا، والله المستعان.




لله دَرّكُ يا مصر[1]

كنت قد كتبت مقالة قبل سنوات بعنوان «أين أنت يا مصر» توجعت فيها من ضعف أثر مصر حكومة وشعبًا فيما يجري على المسلمين من أحداث، ولم يدفعني لكتابة تلك المقالة إلا معرفتي بقدر مصر وقدرتها على ريادة العالم الإسلامي.

وكم حصل من مناقشات طويلة مع إخوة لي من مصر وغيرها وثار فيها سؤال مهم: أين الشعب المصري؟ ولماذا لا يثور على الظلم والظالمين؟ ولماذا يرضون بالذل والهوان منذ أيام العبد الخاسر إلى زمن هذا الطاغية؟

ولماذا يسكتون والحاكم قد تعاون مع اليهود إلى أقصى حد، بل ساعدهم أكثر المساعدة في الجوانب السياسية والاقتصادية والعسكرية، حتى صار يعد أكبر عميل في المنطقة لأعداء الإسلام من صليبيين ويهود وغيرهم، وبرئ من أهل غزة بل حاربهم بكل جهده وطاقته، وخذلهم أشد الخذلان كما هو معلوم، وقد أقصى الشريعة من الحكم بل حاربها وحارب المنادين بها بكل جهده، ومكن للنصارى في مصر حتى صاروا يعدون البلد بلدهم والمسلمين ضيوفًا عليهم!! واجترأوا على الكيد والتآمر ضد المسلمين حتى صارت بعض الكنائس سجونًا وأوكارًا يُعذب فيها من اهتدى للدين الحق من النصارى، بل

---

(١) هذا مقال كتبته أثناء الثورة المصرية وقبل سقوط نظام الطاغية.



صار بعض النصارى يسبون علنًا دين الإسلام ويذمونه، ويتبارون في بناء الكنائس التي كالقلاع ويكثرون منها كثرة أفضت إلى نقض عهد الذمة تمامًا، وهذا الحاكم حارب الصالحين ومكن للنصارى الكافرين !!

وزج بمئات الآلاف من الدعاة والمشايخ في السجون خلال سنوات حكمه الثلاثين، وقتل مئات منهم، وأذاق الشعب ألوانًا من الفقر والحرمان حتى صار يُضرب بحاجته المثل، وطمس المواهب في مصر ودفعها للخروج إلى بلاد الله تعالى الواسعة، وحارب التقنية، وأغلق مصنع الطائرات، وأخرج من مناهج التعليم كل ما ينفع المصريين في دينهم ودنياهم، باختصار إن هذا الطاغية قد نهب ثروات مصر، وحرم شعبها من التقدم والرفاهية، ومن مشاركة إخوانهم المسلمين أفراحهم وأحزانهم، ومكن لأعداء الله فيها، وحارب الدعاة والصالحين.

وكان السؤال الملحّ الذي يدور في تلك الجلسات والمشار إليها آنفًا: إلى متى يصبر الشعب المصري على هذا الظلم والطغيان؟! ولماذا يصبرون أصلاً؟

فلما قامت ثورة تونس المجيدة وطُرد الطاغية كثر السؤال عما يمكن أن يقوم به المصريون بعد العمل الرائع الذي قام به التونسيون؟ وهل سيكملون المسيرة الجليلة؟

وبينما نحن نترقب الفجر الصادق إذا بالأنباء الرائعة تصل إلينا من أن الشعب المصري العظيم قرر الثورة على الطاغية وحكمه، وإذا بنا نرى أعظم ثورة للشعب المصري في تاريخه مطلقًا منذ أن وُجد في تاريخ البشرية، وإذا بالشعب المصري الذي اتهم طويلاً بأنه شعب نائم، لا قدرة له على مقارعة

الظلم والطغيان، وأنه شعب أليف وادع لين هين، إذا بهذا الشعب ينتفض انتفاضة الأسد الهصور الجائع إلى الحرية والكرامة والحقوق، وإذا به يهز عرش الطاغية فيهرول معينًا نائبًا له بعد ثلاثين عامًا من الرفض والإباء مضمرًا تعيين ولده مكانه، فخيب الله سعيه، وانقلع ولده للأبد ولله الحمد والمنة، وإذا بقرارات التغيير التي حرم منها الشعب المصري طويلاً تترى مؤكدة أن الطاغية لا بد من حصاره ليقلع عن طغيانه أو لينقلع إلى الأبد إن شاء الله تعالى.

أزف التهنئة العظيمة، والبشرى الجليلة لأهل مصر الأبطال الذين أخلفوا ظن الناس فيهم، وأبرزوا وجه مصر الأصيل، مصر الإسلام والعروبة، مصر التي نشرت الإسلام في إفريقيا طولاً وعرضًا، مصر التي كانت عاصمة الإسلام بعد بغداد، مصر التي هزمت التتار وأوقفت زحفهم في عين جالوت سنة ٦٥٨هـ بعد قرابة خمسين عامًا من الانتصار على المسلمين، ومصر هي التي طهرت الساحل الشامي من الصليبيين بعد طرد الأشرف خليل المملوكي لهم من عكا سنة ٦٩٠هـ، ومصر هي التي صارت عاصمة الإسلام بعد سقوط بغداد، ومصر هي التي وقفت سدًّا منيعًا أمام كل الهجمات على الإسلام والمسلمين طوال تاريخها إلى أن نُكبت بثورة يوليو التي أكلت الأخضر واليابس، وتقهقرت فيها مكانة مصر إلى حد مُريع.

وبعد فها هي مصر تبدأ بالثورة على أوضاعها وأحوالها التي ظلت تعاني منها طويلاً، في ملحمة فريدة لم يعرفها تاريخها من قبل، ولله الحمد والمنة، وأنصح إخواني بالتالي:

أولاً: عدم إيقاف الثورة حتى يزول نظام الطاغية وينال الشعب حقوقه؛

إذ ليس باستطاعة الشعب أن يثور في أي وقت يريده، وهذه المئات من الآلاف لا يصح أن يذهب جهدها أدراج الرياح، وقد انتظرنا هذه الثورة طويلاً منذ قرابة ستين سنة فلم تحدث إلا الآن.

ثانيًا: الحرص على عدم السماح بالتخريب والتدمير المنظم الذي يقوم به عملاء الطاغية ليجهضوا الثورة ويخيفوا الشعب.

ثالثًا: المطالبة بأن يحكم الشعب الأيدي الطاهرة المتوضئة والشرفاء الذين لم يتلوثوا بدماء الشعب وماله، فكفى سرقة لثورات الشعوب، وكفى خداعًا لها.

وأسأل الله تعالى أن ينقذ الشعب المصري من الطغيان والظلم، وأن يحقق على أيديهم كل ما يحبه الله وتعالى لهم، والله الموفق.

* * *



ملامح التغيير



إن المتتبع لما يجري من متغيرات هائلة في العالم العربي اليوم سواء في الدول التي حدث فيها التغيير أو الدول التي يُظن أن التغيير سيلحقها على وجه من الوجوه وصورة من الصور، لسوف يتعجب طويلاً ويندهش كثيرًا بسبب عدة أمور:

أولاً: سرعة التغيير:

إن التغيير جرى سريعًا ولم يكن متوقعًا من قِبَل كل مراكز الأبحاث والدراسات الإستراتيجية، ومن قبل كل المراقبين والساسة وعلماء الفكر والاجتماع، وأذكر أني سئلت في محاضرة قبل بدء التغيير ببضعة أسابيع: هل أنت متفائل بأن التغيير قادم ومتى ؟ فقلت: نعم إن التغيير قادم إن شاء الله في بضع سنين، فإذا به يقع عقب بضعة أسابيع فقط من كلامي ذلك، فسبحان الله العظيم، وأستطيع القول إن التغيير الذي حدث فاجأ كل المراقبين، ولم يتوقعه أحد حتى من المتظاهرين أنفسهم، وسبحان الله العظيم الذي إن أراد شيئًا هيأ أسبابه على وجه عجيب.

ثانيًا: سلمية التغيير:

إن التغيير الذي حدث في مصر وتونس كان تغييرًا سلميًّا لم يحصل فيه قتل ولا تدمير ولا عنف من المتظاهرين؛ في حادثة لم تتكرر كثيرًا في تاريخ البشرية، فإن العادة جرت أن الأنظمة الطاغوتية العسكرية لا تزول إلا بدماء كثيرة، ودمار هائل، فها هي دول العالم في الحرب العالمية الأولى والثانية قد فقدت أكثر من ستين مليونًا من البشر مقابل نيلها حريتها وإزالة الأنظمة الاستبدادية مثل الحكم الهتلري في ألمانيا والموسوليني في إيطاليا.



ثالثًا: وعي المطالبين بالتغيير:

ففي مصر وتونس لا زالت الثورة قائمة إلى الآن تجبر أركان الحكم على التغيير، فهذه تونس قد عزلت أركان الحكم السابق تقريبًا، وأُلغي دستور سنة ١٣٧٩/ ١٩٥٩، وأقرت الانتخابات التشريعية في شهر شعبان/ يوليو القادم، وحدث في البلد إصلاحات مهمة لا تنكر لكنها ليست كافية ولا محققة بعد لمطالب الجماهير، ولذلك بقيت الجماهير تتظاهر إلى الآن كلما أرادت مطلبًا والحكومة لا تملك إلا الاستجابة له غالبًا.

أما في مصر فإن الذي حدث يفوق الخيال، فبعد شهر ونصف تقريبًا من بداية الثورة يُعزل مبارك وأركان نظامه وحزبه، ويؤتي برئيس وزراء اختاره الشعب في سابقة لم تحدث منذ ستين سنة، وعُدل الدستور تعديلات مهمة، وأُخرج كثير من المظلومين من السجون وهوجمت مقرات أمن الدولة الظالم لنفسه وللشعب، ووُضع كثير من رءوس الفساد والظلم في السجون في سابقة تاريخية لم تحدث من قبل في تاريخ مصر الحديث، والمهم الأعظم في كل هذا أن الشعب ما زال قائمًا بثورته مطالبًا بالتغيير، واعيًا بما يجري، وهذا من أهم المهمات؛ إذ كم من ثورات إسلامية شعبية سُرقت وقطف ثمرتها أناس لا أخلاق لهم، وأولها ثورة مصر سنة ١٣٧٢/ ١٩٥٢ فقد كانت ثورة حماها الإسلاميون وساهموا فيها ثم قُلب لهم ظهر المِجَنّ.

رابعًا: خلوص التغيير من المؤثرات الأجنبية:

إذ كم من تغيير حصل في العالم الإسلامي اكتشف المسلمون بعد زمن طويل أو قصير من حدوثه أن من ورائه أصابع أجنبية، وأنه من تدبير غربي أو شرقي، وأن رؤساءه صُنعوا على عين الكافرين، وأنهم لا يَعْدُون أن يكونوا عملاء حقيرين

لأجهزة الاستخبارات العالمية، أما الثورات الحادثة اليوم في مصر وتونس وليبيا واليمن، فمن المستبعد جدًّا القول بأن للكفار أصابع فيها بل هي ثورات شعبية فوجئ بها الغرب والشرق، كما فوجئ بها الساسة وعلماء الفكر والاجتماع من المسلمين وغيرهم ، ولعل هذا يحدث لأول مرة في ديار الإسلام، والله أعلم.

خامسًا: آلية التغيير:

إن طرائق التغيير التي أحدثت هذا الطوفان تُعد جديدة بكل المقاييس حتى صارت معيارًا يرجع إليه مريدو التغيير، بل إن ولاية ويسكونسن في أمريكا اتبع أهلها طرائق التغيير في مصر وتونس - كما جاء في جريدة الحياة اللندنية العدد رقم ١٧٥٠١ ليوم السبت ٣٠/ ٣/ ١٤٣٢ / ٥ آذار مارس سنة ٢٠١١ الصفحة الأخيرة- وهذا شيء عجيب في مقاييس العصر[(١)]، لأنه من المعلوم أن الشعوب الغربية سبقتنا في نيل حقوقها وابتكار طرائق متنوعة لانتزاعها، أما أن تقوم فئة من الشعب الأمريكي تطالب بحقوق لها مستفيدة من تجربة عربية إسلامية فهذا شيء جديد تمامًا فاجأ كل الناس.

وقد قام المتظاهرون باستعمال التقنية استعمالاً جديدًا متقنًا فاجأ الكثيرين في إتقانه وأثره وشمول استعماله من فئات كثيرة استعصت على المراقبة ومحاولات قطع البث والاتصال.

وأرى -والله أعلم- أهمية دراسة هذه التجربة الجديدة ، والاستفادة منها فيما يُستقبل من أيام.

---

(١) كان هذا المقال قد كتب قبل أحداث نيويورك المسماة بـ «احتلوا وول ستريت» وكان فيها التصريح من قبل المتظاهرين باسم ميدان التحرير في القاهرة والاستفادة من طرائق التظاهر فيه.

سادسًا: تعاضد جهات عديدة في إحداث التغيير:

جرت العادة أن يحدث التغيير داخليًّا، لكن هذه المرة عضد التغييرَ الداخلي عاملٌ لم يكن في الحسبان وهو الإعلام القوي الذي عَرّى الأنظمة، ونقل سوء تعاملها لشعوبها ، وأحرجها أمام الناس جميعًا على وجه لم يحدث من قبل أبدًا ، وكان على رأس هذه الوسائل الإعلامية قناة الجزيرة القطرية التي قامت بثلاثة أمور مهمة:

١) حماية الثورة من البطش الشديد بها، وذلك بنقلها لوقائعها كاملة تقريبًا ، فلا يستطيع النظام إذن البطش بشعبه أمام عدسات التلفزة على الهواء مباشرة!

٢) شمول النقل لأحداث الثورة على وجه متميز في وقت كانت وسائل الإعلام المصرية تقلل من الثورة وتسخر بها ، وذلك أدى إلى معرفة المتظاهرين لما يحدث في كل مناطق الثورة ، وهذا عامل جديد تمامًا ساهم في تقوية الثورة.

٣) ظهور أشخاص كثيرين على شاشة القناة لم يكن ممكنًا ظهورهم ولا الاستماع إلى كلامهم المؤجج للثورة، لولا أن الله -تعالى- قيض للمتظاهرين هذه القناة.

- وهناك جهة أخرى مهمة عضدت الثورة المصرية والتونسية والليبية ألا وهي مشاعر الجماهير وأمانيها ، فلأول مرة تتكاتف الشعوب العربية على هذا الوجه، وهذا أدى إلى إذكاء حماس الثوار وتقوية صفهم.

سابعًا: الجرأة في التغيير:

أعظم فائدة في ظني -والله أعلم- في الأحداث التي جرت في مصر وتونس وليبيا واليمن أنها جرّأت الشعوب على المطالبة بحقوقها ورفع المظالم عنها، فلقد عهدنا الشعوب وهي ضعيفة متخاذلة، شديدة الجبن والخَوَر،

خائفة على مصالحها، وهذا كان هو السمة الغالبة في تلك الشعوب وإلا ففئة منها كانت غير ذلك، فجاءت هذه الأحداث لتتخطى الشعوب حاجز الخوف والرهبة، ولتصمد أمام المُرهبات والمُخوّفات، بل تقف بقوة أمام طلقات الرصاص بل المدافع والطائرات -كما حدث في ليبيا- وهذه جرأة رائعة، وعمل جديد لا عهد للجماهير به من قبل، وفي ظني -والله أعلم- أنه لن يستطيع طاغية أن يستعبد هذه الشعوب مرة أخرى ولا يفرض عليها أنواعًا وألوانًا أخرى من الظلم والطغيان، فإن تجرأ وصنع فإن الجماهير ستنزل مرة أخرى إلى الشوارع وتعيد الكرة من جديد وتظهر من ألوان الجرأة والقوة ما هو كفيل بتخويف أي ظالم طاغية.

هذه بعض ملامح التغيير الجديد الذي أرى من خلاله بوضوح تحقق قول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴾ [القصص: ٥].

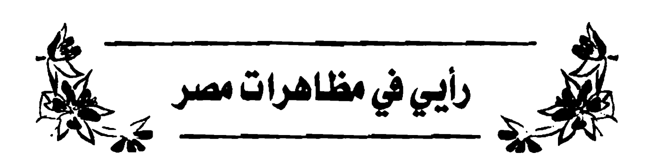
وأرى فيه قول النبي ﷺ: «**إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ**»، قَالَ: ثُمَّ قَرَأَ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢](١).

والله أكبر والعزة للمسلمين.

* * *

(١) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه برقم ٤٣٤٥.





رأيي في مظاهرات مصر

قد كنت كتبت مقالة في أحداث مصر بعنوان «لله درك يا مصر»، بينت فيها أن الذي يجري في مصر أمرٌ جليل، وفعل رشيد صحيح كنا ننتظره منذ سنوات طويلة جدًّا، وأن انتفاضة الشعب المصري في وجه الطغيان هي أبرز الأحداث العظيمة التي مرت على مصر في تاريخها كله.

وقد ثارت اعتراضات على هذا الذي ذكرته، وقام أشخاص بالرد عليّ في الشبكة العنكبوتية «الإنترنت»، وكان اعتراضهم دائرًا بين أمرين: حرمة المظاهرات، وساقوا من أجل ذلك أقوالاً لبعض أهل العلم، والأمر الآخر: تحريم الخروج على وليّ الأمر، وساقوا من أجل ذلك أقوالاً لبعض أهل العلم أيضًا، وإليكم ردي على ما أثاره بعض الإخوة غفر الله لنا ولهم:

أولاً: إن المظاهرات من الوسائل الحديثة وليس في تحريمها نص شرعي، فالأمر موكول فيها إلى نظر أهل العلم، وقد أفتى بحلها جماعات كثيرة من العلماء، وأفتى بحرمتها آخرون، فالأمر فيها اجتهادي ولا تثريب على مَن أخذ بأحد القولين إذن، ولا وجه للإنكار.

ثانيًا: إن المظاهرات التي خرجت في مصر هي حق قانوني أقرّه وليّ الأمر في أصل النظام وحقوق المعارضة؛ فليست المظاهرات في النظام المصري القانوني ممنوعة، بل هي مظهر «ديمقراطي» -كما يسمونه- وهي من حق

الشعوب، فلا يمكن عدها -إذن- خروجًا على ولي الأمر.

ثالثًا: إن فُرض أن المظاهرات المصرية تعد خروجًا على وليّ الأمر، فقد قرر أهل السنة والجماعة أن الحاكم المسلم الذي يحكم بشريعة الإسلام هو الذي لا يحلّ الخروج عليه وإن ظلم أو فسق، أما الحاكم الذي لا يحكم بشريعة الإسلام ويحاربها -كما هو الحال في مصر- فإنه يجب الخروج عليه وعزله لكن إن استطاع الشعب ذلك، وكانت مصلحة الخروج أعظم من المفاسد المترتبة عليه، وبمعنى آخر إذا كان الخروج بأقل الخسائر وأُمن سفك دماء كثيرة فإنه يجب الخروج عليه.

وتعالوا لننظر في الحالة المصرية:

١) بعد ٤٨ ساعة من التظاهر عين مبارك نائبًا له، وقد كنا ننتظر هذا منذ ثلاثين سنة، وأُلح عليه إلحاحًا كبيرًا فلم يقبل.

٢) بعد بضعة أيام من التظاهر أعلن مبارك أنه سيعيد النظر في الطعون الموجهة لانتخابات البرلمان، وقد كان يأبى بصَلَف أن يُنظر في هذه الطعون.

٣) وبعد بضعة أيام من التظاهر أعلن أنه سيعيد النظر في المادتين ٧٦، ٧٧ من الدستور الخاصتين بترشيح الرئيس، وقد كان وضع تلك المادتين قبل بضعة أشهر نكاية في كل من يريد أن يرشح نفسه.

٤) ولما اشتدت المظاهرات عزل من حزبه الحاكم ابنه الذي كان يعده طويلاً للحكم وليستمر الكابوس الثقيل على أهل مصر، فعزله وسقط حظه للأبد -إن شاء الله تعالى- وعزل أيضًا المجرم الأثيم



صفوت الشريف الذي أفسد في الأرض طويلاً منذ زمن العبد الخاسر إلى يومنا هذا، وعزل السارق الكبير أحمد عز الذي نهب الحديد المصري، ونهب ثروات الشعب، وهو والمجرم صفوت الشريف مَن قام بوزر تزوير الانتخابات الأخيرة.

٥) ولما اشتدت المظاهرات هرع نائبه للقاء الإخوان، وقد كانوا من قبل يتحاشونهم ولا يقبلون اللقاء الرسمي بهم.

٦) وقد تزلزل النظام المصري كله عقب مظاهرات امتدت أقل من أسبوعين، فكيف لو دامت؟!

- ثم هناك أمر اتكأ عليه كثيرًا من ردّ علي، ألا وهو أن هناك من قُتل في هذه المظاهرات، وهناك من سَرق ونهب، وردي هو: هل يمكن في حكم العقول أن يكون هناك مصلحة خالصة لا مفسدة فيها في أعمال التحرر من الطغيان، لكن العبرة بكلام أهل العلم وهو أن تكون المصلحة أعظم من المفسدة، وهنا المصلحة أعظم بكثير من المفسدة، فقد قتل في هذه المظاهرات عدد لا يقارن بمن قتله النظام في الثلاثين سنة الماضية، ولا بمن سجنه، ولا بمن عذبه، ولا بمن أقعده فجعله مشلولاً أو مريضًا مرضًا لا يُرجى برؤه، ولئن سرقت أموال فكم نهب النظام من مليارات لا تعد ولا تحصى في الثلاثين سنة الماضية مقابل بضعة مئات من الآلاف أو ملايين نهبت في هذه الهبَّة الأخيرة.

أفإن قام الشعب يريد التخلص من هذا الطغيان يقال للقائمين إن قيامكم حرام لأنه قد قُتل بعض الناس، وجُرح آخرون، وسُرقت أموال؟!

وللحريــة الحمــراء بــابٌ بكـــل يـــد مضرجـــة يـــدق

ـ هذا وقد علم القاصي والداني أن الذي جرى في مصر من فوضى السلب والنهب كان بتدبير النظام الحاكم، وقد تغلب الشباب المنظمون للمظاهرات على هذا الأمر وسيطروا عليه في أيام قليلة، وقاموا بما عجز عنه رجال الشرطة من توفير الأمن ومراقبة طرق المدن الداخلة والخارجة وتنظيم المرور بل استرجعوا كثيرًا من الأشياء المنهوبة من المصالح الحكومية وخزنوها في المساجد، وهذا يدل على وعي وفهم من قبل القائمين على المظاهرات مما يبعد القول بالتحريم، والله أعلم.

ولم يشهد التاريخ المعاصر مظاهرات مليونية خرجت في عدة مدن على هذا الوجه من الانضباط والبعد عن التدمير والفوضى، وهذا الانضباط يُبعد القول بحرمة هذه المظاهرات.

ثم أرجو ممن أنكر عليّ تمجيدي وفرَحي بما حصل في مصر أن ينظر إلى المصالح التالية المرجوة من سقوط النظام المصري أو إصابته بالشلل المقعد له عن جرائمه:

أولاً: تحرر الشعب المصري من الطغيان، وانطلاقه في ميادين الحرية، وتمكينه من عبادة الله وطاعته كما يحب الله -تعالى- ويرضى بدون مضايقات ولا انتظار سجون وتعذيب وترويع، والدعوة إلى الله -تعالى- بحرية، وتمكين الشعب من الإبداع في الإنتاج والعلم والتقنية التي حُرم منها طويلاً، ومنع منها كثيرًا، واللحاق بركب الحضارة المادية التي تخلفنا عنها طويلاً.

ثانيًا: التنفيس عن إخواننا في غزة الذين عانوا من عزل النظام المصري لهم أكثر مما عانوا من اليهود، وتضرروا من جرائمه أكثر من تضررهم من جرائم اليهود، والشواهد على ذلك لا تُحصى.

ثالثًا: التخلص من نظام عميل لكل أعداء الإسلام، وممكِّن لهم في مصر والدول التي تأتمر بأمرها في المنطقة تمكينًا كبيرًا، عانى منه المسلمون وقاسوا طويلاً.

رابعًا: في زوال النظام المصري، وقبله زوال الطاغية ابن علي بشرى عظيمة لإخواننا المسلمين المستضعفين في أكثر الدول العربية والإسلامية ممن يعانون من الظلم والاضطهاد من قِبَل أنظمة شبيهة بالنظام المصري، وأن ليلهم أوشك على الانقشاع، وأن صبحهم قريب، إن شاء الله تعالى، فمن كان يظن - ولو في الأحلام- أن يتهاوى النظامان التونسي والمصري سريعًا على هذا الوجه، فإذا سقط النظام المصري أو شُل كان ذلك دافعًا لباقي الأنظمة الطاغوتية المستبدة أن تعدل من طريقتها وتتصالح مع شعوبها أو أن مصيرها مزابل التاريخ، إن شاء الله تعالى.

- وقد تساءل بعض مَن ردّ عليَّ قائلاً: ومن يضمن لنا أن مبارك إذا غادر ألا يأتي من هو أسوأ منه؟!

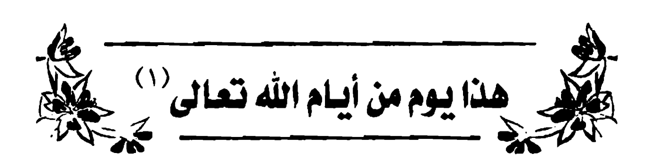
وأقول إن زوال ابن علي ومبارك وأمثالهما هو في حد ذاته هدف عظيم، أما من يأتي بعدهما فعلى الغالب سيتجنب مظالمهما، وسيحسن من أحوال بلاده، وعلى كل حال هذا أمر غيبي لا نُطالَب به، إنما نُطالب بتغيير الموجود، والغيب بيد الله تعالى.

وبعد:

فما أظن أنه سيبقى حجة لمعترض بعد هذا الذي بينته، فبعد أربعة أسابيع فقط من المظاهرات الجادة، وبأقل الخسائر في الأموال والدماء والأعراض تخلصنا من ابن علي الطاغية، وبعد أسبوعين من المظاهرات القوية الجادة تخلصنا من كثير من أهل الظلم والطغيان في مصر، والمظاهرات مستمرة ولا أحد يعلم إلا الله إلامَ ستنتهي إليه من نتائج وعسى أن تُختتم بالخاتمة الحسنى وزوال الطاغية وأزلامه، فاللهم لك الحمد والمنة(١).

* * *

(١) قد حصل هذا ولله الحمد، وسقط مبارك ونظامه إلى الأبد، إن شاء الله تعالى.



هذا يوم من أيام الله تعالى (١)

﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥].

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٥، ٦].

﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ [يونس: ٩٢].

﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١].

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾

[آل عمران: ٢٦].

الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله.

الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، ولله الحمد.

اللهم لك الحمد حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه.

اللهم لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك.

---

(١) هذا مقال كتبته عقب سقوط نظام الطاغية.

اللهم لك الحمد فقد نصرت عبادك، وهزمت الطواغيت، وأسقطت الحزب الوثني.

هذا يوم من أيام الله تعالى، خُتم به ثمانية عشر يومًا كانت نتائجها أقرب إلى الخيال، في ثمانية عشر يومًا سقط الطاغوت، وانقلع ابنه، وذهب المجرم الأثيم صفوت الشريف الذي أجرم منذ زمن العبد الخاسر إلى أن أذهبه الله غير مأسوف عليه، وسقط فتحي سرور المزور الأكبر، والغاش الأعظم، وطُرد أحمد عز السارق الأكبر، والمجرم الذي نهب مصر، وتوالى سقوط أصنام الحزب الوثني.

الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر.

الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، ولله الحمد.

وهذا هو الشعب المصري يُخْلف ظنون الأمّة فيه التي كانت تظن أنه آخر من يثور، وأنه وديع مسالم منذ زمن فرعون القديم إلى زمن فرعون العصر الحديث، فإذا به يصبح أول من يثور من الدول الإسلامية المهمة المتاخمة لإخوان القردة، ويفتح الطريق للشعوب إلى التحرر من الطغيان.

أمّا أنت يا أيها الرئيس المخلوع فاقرأ هذا الحديث النبوي الشريف الصحيح: «**إن الله إذا أبغض عبده نادى جبريل: إني أبغض فلانًا فأبغضه، فيبغضه جبريل، وينادي في أهل السماء إن الله يبغض فلانًا فأبغضوه، فيبغضه أهل السماء ثم يوضع له البغضاء في الأرض**» فها هي البغضاء تحوطك من كل جانب، وكل شخص يدعو عليك، ويتمنى محاكمتك، ويتقرب إلى الله ببغضك، فماذا استفدت من الثلاثين سنة التي حكمت مصر أثناءها؟ خرجت



يلعنك الله ويلعنك الناس ويلعنك التاريخ، خرجت وفي عنقك من الدماء والتبعات والمظالم ما لا يعلمه ولا يحصيه إلا الله فهو كالبحر الذي لا يُدرى طرفاه، ولا يُعلم عمقه.

ماذا استفدت يا مسكين وستأتي يوم القيامة ويتعلق بك أصحاب المظالم، واقرأ حديث رسول الله ﷺ:

«ما تعدون المفلس فيكم؟

قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا دينار.

قال ﷺ: **«لكن المفلس من يأتي يوم القيامة بحسنات عظيمة، يأتي وقد شتم هذا وضرب هذا، وقذف هذا، وسفك دم هذا فيأخذ هذا من حسناته، وهذا من حسناته، وهذا من حسناته، وهذا من حسناته، حتى إذا فنيت حسناته طُرِح عليه من سيئاتهم ثم أُمر به فسُحب على وجهه ثم أُلقي في النار»** وهذا لمن كانت حسناته عظيمة ومظالمه محصورة، فكيف بك ولا نعلم أن لك حسنات عظيمة، ومظالمك كالبحر الزخّار الهائل، نعوذ بالله من الخذلان.

ماذا استفدت يامسكين بعد أن حجرت على أهل غزة وحاصرتهم، ومنعت عنهم المعونات، وحرضت عليهم اليهود، فكم كفًّا رُفعت في السحر تدعو عليك؟ وكم عينًا ذرفت دموعها من قهرك لها؟ وكم قلبًا حرقت؟ وكم زوجًا أثكلت؟ وكم صبيًا وصبية أيتمت؟ وكم مجاهدًا قتلت؟

ماذا استفدت يا مسكين وقد كنت عميلاً للصهيونية العالمية، والصليبية العالمية، ولكل أعداء الإسلام، ووقفت في جانبهم وتنكرت لقومك وأمتك

وأدرت لهم ظهرك، وصممت أذنيك عن كل مطالبهم؟

ماذا استفدت يا مسكين بعد أن أبحت في بلادك الربا والزنا والقمار، ونحيت الشريعة ورفضتها رفضًا تامًا وكنت لها عدوًا لدودًا، وحكمت بلادك ثلاثين سنة بالقانون الوضعي؟ ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥]، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧].

ماذا استفدت يا مسكين بعد أن نهبت بلادك، وأفقرت شعبك، ومكنت لكل رويبضة تافه، وأبعدت الصالحين، وسجنت المؤمنين، وعذبت الدعاة العاملين؟

ها أنت يا مسكين قد أصبحت في مزبلة التاريخ وذهبت عنك لذة الحكم وبقيت غصته العظيمة، وتذكر قول الفاروق: لو عثرت بغلة في العراق لسألني الله عنها: لِـمَ لم تعبد لها الطريق؟

الله أكبر الله أكبر، الله أكبر.

الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، ولله الحمد.

انتظر محاكمة عادلة في الدنيا قبل محاكمة القيامة العظمى، يوم تأتي وفي عنقك ملايين المظالم، وقد غششت رعيتك، وفعلت الأفاعيل العظام، وداعًا يا مسكين لا لقاء بعده إن شاء الله.

أما أنتم يا أعوان الطاغية ويا أزلام فرعون فاقرءوا قوله تعالى: ﴿وَلَا



تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ [هود: ١١٣].

وانتظروا المحاكمة العادلة في الدنيا قبل محاكمتكم، أما الجبار العظيم الذي لا تغيب عنه غائبة في الأرض ولا في السماء.

الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر.

الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، ولله الحمد.

أما أنتم أيها الشعب المصري الباسل فشكرًا لكم وهنيئًا لكم، ونحن فخورون بكم وبجهادكم وصبركم وتضحياتكم، لكن ينبغي تذكر الآتي أيها الإخوة والأخوات:

أولاً: إياكم وسارقي الثورات، فقد سُرقت ثورة الجزائر ١٣٨٢/ ١٩٦٢، وسرقت ثورة اليمن، سنة ١٣٨٢/ ١٩٦٢، وسرقت ثورة تونس ١٣٧٦/ ١٩٥٦، وسرقت ثورات أخرى، فإياكم يا أحبابي من سرقة ثورتكم، فلا تستبدلوا ظلمًا بظلم، ولا طغيانًا بطغيان، ولا تقبلوا هذا، فإن حصل انزلوا مرة أخرى إلى الشوارع وتظاهروا، ولا تقبلوا بالظلم مرة أخرى أبدًا، وهذا هو الظن بكم إن شاء الله تعالى.

ثانيًا: إن أهم المهمات الملقاة على عاتقكم منذ سقوط الطاغوت هو العمل الجاد المخلص على إقامة شريعة الإسلام، فبدون الشريعة لا قيام لكم من ضعفكم، ولا عذر لكم عند ربكم بعد زوال الطاغوت المانع والصنم المدافع، وهذه فرصة جليلة أن يُحكم بكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ في أعظم بلد

إسلامي وأكثره أهمية، وتذكروا قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١].

ثالثًا: يا شيوخ مصر: قد زال الطاغوت فارجعوا إلى ما ينبغي أن يكون عليه الشيوخ من العز والكرامة والأثر البالغ في المجتمع، ارجعوا إلى العظمة التي كانت لشيوخ الأزهر الكبار، ولا تنسوا أنكم من بلد العز بن عبدالسلام سلطان العلماء، ومن بلاد عمر مكرم قاهر الإنجليز.

رابعًا: أيها الدعاة في مصر: أنتم الأمل بعد الله تعالى، فأعيدوا الشعب المصري للتمسك بدينه من جديد ليكون الشعب الصامد في وجه أعداء الإسلام، ليكون الشعب الذي عرفناه قاهرًا للتتار، ومطهرًا الأرض من الصليبيين في عكا، وهو الذي هزم اليهود في رمضان سنة ١٣٩٣/ ١٩٧٣.

الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر.

الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، ولله الحمد.

اللهم لك الحمد أن أحييتنا حتى نرى هذا اليوم العظيم، يوم زوال الطغيان واضمحلال البهتان، وانهدام الحزب الوثني، وانقلاع أركانه إلى الأبد إن شاء الله تعالى.

- وأنصح حكام العرب -من الذين طغوا وبغوا- بأن يحكموا شرع الله تعالى ويصالحوا شعوبهم قبل أن يصيبهم ما أصاب الطاغية، وتبرأ منهم

شعوبهم، وتبقى مظالمهم في أعناقهم إلى يوم لقاء الله تعالى.

- وأنصح الشعوب العربية الرازحة تحت حكم الطغاة بالصبر وتقوى الله تعالى حتى يهيئ الله -تعالى- لها فرجًا ومخرجًا، كما هيأ لشعب مصر من حيث لا يحتسبون.

ولا أجد أحسن ختامًا من قوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

ومن قوله تعالى:

﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴾

[الأعراف: ١٣٧].

ومن قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾

[الأعراف: ١٢٨].

والله أكبر الله أكبر الله أكبر.

الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، ولله الحمد.

* * *

الثمن الرخيص للمطلب النفيس

إن المطالع للأحداث التي جرت في مصر وتونس وأزيح على إثرها طاغوتان من أشد طواغيت العصر، وأزيح بعد إزاحتهما كثرة كاثرة من أتباعهما من الظالمين والمنتفعين والمنافقين المطبلين، إن المطالع لهذه الأحداث يلحظ الآتي:

١) تَنَسُّم الشعبين نسائم الحرية، فلم يعد هنالك ظالم يوقع بالشعب، وليس هناك من يَعُدّ على الشعب أنفاسه ويحاصره في رزقه، ويتآمر عليه ويكيد له.

٢) تأسيس أحزاب ومنظمات ومؤسسات إنسانية وحقوقية ما كانت لتحلم بنيلها الرخصة في عهد النظامين البائدين.

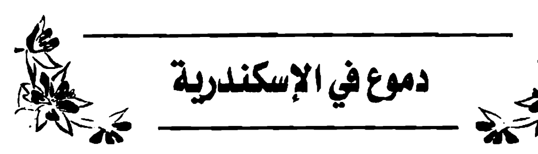
٣) تحرك الشعبين لنيل حقوقهما كاملة غير منقوصة، والضغط على الحكومات الانتقالية المؤقتة لمنع الثورة المضادة.

٤) ظهور الإسلاميين قوة قوية -خاصة في مصر- وظهور أثرهم فيما جرى من تغيير، هذا لتعلم الشعوب أنه ليس لها إلا الله ثم هؤلاء أصحاب الأيدي المتوضئة النظيفة.

٥) محاكمة الطغاة والمفسدين، في وقائع تاريخية جليلة لم تعرف في العالم العربي منذ بداية العصر الحديث.

وغير ذلك من آثار كثيرة جليلة لعمل قليل وثمن بخس رخيص دُفع لإحداث هذا التغيير، وكان هذا الثمن هو مظاهرات قامت في تونس لمدة شهر أو أقل، وفي مصر لمدة ثمانية عشر يومًا فقط لا غير!! وقتل بسبب تلك المظاهرات عدد لا يبلغ الألف في كلا البلدين!! فما أحسن هذا الذي جرى! وما أرخص الثمن الذي دُفع!

* * *




دموع في الإسكندرية

ذهبت إلى الإسكندرية من أجل عمل لي هنالك، وكانت هذه أول مرة أزورها بعد الثورة، فوجدت الناس على غير ما عهدتهم، ووجدت الأمل يملأ القلوب، والعزم والحماسة يملآن الصدور والعقول، ومظاهر الفرح لا تخطئهما عيناك أينما أدرتهما، فاللهم لك الحمد والمنة.

وفي يوم الجمعة قصدت الجامع الأشهر في الإسكندرية، والمعقل الأكبر للثوار فيها، مسجد القائد إبراهيم على شاطئ البحر، فعجبت من ازدحام الناس فيه وفي الشوارع المحيطة به، فأخبرني مَن كان معي أن هذا هو حال الجامع منذ بدأ فيه الخطبة الشيخ الأشهر في الإسكندرية الشيخ أحمد المحلاوي، بعد انقطاع دام أكثر من ثلاثين عامًا، وهو الذي سجنه السادات سنة ١٤٠١ وقال عنه في خطاب له: هو في السجن قد رمي فيه كالكلب!! فسبحان الله العظيم لم يمهل الله تعالى السادات سوى بضعة أشهر بعد هذه الخطبة ليُرمى في حفرته قتيلاً ذليلاً، وبقي الشيخ المحلاوي بعده أكثر من ثلاثين سنة ليرجع بعد ذلك خطيبًا شهيرًا، والشيخ عمره اليوم أكثر من ٨٥ سنة فإذا سمعته يخطب يخال إليك أنه في أشده، ما شاء الله لا قوة إلا بالله، وقد ذكر في خطبته الأولى أهوال القيامة مفسرًا صدر سورة الانشقاق، ثم جاء في خطبته الأخرى بأحوال مصر مهاجمًا فيها نائب رئيس وزرائها يحيى الجمل الذي فاقت وقاحته كل الحدود؛ فقد هجم على كلام الله -تعالى- وحاول

إجهاض قرار الشعب بنعم للتعديلات الدستورية، واجتمع بالعلمانيين واليساريين في أكثر من مؤتمر لحرب الإسلام والمسلمين، إلى آخر قبائحه، فهاجمه الشيخ باعتدال وحكمة وأخّر باقي الكلام عنه إلى مؤتمر أعلن عن إقامته بعد الصلاة، وهو من تنظيم الإخوان المسلمين، وهو عن مساندة الفلسطينيين والوحدة الوطنية.

وبعد أن أنهى الشيخ الصلاة اجتمع الناس حول منصة نصبت في الشارع الملاصق للمسجد، وقد امتلأ بالناس واستكمل الشيخ الكلام على يحيى الجمل ومشروعه الخطير في وأد الإصلاحات في مصر، ثم تكلمت د.أمل خليفة وهي أستاذة جامعية متخصصة في التاريخ، تكلمت عن فلسطين وبيت المقدس كلامًا حسنًا جزاها الله خيرًا، وتكلم عدد من المشايخ والأساتذة على رأسهم الفقيه القانوني الدستوري الشهير صبحي صالح الذي يُعدّ شوكة في حلوق العلمانيين اللادينيين والليبراليين في مصر ولله الحمد والمنة، وأعلن في كلمته أن الإسلام هو خيار الشعب المصري وأنه لا يُقبل أن يحكم بغيره، وهاجم يحيى الجمل في افتئاته على مشروع الدستور الذي أقره الشعب المصري بأغلبية كبيرة، ولله الحمد والمنة.

أما الذي استدرّ شئون عينيّ، وأسال دموعهما مرارًا ولم تفلح محاولات وقفهما ولا مداراة وجهي عن الناس أثناء سيلانها هو الهتافات المتكررة التي كان يهتف بها الشباب المحيطون بالمنصة، وهي هتافات لم تسمع في مصر منذ أكثر من ستين عامًا منذ ثورة يوليو المشئومة، فقد كان الشباب يهتف: خيبر خيبر يا يهود جيش محمد هنا موجود، وقد أبكتني جملة «هنا موجود» هذه،

فإن العادة أن يهتف الشباب «جيش محمد سوف يعود» أما جملة «هنا موجود» هذه، فهي جملة موفقة ذكية تنبئ عن أن الشباب المصري بدأ في معرفة مظاهر قوته وتلمس استعمالها في وجهها ولما هُيئت له.

ومن الهتافات أيضًا: «على القدس رايحين، شهداء بالملايين»، وأنا أزعم -والله تعالى أعلم- أن هذه الهتافات قد أقضّت مضاجع اليهود -الذين سمعوها وحللّوها- إلى الغاية التي ليس بعدها غاية، فها هي مصر التي عملوا على تحييدها منذ حوالي ٣٥ سنة تعود من جديد متصدرة الدول العربية والإسلامية في قيادة الصراع ضد إخوان القردة، وتعقد المصالحة التاريخية بين فتح وحماس، وترعاها رعاية الأم لوليدها، وتحافظ عليها حفاظ المرضعة لرضيعها، وقد تعاطف الشباب مع هذه الهتافات ورددوها معًا على نحو جعلها من أجمل وألذّ ما سمعت في حياتي، فاللهم لك الحمد والمنة.

ومن الهتافات المهمة -أيضًا- التي تبرز التطورات في مصر: يا فلسطيني يا فلسطيني، دمك دمي ودينك ديني، وهذا هتاف مؤثر مهم بعد أن عُزل الفلسطيني عن إخوانه العرب والمسلمين طويلاً بدعوى أن القضية فلسطينية، وما يرضى به الفلسطينيون يرضى به العرب إلى آخر تلك الدعاوى التي أضرّت كثيرًا بالقضية الفلسطينية، وهتاف «دينك ديني» هتاف جيد موفق يبرز إسلامية قضية فلسطين وأنها ملك للأمة كلها وليست للشعب الفلسطيني فقط.

وقد رُفعت أعلام لفلسطين ومصر وليبيا وأظن لسوريا واليمن أيضًا مما يظهر بجلاء أن مصر عادت ولله الحمد والمنة إلى الحضن العربي، بل لعل

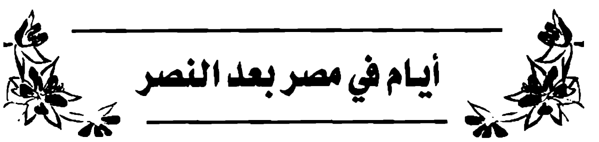


الأوفق أن أقول إن العرب عادوا للحضن المصري، أليست مصر هي أم الدنيا؟

ومن سُعدت برؤيته في مصر شيخ السلفيين فيها الطبيب الموفق العالم محمد أحمد إسماعيل المقدم، وهو امرؤ دمث الخلق، لين الطباع، حسن المروءة، جميل الخلق، سهل غير متكلف، أحسبه هو الأب الروحي لسلفيي الإسكندرية، وقد تحدثت معه كثيرًا عن أهمية التنسيق مع كل من يريد مصلحة مصر، وأهمية توجيه الشباب السلفي حتى لا ينزلق إلى ما لا يحمد عقباه، وقد أكّد لي -حفظه الله تعالى ونفع به- حرصه التام على هذا الموضوع، وعلى تفويت الفرصة على أعداء الإسلام لزرع الفتن في البلاد، وضرب مسلميها بعضهم ببعض، وضرب المسلمين بالنصارى، وقد حمدت له هذا، ورأيت أنه أحد القلائل القادرين على قيادة مسيرة السفينة السلفية إلى بر الأمان، إن شاء الله تعالى.

ومن سررت برؤيته في هذه الرحلة سعادة المهندس عبدالقوي، وسعادة المحامي مجدي عثمان، وهما قد تعبا في خدمتي وإسعادي فجزاهما الله -تعالى- خيرًا وهما من أفاضل الثغر السكندري، وشيخ الإسكندرية الموفق -إن شاء الله تعالى- والحكيم محمد حسين، وسعادة القانوني الموفق، إن شاء الله تعالى، صبحي صالح وعدد آخر من الفضلاء والكبراء، وفقهم الله -تعالى- وبلغهم سعادة الدارين، آمين.

***

أيام في مصر بعد النصر

زرت مصر لأول مرة بعد الثورة المباركة، فرأيتها تموج بالحرية موجًا، وشبهت حال أهلها كعصفور كان في قفص مدة طويلة ففُتح له باب القفص لكن فُتح ليلاً، فلم يصبر العصفور حتى الصباح، ولم يتبين معالم طريق خروجه، فظلّ يدفع ويدافع، ويحاول، ويدور ويصيح، وما هو بخارج حتى الصباح.

وصباح مصر إنما هو بتخطيها هذه المرحلة الحرجة القادمة التي تنتهي بالانتخابات البرلمانية والشورية، وانتخابات الرئاسة، واستقرار البلاد لتبدأ مرحلة البناء الطويلة، ولتعوض ما فاتها بسبب سنين الظلم والقهر والظلام، والفساد والطغيان.

ولقد مكثت في مصر أربعة أيام ولي في تلك الأيام مشاهدات وملاحظ أوجزها في التالي:

أولاً: الحملة الإعلامية الكبيرة على الدعاة والصالحين والشيوخ العاملين:

إن وسائل الإعلام في مصر ما قبل الثورة كانت توجه الحملات الإعلامية المغرضة على كل العمل الإسلامي بجميع أطيافه، لكنها كانت حملات موسمية متقطعة، وتخدم أغراض النظام البائد وتحقق أهدافه، أما وسائل الإعلام في مصر ما بعد الثورة فهي شيء آخر وأمر مختلف، إذ إنه لا تخلو جريدة من حملات إعلامية ضخمة تبدأ من الصفحة الأولى وبالعناوين العريضة وتكتمل

في صفحات عديدة في داخلها، والقنوات تنفخ في رماد الفتنة لكي تحيله نارًا حامية، وهذه الوسائل تصور مصر فريسة انقضّ عليها الإسلاميون، وأنها لا تملك لنفسها حولاً ولا طولاً معهم، وأن مصر على أبواب فتنة جديدة ستأكل الأخضر واليابس إلى آخر هذه التصورات التي تُقذف في قلب وعقل المصريين الذين هم -في الجملة- شعب عاطفي شديد التأثر سريع الاستجابة لما يُلقي إليه، وفي هذا الأمر خطورة شديدة لأنه يؤجج العواطف، ويلهب المشاعر، ويوغر الصدور، ولا ريب أن هذه الحملات الغرض منها قطع الطريق على الإسلاميين في الانتخابات القادمة بعد أشهر قليلة، وتنفير العامة منهم، وإضعاف ثقة الناس فيهم، وقبل الثورة كانت هذه الحملات تُدفع بتخطيط أمن الدولة وجهات أخرى عديدة، وأما بعد سقوط عدد من هذه الجهات الأمنية فقد قام على هذه الحملات أناس أكثرهم يحمل ضغائن دفينة على كل ماله علاقة بأهل الإسلام الصالحين المصلحين، فقام ينفث سمومه في وجههم، ويشوه أعمالهم، ويضخم أخطاءهم.

وهناك من يرد على هذه الحملات المسعورة، ويدفع عن نفسه أكثر تلك الاتهامات المنشورة، لكن عملهم كمن يدفع عن نفسه السيل العَرِم الشديد بما لا يكاد يصد شيئًا ولا يفيد، وما تغني بضعة أسطر أو مقالات أمام صفحات وصفحات، وما تغني حلقة في القنوات أمام سلسلة محكمة من الحلقات، لكن لا أجد عزاءً ولا غناء أعظم من قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[الرعد: ١٧]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾[يونس: ٨١] نعم إن للإسلاميين أخطاء فهم بشر يصيبون

ويخطئون لكن حسبهم أن أخطاءهم قليلة ويصدق فيها القول: كفى بالمرء نبلاً أن تُعد معايبه، ولا بأس بذكرها ومحاولة علاجها لكن ليس على هذا الوجه المغرض والطريقة العمياء.

ثانيًا: التصرفات المرجوحة والخاطئة لبعض الصالحين:

قد تنسم الشعب المصري نسائم الحرية بعد كبت طويل وظلم عظيم، وفتح الباب الذي كان مغلقًا منذ زمن محمد علي باشا، أي أن مصر لم يستمتع أهلها بمثل هذه الحرية منذ أكثر من مائتي سنة، فقد جثم على صدور أهلها محمد علي وبنوه، وزاد الإنجليز الطين بِلّة، ثم جاء بعد ذلك العبد الخاسر الذي أخر مصر سنين طويلة، ودفع بها في مهاوي الظلم والظلام، وشدد على أهلها كل التشديد، وقذف بالصالحين والمصلحين إلى السجون، وقتل مَن قتل وشرّد مَن شرّد، وهزم مصر أمام إخوان القردة، وفعل بالبلاد والعباد ما لا يوصف، ثم جاء من بعده من أكمل مسيرة الذل والهوان إلى أن أذن الله للشعب المصري بالتحرر من نِير الاستعباد في مشهد جليل لم تعرفه مصر ولا كل البلاد العربية في العصر الحديث، وهذا جعل الناس في مصر مبهورين مندهشين بما وجدوا أنفسهم فيه، فقام كل واحد يريد تعويض ما فات، والاستفادة مما هو آت، ولما كان الإسلاميون هم المتضرر الأكبر من تلك العهود البائدة والنظم الفاسدة كان تحركهم أعظم وأسرع لما يشعرون به من ثقل المسئولية وعظم التبعة، فقاموا في كل صعيد يقولون ويعملون، ويخططون ويجتمعون، ولا ريب أن عملهم في الجملة -مبارك إن شاء الله تعالى- (وهذه الكلمة -مبارك- لا يحب إخواننا المصريون سماعها !!) وفيه خير عظيم، ويحمل بشائر كثيرة لكن ما كان



ينقص بعض تلك الأعمال هو الكَيْس والحكمة والتعقل والرشد والصبر، فلذلك صاحب تلك الأعمال والأقوال شيء من قلة التوفيق والبَصَر، وكانت مؤججة لوسائل الإعلام التي لم تترك جهدًا إلا وبذلته في تضخيم تلك الأخطاء وتصويرها على أنها مهلكة للبلاد والعباد على الوجه الذي بينته آنفًا.

ومن تلك الأخطاء ما تكلم به بعض المشايخ عن قضايا هي حق وصدق لكن ليس هذا وقت الحديث عنها، ولا فَتْحَ بابِها أخذًا بالحكمة والتدرج والتعقل في بلد -هو في ظني- أهم بلد في العالم الإسلامي كله من حيث اجتماع عواملَ قوة فيه ليست موجودة في غيره على رأسه الموقع المهم المتاخم لإخوان القردة، والعدد الضخم الذي مَنّ الله به على شعب مصر، وما فيها من ثروات إيمانية وعقلية ومادية تند عن الحصر وتُعجز العادّ.

ومن تلك القضايا التي أُثيرت وحصل بسببها لغط كثير هدم التماثيل والآثار الفرعونية، تطبيق الحدود، إقامة الشريعة، دفع النصارى للجزية، وإيقاف بعض المنكرات وهدم الأضرحة بالقوة .... إلخ .

وهي قضايا لا بد -في ظني- والله أعلم من تأجيل النظر فيها إلى ما بعد استقرار الثورة وإجراء الانتخابات، فيجتمع لها ثلة من أهل الشرع لينظروا فيها نظرًا وافيًا لا تفسده العجلة، ولا تؤثر فيه الضغوط من كل جهة كما هو حاصل الآن.

ثم إن إخوان القردة يرصدون ما يحصل في مصر على وجه دقيق

ويساعدهم إخوانهم الصليبيون، وهم جميع متربصون حاذرون، وأخشى ما أخشاه إن وصل الأمر إلى حد لا يمكن لهم السكوت عليه أو قبوله أن يصنعوا بمصر ما صُنع في الجزائر، وأن يوعزوا إلى قوى متربصة في الداخل أن تفسد الثورة وتعطل نتائجها، أو أن يفتعلوا حربًا في المنطقة تأتي على الأخضر واليابس، وما يوم حليمة بسرّ، وهذه شِنْشِنة عرفناها من أَخزم، فينبغي على عقلاء المصريين من المشايخ والدعاة والصالحين وسائر العاملين أن يجتمعوا على كلمة سواء، وأن ينظروا في أمرهم، ويتدبروا شأنهم قبل أن تقع الفأس في الرأس -لا قدر الله- وقبل الندم يوم لا ينفع الندم، فإني أرى الأمور في مصر قد وصلت إلى حد قرع جرس الإنذار، وقيام النذير العريان، والله يدفع عن البلاد والعباد.

﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

ولئن قام بعض المشايخ وتحمسوا على ذلك الوجه الذي بينته فليسوا هم وحدهم المخطئين في هذا بل هناك دعوات كثيرة من قِبَل كثير من الأشخاص والجهات تريد دفع البلاد إلى شفير الهاوية، وتريد ألا تترك جهة إلا وتحاسبها، ولا شخصًا إلا وتوقفه، ولا سيئة كانت في العهد البائد إلا وتبرزها، ولا هفوة كانت من شخص أو فئة إلا وتضخمها، ولا تلتفت في ذلك إلى نداءات التعقل، ولا دواعي الحكمة، ولا متطلبات المرحلة، ووسائل الإعلام من وراء كل ذلك وعلى رأس ما هنالك، تزيد الطين بِلّة، وتدفع إلى أتون الفتنة دفعًا، فليس الأمر إذن مقتصرًا على بعض المشايخ بل إن كثيرًا من طبقات الناس يشارك في مثل هذه الأفعال، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

ثالثًا: أفعال تستحق الذكر والإشادة:

هناك أفعال تُعظم الأمل، وتجلب البشائر، ولا بد من التعريج عليها، فمن ذلك:

١) اجتماع كثير من شيوخ ودعاة الإخوان والسلفيين في أعمال مشتركة، وهذا من أعظم البشرى، فهاتان الجهتان هما القوتان الإسلاميتان الرئيستان، واجتماعهما مطلوب منذ زمن طويل لكن كان يعوقه أمور تذلل كثير منها الآن، بفضل الله تعالى، ومن صور هذا الاجتماع المبارك قيام «الهيئة الشرعية للحقوق والإصلاح» وهي تجمع التيارات الشرعية الرئيسة في مصر مثل الإخوان المسلمين والسلفيين على اختلاف مشاربهم وتوجهاتهم مثل «الجمعية الشرعية» وجماعة «أنصار السنة» ومستقلي السلفيين ومعهم أعضاء من جماعة الدعوة والتبليغ وممثلين غير رسميين من الأزهر ووزارة الأوقاف، وهذه بشرى جليلة وبادرة حسنة، ولئن وصلت هذه الهيئة إلى غايتها التي تتطلع إليها فسيكون من ورائها خير كثير، إن شاء الله تعالى، وقد اختير الشيخ نصر فريد واصل المفتي السابق رئيسًا، والشيخ علي السالوس نائبًا له، والأمين العام د.محمد يسرى، ولعل من أهم مهام هذه الهيئة الحفاظ على مصر إسلامية بعيدة عن فساد الفاسدين ومخططات الأعداء والمتربصين.

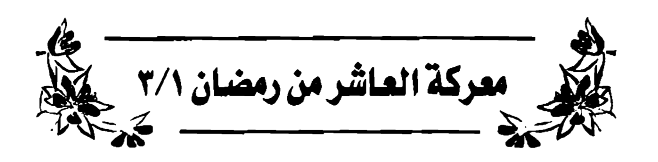
٢) ومن البشائر أيضًا قيام تقارب بين الإخوان وبعض السلفيين لإنجاح بعض الأعمال السياسية، وتجري في هذه الأيام اجتماعات عديدة

للخروج بشيء نافع جليل في هذا الباب.

٣) إزالة كثير من رموز الظلم في العهد البائد وعزلهم من مناصبهم، وهذا يبشر بخير كثير، إضافة إلى أن القوانين التي صدرت إلى الآن سواء من الجيش أو الحكومة الانتقالية تبشر بالخير، إن شاء الله تعالى.

٤) ولعل من أعظم البشائر هذه الروح الجديدة التي سرت في مصر بعد الثورة، والحرية التي بُثت في ربوع البلاد بحيث لا تخطئها العين، وهذا الأمر إن اتقي الله فيه، وروعي فيه حكم العقل والمنطق فليكونن لمصر شأن وأي شأن، إن شاء الله تعالى، وإن غدًا لناظره قريب.

* * *



معركة العاشر من رمضان ٣/١

إن معركة العاشر من رمضان فارق بين زمنين، وبرزخ بين عهدين، ومنعطف بين طريقين: زمن الذل وزمن العزة، عهد الضياع وعهد العثور على الهُوية، طريق الاعتماد على الطاغوت وطريق التوكل على الله تعالى.

ثم إن معركة العاشر من رمضان يبدأ بها تأريخ حدث خطير جدًّا ومهم جدًّا في تاريخنا المعاصر ألا وهو ظهور الصحوة الإسلامية واشتداد عودها، ولهذا حديث جليل آخر لا متسع له هاهنا.

إن الذي يدعوني لذكر معركة العاشر من رمضان عدة أمور منها غير ما سبق آنفا:

١) أهمية المعركة في سياق أحداث العصر، بل أرى -والله تعالى أعلم- أنها أهم معركة وقعت بيننا وبين اليهود في التاريخ الحديث من حيث وقائعها، ومن حيث توقيتها، ومن حيث نتائجها، وستبقى المعركة -إن شاء الله تعالى- خالدة في ذاكرة الأمة ملهمة إياها لبلوغ النصر التام في معركتنا مع إخوان القردة.

٢) هذه المعركة لا يكاد يعلم عنها شباب الأمة في هذا الوقت إلا النزر اليسير بل إن كثيرًا منهم لم يسمع بها قط!! خاصة ممن لم يدرك المعركة وولد بعدها بزمن قصير أو طويل، وهذا عرفته أثناء حديثي عن هذه المعركة في المنتديات والمجامع والمدارس والجامعات، فهذه المعركة ساقطة من ذاكرة

الكثيرين، وهذا أعدّه من الخلل المنهجي والثقافي في واقعنا المعاصر، ولابد من علاجه؛ لأن المعركة -وقائع ونتائج- تُعد من أهم ما يمكن الاستفادة منه في العصر الحديث من الوقائع الحربية بيننا وبين اليهود، وهي مليئة بالعبر والعظات.

٣) كثير من شبابنا اليوم تعتريه حالات يأس وقنوط من إمكان النصر على الأعداء، فأردت أن أبين لهم أننا قادرون على إحداث التغيير في أي وقت - بعون الله تعالى ومشيئته- والدليل على ذلك ما جرى في حرب رمضان، ولذلك سأسوق لهم من أحداث المعركة -إن شاء الله تعالى- ما يعظم به أملهم وتشتد به عزيمتهم، وينفي عنهم التشاؤم والوهن.

٤) هذه المعركة ينظر إليها بعض مفكرينا ومثقفينا نظر الارتياب والشك، وأنها حرب تحريك وليست حرب تحرير، ويريدون بالتحريك ما جرى بعدها من مفاوضات السلام المشئومة مع اليهود، بل يذهب بعض المفكرين والمثقفين أننا هُزمنا في العاشر من رمضان!! وهذا غلو في التفكير والنظر أحببت أن أنفيه في هذه السطور، هذا وليُعلم أني لا أريد الحديث عما جرى بعد المعركة بسنوات من الصلح مع أعداء الله، فلهذا حديث آخر ليس هذا مجاله وإن كان متعلقًا نوع تعلق بهذه المعركة الجليلة.

٥) والسبب الأهم الذي دعاني للحديث عن تلك المعركة هو أن معركتنا مع اليهود لا زالت قائمة على قدم وساق، وأنها لم تتوقف أبدًا بنهاية تلك المعركة وأنها لن تتوقف إلا بالحادث العظيم الذي تنبأ به النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم: «**لتقاتلن اليهود حتى يقول الشجر والحجر يا مسلم يا عبد الله**

ورائي يهودي تعال فاقتله»، وهناك شبه اتفاق بين كثير من المفكرين والمحللين المدنيين والعسكريين على أن هناك معركة قريبة بيننا وبين اليهود تلوح نذرها في الأفق فكان من المهم أن نبقي في ذاكرة المسلمين أحداث نصر رمضان سنة ١٣٩٣/ أكتوبر ١٩٧٣ حتى تصبح ملهمة لهم ومبشرة في معركتنا القادمة، وليعلموا أن الله -تعالى- إذا أراد أمرًا هيأ أسبابه، وإذا قدر شيئًا أمضاه مهما استبعده البشر، وحكموا بصعوبة حدوثه، فقد كانت كل القوى العسكرية العالمية والعربية تحكم بعدم قدرة العرب والمسلمين على هزيمة اليهود في معركة عسكرية أبدًا، فإذا بهم يفاجأون بمعركة رمضان التي قلبت كل الموازين.

ونحن اليوم نعيش فرحة كبيرة بالتغيير الذي جرى ويجري في بعض البلاد العربية، وهو مقدمة لتغيير أكبر وأعظم نتخلص به ومنه إلى انتصار على اليهود والصلاة في بيت المقدس إن شاء الله تعالى.

العرب والمسلمون قبل المعركة:

- الناحية العسكرية:

كان هنالك شعور سائد بأن جيش الصهاينة لا يُقهر، وأننا لن نستطيع أن نهزمهم في معركة أبدًا، وقد كان هذا نتيجة حرب ١٣٨٧/ ١٩٦٧ المشئومة التي سماها الإعلام الناصري الخبيث نكسة تخفيفًا لوقعها وتقليلاً من نتائجها، وقد كانت من أشد نكبات الدهر وقائع ونتائج، لكنها كانت ممهدة لزوال السيطرة العسكرية والثقافية للقوى الناصرية والماركسية والقومية والعروبية للأبد ولله الحمد، ولهذا حديث آخر إن شاء الله تعالى.

قال اللواء أركان حرب جمال الدين محفوظ فيما نقلته عنه مجلة الأزهر في عددها التاسع من سنتها الثانية والستين في رمضان سنة ١٤١٠/ إبريل ١٩٩٠:

«لقد كانت الروح المعنوية في حالة تدهور شديد لما أحدثته الهزيمة من ضغوط نفسية هائلة على القوات المسلحة والشعب معًا، فقد انتابت الجميعَ صورٌ شتى من الضغط النفسي الذي نشأ في داخلهم وفيما بينهم كالشعور بالإحباط والحزن ولوم النفس والغير، وتبادل الاتهامات، إلى غير ذلك من أساليب التدمير الذاتي التي كانت أخطر عقبة في سبيل إعادة البناء، حتى لقد قدر أكثر المتفائلين أننا لن نفيق من تلك الحالة قبل عشر سنوات إن لم يكن أكثر».

ثم قال اللواء:

«وبالإضافة إلى هذه الضغوط النابعة من الداخل كانت هناك الضغوط الخارجية المتمثلة في حملات الدعاية والحرب النفسية الضاربة التي تستهدف توجيه ضربة قاضية إلى روح المقاومة والصمود وإرادة القتال من خلال ما يلي:

١) تعميق الشعور بالإحباط وفقد الثقة بالنفس والسلاح والقادة والقيادة.

٢) إحداث الفُرقة بين الشعب وقواته المسلحة.

٣) غرس الإحساس بالتدني والعجز وتنمية عقدة النقص في مواجهة التفوق التقني «التكنولوجي» للعدو ومصادر إمداده بالسلاح والمعدات.

٤) ترسيخ الاعتقاد بأننا نواجه عدوًّا لا يُقهر، وأذكر أن جنودنا فتحوا

عيونهم ذات صباح على لوحات قد غرست على الضفة الشرقية لقناة السويس تقول: «إذا كنت تسأل عن أسباب الهزيمة فاتصل برقم ٦٧٥٦٤٨» والرقم يبدو لأول وهلة كرقم هاتف لكن سرعان ما يتضح أنه يتألف من سنوات المعارك ٤٨-٥٦-٦٧ أي أنه يقول للمقاتل المصري -وهو في أشد حالات المعاناة النفسية- لماذا تسأل عن أسباب الهزيمة هذه المرة وأنت دائمًا مهزوم؟ إن تاريخك كله هزائم؛ فقد هُزمت من قبل في ٤٨ وفي ٥٦ فلماذا تسأل عن سبب هزيمتك في ٦٧؟ إنك أنت رجل الهزائم!! لقد كان ذلك مثالاً لحملات الحرب النفسية الضاربة لتغذية أحاسيس التدمير الذاتي للإجهاز التام على إرادة القتال» ثم قال اللواء:

«ثم كانت هناك التحصينات والعوائق والموانع التي أقيمت على الضفة الشرقية للقناة وعلى رأسها الساتر الترابي وخط بارليف وقاذفات اللهب، الأمر الذي جعل أكثر الخبراء تفاؤلاً يُقدرون أن العبور واقتحام تلك الموانع سوف يكلفنا عشرات الألوف من الخسائر في الأرواح فلا بد أن يكون لذلك أثره على الروح المعنوية لمن يستعدون للمعركة المقبلة» اهـ.

وقد كان هناك شعور عام طاغٍ على اليهود بعد حرب النكبة بالتفوق على سائر العرب، وأنهم هم القوة التي لا تُقهر، وللدلالة على ذلك أسوق قولاً للهالك موشي ديان، وزير الدفاع في الدولة المسخ والكيان الغاصب، قاله بعد النكبة بخمسة أيام في صحيفة هآرتس اليهودية في ١٢ حزيران/ يونيو سنة ١٩٦٧/ ١٣٨٧: «إنها الحرب التي أنهت كل الحروب، ولم يبقَ أمام العرب إلا التماس المقابلة لتقديم فروض الطاعة سيما وهم يعرفون رقم الهاتف!!».

وقال الرئيس المصري السادات يوضح مدى عِظَم القدرات اليهودية:

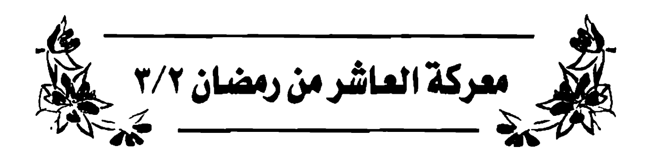
«لقد كان عبور القناة واجتياح حصون خط بارليف يعتبر ضربًا من المستحيل، وقد زارنا عدد من القادة وقال لنا بعضهم: إن هذا المانع وتلك الحصون تحتاج إلى قنبلة ذرية للتغلب عليها».

- **الناحية الدينية والاجتماعية:**

وفي المقابل لهذا كله تجد أن الإسلام وأهله -منذ النكبة بل قبلها، إلى ما قبل معركة رمضان- في زاوية قصية، ودعاة الإسلام في السجون، والمسيطر على أكثر البلاد العربية والإسلامية الفكر الشيوعي والاشتراكي والماركسي واليساري، وأن الإسلام الكفيل بإنقاذ الشعوب وتحقيق النصر مُغيب عن الأمة، وأن دعاة الإسلام القادرين -بإذن الله- على قيادة الشعوب العربية والإسلامية إلى النصر أكثرهم قد أودع السجون أو منع من الاتصال بالجمهور بصورة أو بأخرى.

وأما المجتمعات الإسلامية فأكثرها يفشو فيه المنكرات من ربا وزنا وخمور وسائر الموبقات، وقليل من الناس من يصلي أو يصوم، والمساجد تكاد تكون مهجورة، والتدين في الشباب قليل أو نادر، وشريعة الله -تعالى- مغيبة عن الحكم وفصل الخطاب.

وإنما أردت بهذا البيان لواقع المسلمين قبل معركة رمضان أن أقول: إننا لم نكن أهلاً للنصر الذي جرى في رمضان لكن الله -تعالى- أراد أن يُحدث التغيير الكبير الذي قارن المعركة وما بعدها، وأن يمضي قدره في إعزاز هذه الأمة ورفع شأنها وتفضيلها على العالمين، فكان لابد من حدوث التغيير، وهذا ما سأرجئ الحديث عنه إلى الحلقتين القادمتين، إن شاء الله تعالى.



معركة العاشر من رمضان ٢/٣

سبق أن ذكرت في الحلقة السابقة كيف كانت الأحوال بعد الهزيمة المذلة في سنة ١٣٨٧/ ١٩٦٧ إلى ما قبل حرب رمضان، وفي هذه الحلقة سأذكر -إن شاء الله تعالى- كيف أُعد الجيش المصري للمعركة وبعض أحداث هذه المعركة:

قال اللواء أركان حرب جمال الدين محفوظ -وهو ممن شارك في المعركتين: ١٣٨٧/ ١٩٦٧، ١٣٩٣/ ١٩٧٣- إن أركان الجيش اجتمعوا بعد المعركة وتساءلوا عن أسباب الهزيمة المذلة، ثم خرجوا بالنتيجة المعروفة: إنه استبعاد الدين عن الجيش، فقرروا أن ينشئوا ما سموه «الوحدة المعنوية»، وأسندوا إليها القيام على رفع الروح المعنوية للجنود؛ فقد كانت في أقل مستوياتها بعد النكبة، ولولا أن السياق سياق أمل واستبشار لأوردت قصصًا عن صنيع اليهود بالجنود المصريين الأسرى تبكي العيون وتمزق نياط القلوب، وعمد القائمون على هذه الوحدة إلى تعليم الجنود مبادئ الإسلام والتطلع إلى الشهادة، وأدخلوا إلى الجيش شيوخًا وطلبة علم ما كان لهم أن يدخلوا زمن الطاغية العبد الخاسر وكان ممن دخل الجبهة الشيخ محمد الغزالي -رحمه الله تعالى- وآخرون، وعُبئ الجيش تعبئة إيمانية أهلته للنصر الذي حصل في رمضان، قال اللواء شوقي محمد بدران:

«لقد تحقق نصر الله بعد سنوات طوال من الصراع مع العدو الإسرائيلي

الذي كان يكسب كل جولة؛ ذلك لأننا لم نكن نحسن الصلة بالله -سبحانه وتعالى- ولم نكن نأخذ بالأسباب الحقيقية للإعداد والاستعداد الجاد لملاقاة العدو، ولكن عندما غيرنا أحوالنا كما أمرنا الحق -تبارك وتعالى- في قوله الكريم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١] وحينما أعددنا أنفسنا عقائديًا وماديًا إعدادًا جيدًا كتب الله لنا النصر، وهذا هو الطريق الصحيح للنجاح والفوز...

بدأت المعركة يوم العاشر من رمضان، وأُعطي لها الاسم الرمزي «بدر» تيمنًا بمعركة بدر التي كانت فاتحة خير على المسلمين...

لقد قرر قادة قواتنا أهمية العقيدة والإيمان، وتولد عن هذا الإيمان العميق روح معنوية عالية تعد من أعظم الأسلحة التي في يد القائد ...

كانت الروح المعنوية العالية لقواتنا هي السلاح الرهيب الذي أدهش العدو؛ حيث وجد رجالاً يقذفون بأنفسهم إلى الموت، ويستهينون بالنار طلبًا للنصر أو الشهادة...

تولد في الجنود والضباط طاقات هائلة لا يكن وصفها أو تحديدها، فانقلب الرجل منهم يقاتل بقوة عشرة رجال في استبسال منقطع النظير...

إن طريق النصر هو تقوية الصلة بالله -جل جلاله- حتى يؤيدنا ويقف بجانبنا، أما القوات التي تبتعد عن الله فإنه يتركها لعدوها قوة أمام قوة وسلاحًا في مواجهة سلاح، ويتحكم في الصراح العوامل المادية فحسب... إن حرب رمضان كانت نصرًا من عند الله سبحانه وتعالى».

وقد أرسل لي الأخ عبد الرحمن مصطفى عبد الرحمن الأعمى المصري رسالة يذكر فيها أن شيخه الدكتور محمد السعيد أحمد كان رئيسًا للجمعيات الشرعية بالوجه البحري بمصر، وكان من المتمسكين بالسنن محاربًا للبدع، عابدًا، خيِّرًا، وكان له مسجد في المحلة الكبرى، وقد أخبره شيخه هذا أنه قد صدر أمر قيادي في الجيش المصري بتدريس سورتي الأنفال ومحمد ﷺ داخل كل وحدات الجيش المصري، ووجوب تعاليم آداب الجهاد في الإسلام لأفراد الجيش.

وذكر هذا الأخ في رسالته أن مما يؤكد هذا شهادة رئيس أركان الجيش المصري في حرب العاشر من رمضان الفريق سعد الدين الشاذلي في شهادته على العصر حيث قال:

«لأول مرة استحدث طبع كتيب يُسلم لكل ضباط وجنود الجيش لتوعيتهم بأمور القتال والجهاد، ومعرفة واجباتهم، والتعامل وقت الأزمات، والتعامل مع الأسرى، وكل ما يتعلق بالحرب...».

وهكذا كانت تعبئة الجنود قبل معركة رمضان، ولهذا -والله أعلم- حصل النصر، وهُزم اليهود لأول مرة أمام جيش نظامي مسلم في التاريخ الحديث.

إن تلك المعركة الجليلة حوت العديد من مظاهر الإيمان، منها:

١. التكبير:

وهو سلاح للمسلمين لا يملكه غيرهم، وهو نداؤهم المعروف، وحداؤهم المشهور، ولم يكن لليهود عهد بالتكبير من مدة طويلة، وقد امتلأت بالتكبير جنبات قناة السويس، وانطلقت به حناجر الجنود في مشهد إيماني

جليل، قال اللواء شوقي محمد بدران:

«ولقد كان شعار قواتنا المسلحة في حرب رمضان الله أكبر مدويًا في آفاق السماء، ورجالنا يهاجمون مواقع العدو فيهزهم هزًّا، وقذف الله في قلوب الأعداء الرعب ففروا هاربين، وكان هذا الشعار يقوي عزيمة الرجال، ويبعث فيهم الأمل، ويعطيهم الثقة بأن العدو مهما كان كبيرًا فإن الله أكبر... كانت صيحاتهم المدوية «الله أكبر» تزلزل أقدام العدو، فكانت هذه الصيحة طلبًا للمدد من الحق -سبحانه وتعالى- فكتب لهم النصر وحقق الله أمنيتهم».

وذكر الفريق سعد الدين الشاذلي أنه عند وضع خطة حرب العاشر من رمضان قال للمخططين معه: إن أقصر الطرق لمواجهة اليهود وتحقيق النصر هو: «الله أكبر»، وقد تم إعدادهم على هذا النسق الإيماني حتى في التدريبات قبل الحرب بتكرار وذكر نداء الله أكبر.

٢. المعونة الإلهية للجنود:

شهد كثير من ضباط الجيش وجنوده من مظاهر المعونة الإلهية لهم ما يعجز عنه التعبير، ويقصر عنه الوصف، وإليكم بعض الشهادات في هذا:

اللواء الفاتح كريم قائد اللواء الثاني «مشاة مُدَرّع» وكان في المعركة برتبة عقيد، ومهمته في حرب رمضان السيطرة على جبل المر وسط سيناء وهو جبل صعب، وقد استطاع هو ومن معه السيطرة عليه بعد معركة جليلة، لكنه في الوقت الصعب من المعركة كان يصيح: لا إله إلا الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، الله أكبر والعزة لله، والنصر لنا، سيروا على بركة الله»، وكان يقول لجنوده: «إني ذاهب لملاقاة الله -عز وجل- ومن يرد أن يلحق بي فليلحق»، وكان هذا



اللواء يقول: «يحاسبني الله -عز وجل- على ما أقوله: فقد شاهدت بعيني قوات تحارب في صفنا وأعدادًا غفيرة ليست قليلة وكانت ترتدي ثيابًا بيضاء، ولست وحدي الذي شاهدهم بل كان معي جنودي وعندي الدليل على ذلك... حيث كنا نشاهد جنود العدو يتساقطون قتلى وجرحى ولا نعرف من الذي يضربهم، إنها الملائكة التي حاربت معنا كما حاربت مع نبينا ﷺ في غزوة بدر، وهو الموقف الذي تكرر بعد ذلك أثناء وجودنا في الجبل وقت الثغرة».

وقد ذكر اللواء أن اليهود حفروا آبارًا في المنطقة لكنهم لما لم يجدوا فيها ماءً ردموها، فقام الجنود بحفر كل الآبار التي ردمت فوجدوها ملأى بالماء!!

وقد أخبرني الأستاذ أحمد جلبط المصري -وهو مسئول البرامج الدعوية في الندوة العالمية للشباب الإسلامي في جدة- قائلاً:

«في أثناء المعركة صاح بي رئيسي لأنظر إلى جهة أشار إليها، فإذا بجندي يدفع مدفعًا على تَبّة -تل- من الرمال بمفرده، وهذا المدفع لا يقدر على دفعه على أرض مستوية إلا ثلاثة إلى أربعة من الجنود، فكيف يدفعه هذا الجندي على تلة من الرمال بمفرده؟! وكان القائد في غاية كبيرة من الدهشة».

وقال: «كنا ندخل على الجنود وهم متحصنون خلف خط بارليف، فننزع الواحد منهم من مكانه مستسلمًا لنا غاية الاستسلام، لا يقدر على عمل شيء».

٣. المكافآت الإلهية للضباط والجنود:

في معركة رمضان كافأ الله -سبحانه وتعالى- الضباط والجنود مكافآت رائعة حيث مكنهم من النصر، وأعاد لهم جزءًا من أرضهم، ومكنهم من رقاب أعدائهم قتلاً وأسرًا، وكانت هناك مكافآت أخرى جليلة، فقد حدثني الأستاذ

أحمد جلبط أنه كان مشاركًا في المعركة ضابط احتياط، وكانوا يدفنون قتلاهم على عجل، ويعلمون على قبورهم بعلائم تدل على بلدانهم التي جاءوا منها، وكانوا يدفنون اليهود في مكان قصي، وبعد المعركة أُغلق الميدان عسكريًّا لمدة تقارب خمسة أشهر، فلما فتحت المنطقة انطلق مع أهالي الشهداء لينقلوا الرفات، فقال لي: لا أدري عدد القبور التي فُتحت وأنا واقف شاهد، فما إن يُزِح الأهالي شيئًا من التراب إلا ويعم المكان رائحة عطرية رائعة لم نشك أبدًا أنها من الجنة، وبعض القبور التي أزيح عنها التراب ليس فيها رائحة لكني لم أجد في أي قبر جنديًا واحدًا قد تغير، بل كانوا كلهم كما وضعناهم، وشاهدت إحدى الجثث التي ما زال الدم ينزف منها من موضع رصاصة، الله أكبر، هكذا يُكرم الله تعالى الضباط والجنود بحفظ أجسادهم، ثم قال لي: إنهم إذا فتحوا بالخطأ قبور اليهود فإن رائحة القبور المنتنة تملأ المكان.

وقال لي الأستاذ مأمون محمد فراج، وهو داعية مصري، خريج قسم اللغة العربية في جامعة القاهرة، ومتخصص في القراءات، قال:

«بعد مدة من انتهاء الحرب -أربعة أشهر أو أكثر- عرفت مصر كلها أنباء هذا الحقل الذي كانت فيه أجساد الشهداء، والرائحة العجيبة التي خرجت آنذاك، ولم يشم أحد مثلها، وسارت هذه المقولة كالنار في الهشيم وتذكرنا عهد السلف والشهداء، وصارت فرحة عامة في مصر، وبلسمًا لجراح الأهالي، وكانت هذه المنطقة في القنطرة شرق».

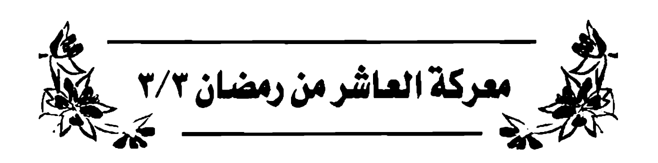
وحكى لي الأخ المصري نور الدين موسى أن خاله شارك في حرب رمضان وكان صالحًا، وأصيب إصابة أدت به إلى شلل رباعي وأُخذ إلى

مستشفى العجوزة وبقي سنة فيها ومات، ودفن في محافظة سوهاج، وبعد قرابة ثلاثة سنين فُتح القبر ليدفنوا شخصًا آخر بجواره فوجدوه مثلما وضعوه، الله أكبر.

هذه بعض أحداث جرت في ساحة معركة العاشر من رمضان نقلتها من مصادر موثوقة -إن شاء الله تعالى- وأنا واثق أن في جعبة الذين حضروا المعركة أحداثًا كثيرة غير هذه التي سطرتها وأدعو كل من عنده شيء أن يبعث به إليّ على بريدي الإلكتروني: mmmalshareef@hotmail.com لأني أريد توثيق المعركة من كل الجوانب، إن شاء الله تعالى.

وفي الحلقة القادمة -إن شاء الله تعالى- أذكر آثار هذه الحرب على واقع البلاد العربية والإسلامية وآثارها على دولة الكيان المسخ الغاصب الذي سيزول عما قريب -إن شاء الله تعالى- وما هذه الأحداث التي تجري في ديار العُرب اليوم إلا مقدمة لهذا النصر والتمكين، والله أعلم وهو الموفق سبحانه.

* * *



معركة العاشر من رمضان ٣/٣

ذكرت في الحلقة السابقة بعض مظاهر النصر الإلهي في معركة العاشر من رمضان، وفي هذه الحلقة سأذكر الآثار المباشرة وغير المباشرة لهذه المعركة.

الآثار المباشرة:

أولاً عودة الثقة بنصر الله تعالى للمسلمين:

بينت في الحلقة الأولى أن معنويات الجنود -ومن ورائهم الشعوب- كانت منخفضة للغاية بعد النكبة الكبرى سنة ١٣٨٧/ ١٩٦٧، لكن بعد معركة العاشر من رمضان وما جرى فيها من نصر إلهي جليل عادت الثقة إلى الجنود -ومن ورائهم الشعوب- بأننا يمكن لنا أن ننتصر على اليهود إذا استعنا بالله تعالى، قال الرئيس السادات وهو من وُصف بالرئيس المؤمن واستعان بالعوامل الإيمانية في المعركة على وجه ظاهر:

«كانت أهم نتائج حرب رمضان أننا قضينا على أسطورة جيش إسرائيل الذي لا يقهر، وقد أصبحت طريقة اقتحامنا لحصون بارليف موضع الدارسة والتحليل في كافة مدارس العالم العسكرية، كما أدت إلى تغيير النظريات العالمية عن الإستراتيجيات والتكتيك».

وقال أيضًا: «لقد حققت القوات المسلحة العربية في حرب رمضان معجزة على أي مقياس عسكري، ويستطيع هذا الوطن أن يطمئن إلى أنه أصبح له درع وسيف».

وهذا اللواء محمد عبد المنعم واصل قائد الجيش الثالث الميداني:

«هؤلاء جنودي البواسل لن يقف في وجههم مانع مهما بلغت وعورته أو حصن مهما اشتدت مناعته ، فهم المنصورون بعون الله».

وما أحسن صنع الله تعالى لنا ومكافأته إيانا إذا أقبلنا عليه ونصرنا دينه، وأطعناه سبحانه، كيف لا وهو القائل: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾ [النور: ٥٥].

وقال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: ٥، ٦].

ثانيًا: تخبط اليساريين والشيوعيين وأعداء الإسلام:

عقب الحرب وظهور الآثار لعودة الإيمان إلى الجيش وأثره الواضح في الانتصار جن جنون اليساريين والماركسيين، وانطلقت حناجرهم بمنكر من القول وزور، فقد قال أحدهم: إن هذه الحرب كانت انتصارًا للسلاح الروسي، وقال آخر -وقد غاظه أخبار الكرامات والإيمانيات وحسن التوكل على الله تعالى-: إن العرب شعب يعيش على الخرافات والغيبيات، هذا وقد كانوا يقولون قبل الحرب إن الشعوب العربية لا تملك من وسائل العلم والتقنية شيئًا ذا بال وعلى ذلك فهي مهزومة لا محالة، وبمثل هذه المقالة كان أولئك المتمركسون يفتون في عضد شعوب المنطقة ويخوفونها من لقاء اليهود، ثم بعد

الانتصار -الذي كان للإيمان أثر فاعل فيه لا ينكر- قاموا يشنعون على من يؤمن بالخرافات والغيبيات !!

وقد غضبوا يوم قررت مصر قبل الحرب طرد الخبراء السوفييت، وأعلنوا أن مصر لا يمكن أن تدخل معركة مع اليهود بدون الدولة السوفييتية وخبرائها وأسلحتها، وكانوا يريدون من وراء ذلك إبقاء النفوذ السوفيتي في مصر لتصبح القبضة الشيوعية مسيطرة عليها وعلى من يدور في فلكها من البلاد العربية.

لكن الحقيقة التي ينبغي أن يفهمها أولئك أن الشعوب العربية اهتدت إلى الإسلام بفطرتها، وأن الجنود انطلقت حناجرهم بالتكبير الذي أعلنوا به خلاصهم من الكابوس الشيوعي الماركسي والاشتراكي الذي جثم على صدورهم طويلاً، ولله الحمد والمنة.

ثالثًا: تضامن المسلمين في المعركة وبعدها:

إن الذي ظهر من تضامن إسلامي في المعركة أمر ينبغي ذكره بمداد الفخار، نعم إنه ليس هو التضامن الذي نرجوه وننتظره، لكن كان -على أي حال- خيرًا من موجات الإلحاد التي سادت المنطقة في خمسينيات وستينيات القرن الماضي ومزقت أوصال المسلمين، وفي معركة رمضان كانت الشعوب الإسلامية كلها تتابع أخبار المعركة وتترقب النصر، وعدد من دول النفط -على رأسها السعودية- قطعت نفطها عن الغرب، وكانت بعض الحكومات الإسلامية متعاونة مع مطالب المعركة بصورة أو بأخرى، وكل ذلك جرى على وجه غير مسبوق من قبل مهما حاول بعض الناس التقليل من أثره، أما

التضامن الشعبي في مصر فأذكر ها هنا نصًّا مهمًّا للواء محمد سعد الدين مأمون قائد الجيش الثاني الميداني: «لقد كانت مشاعر الأهالي المدنيين في أرض المعركة مدعاة للفخر والثناء، فبمجرد أن هدرت نيران المدفعية في الجبهة واستمع المواطنون إلى الجنود وهم يهللون بأعلى صوت: «الله أكبر الله أكبر» هب الشباب والشيوخ والأطفال ذكورًا وإناثًا يقدمون المساعدة قدر طاقتهم، ويشاركون بوجدانهم وأجسامهم في القتال المحتدم»، وهذا يدل بوضوح على أن الناس إذا وثقت بإسلامية المعركة ونقائها أقبلت تضحي وتبذل وتعطي على وجه جليل رائع.

وهذا التضامن الإسلامي الذي ظهرت بداياته في المعركة اشتد بعد ذلك وعظم إلى أن صار في أيامنا هذه أمرًا ذا بال، وأصبح هناك أمل بأن يعظم ويكبر بعد عودة مصر وتركيا وتونس إلى شعوبها، وبعد الأحداث الكبيرة في ليبيا واليمن وسوريا، بحيث إن المتابع لما يجري يكاد يجزم أن أمر اجتماع المسلمين ضد أعدائهم إنما هو مسألة وقت -كما يقال- وإن ما يجري اليوم إنما هو تمهيد لأحداث سارة قريبة إن شاء الله.

رابعًا: أثر المعركة على إخوان القردة اليهود:

كان أثر المعركة النفسي على اليهود سيئًا للغاية، وانقلب الأمر عليهم بفضل الله -تعالى- من غرور مطلق كما بينت في الحلقة الأولى إلى يأس وقنوط وإلى انبهار بالمقاتل المصري ، وهذا الجنرال شموئيل جوتين يقول:

«كان الجيش المصري يتقدم في موجات تلو موجات، وكنا نطلق عليه النار وهو يتقدم، ونحيل ما حوله إلى جحيم وهو يتقدم، كان لون القناة قانيًا بلون

الدم ورغم ذلك ظل يتقدم».

وقالت جريدة هاأرتس اليهودية: «ظهر أمامنا جيش عربي يثق في معداته، ويتسم بثقة كبيرة في نفسه وقيادته».

وقال أحد الجنرالات الصهاينة:

«لابد أن نشهد لجهاز التخطيط المصري بالبراعة، لقد كانت خططهم دقيقة، وكان تنفيذها أكثر دقة، لقد حاولنا بكل جهدنا عرقلة عملية العبور وصدها بالقوة وردها على أعقابها، ولكننا ما كدنا نتمثل ما حدث إلا وقد تحققت لهم نتائجه كأننا أغمضنا أعيننا وفتحناها، فإذا هم قد انتقلوا تحت النار من غرب القناة إلى شرقها، وفاجأونا صباح يوم السابع من أكتوبر بخمس فرق كاملة أمامنا على الضفة الشرقية من القناة».

وإليكم نصًا ثمينًا لمراسل وكالة يونايتد برس إنترناشيونال من تل أبيب بتاريخ ١٤ رمضان، ١٠ أكتوبر حيث قال نقلاً عن موشي ديان:

«إن خط بارليف كان مثل قطعة الجبن السويسري به من الثقوب أكثر مما به من الجبن، ثم قال المراسل: وترتب على هذا العبث بالعقول أن انهارت سمعة ديان نفسه التي أصبح بها من الثقوب أكثر مما بها من الثقة».

وقد قال موشي ديان نفسه: إن «حرب أكتوبر كانت بمثابة زلزال تعرضت له إسرائيل، وإن ما حدث في هذه الحرب قد أزال الغبار عن العيون، وأظهر لنا ما لم نكن نراه قبلها، وأدى كل ذلك إلى تغيير عقلية القادة الإسرائيليين، أن أشد أيام إسرائيل العصيبة لم تمر بنا بعد، وعلينا أن نظل صامدين في فترة المحنة التي ما زالت أمامنا».

وقال وزير الدفاع الأمريكي جيمس شيلزنجر:

«أصبحت هالة دولة إسرائيل التي لا تقهر موضع تساؤل».

وقال مراسل لإحدى الوكالات من تل أبيب:

«أصبح الإسرائيليون من الجندي الذي يقف على خط النار إلى الوزير في الحكومة ينظرون إلى العرب نظرة مختلفة».

وقال عالم الاجتماع الفرنسي الصهيوني ريمون آرون في مقال نشره في الفيجارو بتاريخ ٦/ ١١/ ١٩٧٣:

«لقد كانت حرب رمضان من أكبر مفاجآت العصر».

وقالت جريدة يديعوت أحرونوت:

«إننا نحس كما لو كنا نعيش بعد زلزال أصاب بلادنا».

الأثر غير المباشر للمعركة:

إن معركة رمضان غنية بالعبر والعظات، مليئة بالأحداث الجسيمة، ولا يكاد ينتهي الحديث عنها، لكن هناك أمرًا جليلاً نتج عن تلك الحرب غير التاريخ الحديث كله ألا وهو ظهور الصحوة الإسلامية المباركة عقب تلك المعركة الجليلة، وكان سبب ظهورها أن الناس عانت من هزائم عديدة في ٤٨ ، ٥٦ ، ٦٧ يوم كانت المذاهب الوضعية هي السائدة من شيوعية وبعثية واشتراكية وناصرية وقومية ، فلما اتجه المسلمون إلى إسلامهم شيئًا ما ودوت صيحات التكبير والتهليل في المعركة، ولما ازدانت المعركة بزينة الإيمان، واصطبغت بصبغة الإسلام حصل النصر ، فكفر الناس بالطواغيت التي كانوا

مبهورين بها، عميانًا عن غيرها ، وأقبلوا على الإسلام الذي رأوه سر نصرهم وسبب مجدهم وعزهم الذي عاد إليهم شيء منه بعد المعركة، وتلك كانت البدايات الأولى للصحوة الإسلامية التي عمل المصلحون طويلاً لتحقيقها في الأرض فأبى الله تعالى إلا أن يظهرها في وقتها الذي أراده هو سبحانه وتعالى.

وقد كانت الصحوة مفاجأة سارة للمسلمين سيئة لأعداهم الذين خططوا طويلاً لإبعاد المسلمين عن دينهم والتفريق بينهم وبين قرآنهم وسنة نبيهم ﷺ، فظهر الحجاب بعد سفور طويل في أكثر البلاد العربية والإسلامية، وعمرت المساجد بالمصلين بعد هجران طويل، وظهر بدايات الإعلام الإسلامي والاقتصاد الإسلامي، وبدأت المؤسسات الإسلامية المختلفة تبرز إلى الوجود في مجالات عديدة، وبدأ الجهاد في أفغانستان والفلبين والشيشان وفلسطين وكشمير بعدما ظن الناس أن الجهاد قد انتهى وولى زمانه، والحديث عن الصحوة طويل ليس هذا مكانه، وأرجئه إلى وقت آخر إن شاء الله تعالى.

وتلك الصحوة الجليلة هي التي عظمت آثارها بعد ذلك إلى أن حدث ما يسمى اليوم بالربيع العربي ، وظهرت الثورات المباركات، وتغير وجه المنطقة بل التاريخ تمامًا ، ولا شك عندي أن كل ذلك حدث بفضل الله تعالى ثم بتلك الصحوة التي أعقبت معركة رمضان المباركة.

وأُنهي حديثي بطلب لكل من حضر المعركة وسمع شيئًا أو رآه لم أذكره ها هنا أو لم يحضرها لكن عنده من الحقائق عن المعركة ما لم أكتبه، فأرجو أن يبعثه لي على بريدي mmmalshareef@hotmail.com لأني أريد التوثيق لهذه المعركة في كتاب أصدره قريبًا إن شاء الله تعالى.

بعض ما كتبته في الشأن المصري في صفحتي في الفيس بوك

١) قد كنت في مصر لمدة ٢٤ ساعة أو أقل، لمحاضرة في الزقازيق، وقد رأيت وسمعت ما سرني وساءني، لكن يبقى الأمل قائمًا وبقوة أن تحصل الكتلة الإسلامية بكل أطيافها على الأغلبية في البرلمان القادم -إن شاء الله- لكن دون ذلك مؤامرات ضخمة، وكيد هائل، ومكر الليل والنهار، والذي أراه -والله تعالى أعلم- أن الإسلاميين سينالون الأغلبية مهما عظم الكيد، لكن لا بد أن يفهم الإخوة في مصر أنه لا بد من التكاتف، والتعاضد، والتآزر، وتناسي الخلافات، والوقوف صفًّا واحدًا، والتنسيق القوي والدائم، وعدم تضييع هذه الفرصة التاريخية، والله تعالى الموفق.

٢) إن من أجمل الأخبار وأحسنها ما سمعناه من اقتحام السفارة اليهودية في القاهرة وتحطيم محتوياتها، فإن في هذا أبلغ إشارة لإخوان القردة بأنه لم يعد لهم مكان في بلاد الكنانة، وأن رتعهم في مصر في ثلاثين سنة خلت قد انتهى بإذن الله، فقد رجعت مصر إلى حضن الإسلام وحَجْر العروبة بفضل الله، وهذا كله يؤيد ما أراه وأخبرتكم به مرارًا من أن النصر قادم والتمكين آت - إن شاء الله تعالى- وهذه بشائره الأولى في مصر قد ظهرت وستتوالى عما قريب على أيدي أسود المصريين بإذن الله.

٣) قد لامني بعض القراء على إشادتي بما جرى في القاهرة من اقتحام لسفارة إخوان القردة محتجًا بما صاحب ذلك من فوضى واتجاه للسفارة السعودية بعد ذلك، ومحاولة حرقها، وأن الأمور لا ينبغي أن تكون هكذا، وأقول: إنني لم أفرح إلا بالمبدأ وهو أن هذه السفارة يجب أن تغرب من وجه الكنانة، وأن هؤلاء القوم لا يفقهون إلا القوة، ولا يخرجون إلا بهذا، ولا بد أن يفهموا ألا بقاء لهم في مصر أبدًا -إن شاء الله تعالى- أما التدمير والقتل خارج محيط السفارة فلا أرضاه ولا أقره والله المستعان، وهو المسئول أن يرينا اليوم الذي ينصرنا فيه على أبغض أهل الأرض.

٤) **محاكمة القرن:**

رأيت البارحة محاكمة مبارك وأزلامه ولم أملك نفسي من التأثر ففاضت عيناي، فقد رأيت شيئًا لم أكن أتوقع رؤيته أبدًا ورأيت أعمدة الحكم في موقف ذليل جدًّا، وتذكرت قول الله تعالى: ﴿لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ [البقرة: ١١٤] وهذا الذي جرى يدق جرس الإنذار لسائر الحكام حتى يرتدعوا عن الظلم ويكفوا عن الطغيان وهو بشرى خير جليلة لأهلنا في مصر أنهم مقدمون على مرحلة جديدة فيها التمكين إن شاء الله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٥، ٦].

٥) ذكرت «شبكة محيط» أن المخابرات الأمريكية درست شخصية مبارك بوسائل علمية، وفى أوقات عدة، في أمريكا، وفى مصر، وغير ذلك، وأعدت مئات التقارير عنه، وقالوا: إنه يكره الإسلام!! والعرب، ولذلك كان يقف في

وجه الوحدة العربية، وأنه كذاب وأنه منتفخ، وفارغ، ومغرور، وجبان، وبليد، ويستمتع بتدمير الآخرين، وعدواني، فإنا لله وإنا إليه راجعون، فإن هذا هو الذي حكم مصر ٣٠ سنة وهو بهذه الصفات، وقدم خدمات هائلة لليهود والمخابرات الأمريكية، وكان العدو الأكبر للدعاة.

٦) دولة اليهود اليوم في أسوأ أحوالها، أما سياسيًّا فحلفاؤهم يتساقطون واحدًا تلو الآخر، ابن علي، ومبارك، والقذافي، وبشار والحبل على الجرار، وأما إعلاميًّا فإمبراطورية مردوخ تتهاوى وتنهار شيئًا فشيئًا، وأما داخليًّا فالشعب اليهودي قلق جدًّا لعدم ثقته بحكومته، ونتنياهو منقسم على نفسه، وأما عسكريًّا فحماس تقوى يومًا بعد يوم، والصهاينة قلقون جدًّا، إذن أستطيع أن أقول إن هذه الدولة المسخ تواجه حالة لم تمر عليها في تاريخها، وهذا مبشر بأمر قريب قادم.

٧) كتبت هذا عقب ما جرى من اعتصام في ميدان التحرير آخر نوفمبر ٢٠١١:

ما يجري في مصر مزعج حقًّا، ولا ندري الباعث عليه، فمعظم مطالب القوى السياسية الإسلامية والوطنية الصادقة قد تحققت، فوثيقة المبادئ أصبحت استرشادية، غير ملزمة، والانتخابات تحدد وقتها حتى الرئاسية، والعلمانيون خابوا وخسروا وضل سعيهم الحثيث لتأجيل الانتخابات، أو تجميدها، أو التأثير على كتابة الدستور، فلا أجد مبررًا لهذا الذي يجري في التحرير، ثم إن طرد بعض المشايخ والدعاة من الميدان هو أمر لا يبشر بخير، وعلى العقلاء تلافيه، فإن المشايخ والدعاة هم مصابيح الثورة، ونجومها التي

تهدي وترشد وتوجه وتنبه، وهم جزء من الثورة، وعمد من أعمدتها، فحذار من تهميش أولئك، وأن ينفرد بالثورة غيرهم، فهذا يخاف أن يؤدي إلى سرقة الثورة، أو إضعافها -لا قدر الله- وإذا أخطأ بعضهم فهم غير معصومين، فينبغي ألا يسارع إلى تخوينهم، أو سبهم، أو الانتقاص منهم، والله المستعان.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

٧) اليوم -إن شاء الله تعالى- تنطلق الانتخابات المصرية، وهي أهم انتخابات في العالم الإسلامي على الإطلاق؛ وذلك للثقل المصري موقعًا وعددًا وثرواتٍ وآمالًا، والمرجو من الله -تعالى- أن يمن علينا بانتصار الإسلاميين انتصارًا كاسحًا، وأن يخيب ظن أعداء الإسلام في الخارج والداخل، والمغفلين الذين على أعينهم غشاوة من اللبراليين وغيرهم وكل التوقعات تشير إلى نصر أكيد -إن شاء الله تعالى- فإن حدث هذا فستكون المرة الأولى في تاريخ مصر التي يتسلم فيها الصالحون مقاليد الحكم في أهم بلد إسلامي، وستكون حقًّا حدث الأحداث في هذا القرن الخامس عشر الهجري/ الحادي والعشرين الميلادي.

والله المسئول أن يتم هذا الحدث على خير، وأن يحمي مصر من المؤامرات والكيد العالمي المستعين بالعملاء والمغفلين في الداخل، والله حسبنا وهو ولينا، وعلى الله فليتوكل المؤمنون.

***

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- **«الأعلام»**: خير الدين الزركلي. نشر دار العلم للملايين. بيروت. الطبعة الخامسة. سنة ١٩٨٠.
- **«البداية والنهاية»**: للحافظ ابن كثير: إسماعيل بن عمر (ت٧٧٤). تحقيق مجموعة من الأساتذة. نشر دار ابن كثير. دمشق- بيروت. الطبعة الأولى سنة ١٤٢٨/ ٢٠٠٧.
- **«ثمرات الأوراق»**: تقي الدين أبوبكر بن علي بن محمد بن حجة الحمويّ. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. نشر دار الجيل. بيروت. الطبعة الثانية. سنة ١٤٠٧.
- **«حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة»**: الحافظ جلال الدين السيوطي (ت ٩١١). تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. نشر دار إحياء الكتب العربية. القاهرة. الطبعة الأولى سنة ١٣٨٧/ ١٩٦٧.
- **«دَرّ الغمام الرقيق برسائل الشيخ السيد أحمد بن الصديق»** جمع الأستاذ عبد الله التليدي. الطبعة الأولى سنة ١٤٢١/ ٢٠٠٠.
- **«ذكريات علي الطنطاوي»**. نشر دار المنارة. جدة.
- **«رحلة ابن بطوطة»** المعروفة بـ«تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب

الأسفار». تحقيق عبد المنعم العريان. نشر دار إحياء العلوم. بيروت. الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ

- **«الروضتين في أخبار الدولتين»**: شهاب الدين أبو شامة المقدسي = عبد الرحمن بن إسماعيل الشافعي. نشر دار الجبل. بيروت.
- **«سير أعلام النبلاء»** : الحافظ الذهبي (ت ٧٤٨). نشر دار الرسالة. بيروت.
- **«صحيح مسلم»**.
- **«عجائب الآثار في التراجم والأخبار»**: عبد الرحمن بن حسن الجبرتي. طبعة حجرية قديمة سنة ١٢٩٧.
- **«فصول إسلامية»** علي الطنطاوي. نشر دار الفكر. دمشق. الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ.
- **«الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة»** لابن ظهيرة. تحقيق مصطفى السقا وكامل المهندس. نشر دار الكتب. القاهرة. سنة ١٣٨٩/ ١٩٦٩.
- **«القاموس المحيط»**: الفيروز آبادي.
- **«الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة»**: نجم الدين الغَزِّي. تحقيق د. جبرائيل جَبُّور. نشر دار الآفاق الجديدة. بيروت. الطبعة الثانية ١٩٧٩.
- **«مختصر كتاب الروضتين في أخبار الدولتين: النورية والصلاحية»** الكتاب الأصل للإمام أبي شامة المقدسي (ت٦٦٥). والمختصر لكاتب هذا الكتاب. نشر دار الأندلس الخضراء. جدة. الطبعة الثانية ١٤٢٠/ ١٩٩٩.

فهرست الموضوعات





العشر من رمضان - تليفاكس: ٣٦٢٣١٣ - ٣٦٣٣١٤ / ٠١٥
مكتب القاهرة - ت: ٠٢٢٤٠٣٨١٣٧ - فاكس: ٠٢٢٤٠١٧٠٥٣